

مجلة

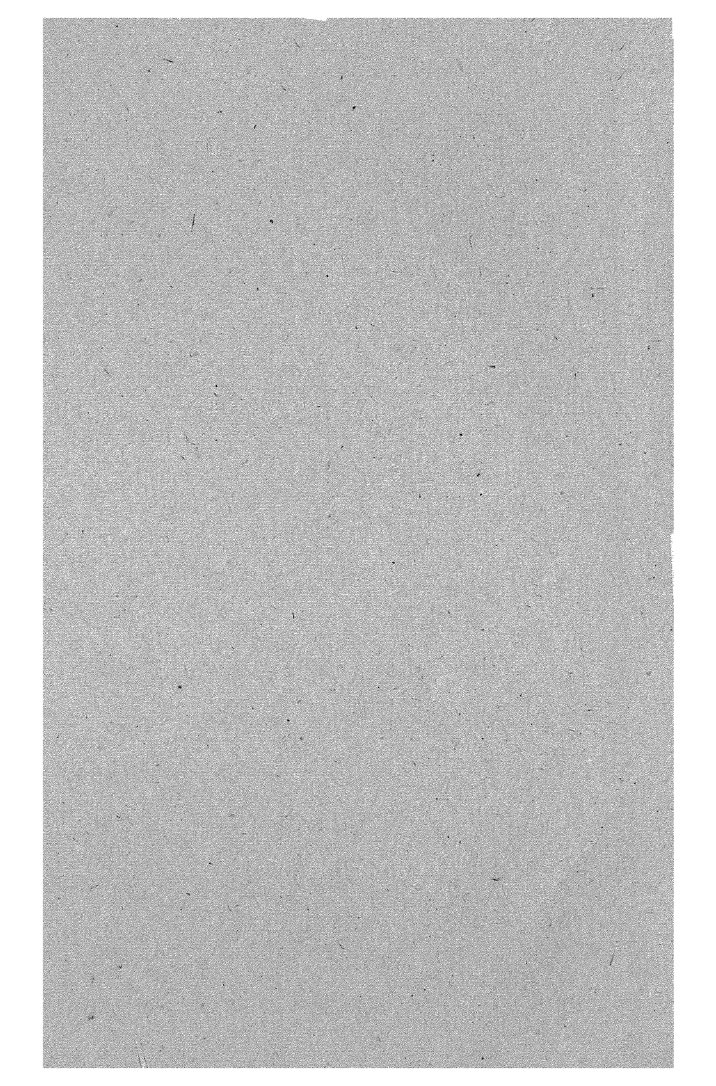
كلية الآداب



المجلد السابع والعشرون — الجزءان الأول والثانى

مايو ، ديسمبر ١٩٦٥

الهيئة العامة للكتب والأجهزة العلمية
مطبعة جامعة القاهرة
١٩٦٩







المجلد السابع والعشرون — الجزءان الأول والثانى
مايو ، ديسمبر ١٩٦٥

الهيئة العامة للكتب والأجهزة العلمية
مطبعة جامعة القاهرة
١٩٦٩

رقم الايداع بدار الكتب ١٥٢ سنة ١٩٦٩

تصدر هذه المجلة مرتين كل سنة ، فى مايو وديسمبر ، وتطلب من مكتبة جامعة القاهرة بالجيزة ، وتوجه المكاتبات الخاصة بالناحية العلمية الى المشرف على تحريرها الأستاذ الدكتور عميد كلية الآداب بجامعة القاهرة .

* يصدر هذا المجلد عن سنة ١٩٦٥ فى عدد واحد بدلا من عددين .

فهرس القسم العربى

صفحة



الأزمة المالية فى عهد الخديوى اسماعيل

أسبابها — تطوراتها — نتائجها

للدكتور السيد رجب حراز

« ان شخصية اسماعيل ، الخديوى الأول ، تمثل احدى المسائل الجدلية المسلية المثيرة فى التاريخ • فبعد ثلاثة عشر عاما من توليه العرش ، ارتفع الدين القومى فى مصر من ٣٫٣٠٠٫٠٠٠ جنيه الى ٩١٫٠٠٠٫٠٠٠ جنيه • وفى سنة ١٨٧٦ أفلست مصر ، وأصبحت ضحية سهلة للسيطرة الأجنبية • كل هذا القول حقيقة واقعة ، أما الباقى ، الخاص بالأسباب والمسئوليات ، فانه ضرب من التخمين وعرضة للجدل • وفى رأى كثير من المؤرخين أن اسماعيل كان دائما هو اسماعيل المبذر المسرف ، رجل أخذ الحكم وبلاده غنية مزدهرة وتركها فقيرة مستعبدة ، رجل يملؤه الطموح والاسراف الطائش ، لا يصلح لشىء الا السعى وراء ملذاته ، مبذر أحمق • وفى رأى مؤرخين آخرين ، فانه اسماعيل العظيم ، رجل الدولة الذى يعرف طريقه ، ذو بصيرة واخلاص ، لم يكن يسعى الا الى سعادة وعظمة شعبه • فاذا كان قد اقترض ، فانما كان لأجل الأسباب : لمساعدة رعاياه فى مصائبهم ، ليبنى مرافق عامة ، ليربط دولته بالخطوط الحديدية والسفن التجارية ، ليحول الاسكندرية والقاهرة الى عواصم صحية مريحة • واذا كان قد اقترض الكثير ، فان ذلك يرجع الى أنه وقع تحت رحمة مجموعة من اللصوص لا خلاق لهم » •

بهذه العبارات استهل دافيد لاندز الفصل الخامس من كتابه « مصرفيون وباشوات » [1] ، ولخص فيها وجهتى نظر المؤرخين بصدد اسماعيل

(1) Landes, D: Bankers and Pachas. International Finance and Economic Imperialism in Egypt. London, 1958.

وقد ترجم الدكتور عبد العظيم أنيس هذا الكتاب إلى اللغة العربية بعنوان : « بنوك وباشوات » . القاهرة ١٩٦٦ . أنظر ص ١١٥ من الترجمة العربية .

والأزمة المالية العصيبة التى حلت بمصر فى السنوات الأخيرة من حكمه ، والتى أثارت خواطر الكتاب المعاصرين من أوروبيين ووطنيين .

والواقع أن الكتاب الأوروبيين المعاصرين قد حملوا اسماعيل (١٨٦٣ – ١٨٧٩) مسئولية الأزمة ، بل مسئولية كل شىء وقع فى ولايته ، أو خديويته ، باعتبار أن شخصه كان المهيمن الأول على شئون الدولة تماما . ونحى غالبية الكتاب المصريين المعاصرين منحى الأوروبيين ، ولو أن كتاباتهم كان يتخللها من جهة أخرى شعور واحد ، هو الألم من تغلغل النفوذ الأوروبى فى مرافق الدولة ، ثم انعدام الثقة بكل ما هو أجنبى (٢) بسبب الضنك الذى حل بالبلاد لتدخل الممولين والحكومات الأجنبية فى شئونها .

واستمرت كتابات العهد التالى لحكم اسماعيل تهاجمه بشدة وتحمل على سوء ادارته ، وكان أقساها : مؤلفا اللورد ملنر (٣) واللورد كرومر (٤) . وقبل أحكامهما غالبية المؤرخين المحدثين ، مع أنه كان قد انبرى للرد على اللورد كرومر الكاتب الروسى تيودور روزشتين (٥) . وفضلا عن ذلك ، فقد حاول المؤرخون الالمان أن يميطوا اللثام عن حقيقة العمليات المالية التى وقعت فى عهد اسماعيل ، فاجتمعت كلمتهم على ادانة الممولين الأجانب والمغامرين الأوروبيين الذين أحاطوا باسماعيل ووضعوا أنفسهم فى خدمته ، والذين تمكنوا من « تضليله رغم معرفته بالشئون المالية العامة » (٦) . وهذا بينما كان هؤلاء الأجانب جماعة من المرابين الذين لا ضمير ولا خلاق لهم ، ولا يهمهم سوى

(٢) أنظر اسماعيل باشا سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار . جزءان . القاهرة ١٣١٤ هـ ، محمود باشا فهمى : البحر الزاخر فى تاريخ الأوائل والأواخر . القاهرة ١٣١٢ هـ .

(٣) Milner, A : England in Egypt. London, 1894.

(٤) Cromer, Earl of : Modern Egypt. 2 vols. London, 1908..

(٥) Rothstein, T : Egypt's Ruin. A Financial and Administration Record. London, 1910.

وقد ترجم الأستاذان عبد الحميد العبادى ومحمد بدران هذا الكتاب إلى اللغة العربية بعنوان : « تاريخ المسألة المصرية ١٨٧٥ – ١٩١٠ » . الطبعة الأولى ١٩٢٣ ، ثم الطبعة الثانية ١٩٣٦

(٦) Lüttke, M : Agyptens neue Zeit. Ein Beitrag zur Culturgeschichte des gegenwärtigen Jahrhunderts ...... (1873), Bd. 2, S. 32.

اشباع بطونهم (٧) ، تساعدهم فى ذلك الوقت سيطرة « المفتش » وزير مالية اسماعيل ، الذى صار يجلب اليه المال بكل الوسائل غير متورع فى سبيل ذلك عن سلوك الطرق غير المشروعة . لكى يغنم هو الآخر من وراء ذلك أسلابا كبيرة (٨) .

غير أنه لم يفطن الى هذه الحقائق سوى النزر اليسير من الكتاب والمؤرخين المصريين ، فحدد الياس الأيوبى (١٩٢٣) مسئولية « المفتش » حيال الارتباك المالى الذى حدث فى وقته (٩) . بينما حمل الدكتور محمد صبرى (١٩٣٣) على أفك وسوء نية المولين والدائنين الأجانب أوعلىحدقوله : «النهبالمنظمللخزانة على أيدى الأجانب » (١٠) pillage systematique du Tresor par les étrangers . وذكر الأستاذ محمد رفعت (١٩٣٢) أن « السبب الوحيد » الذى من أجله قلبت أوروبا ظهر المجن لاسماعيل ، هو عجزه بعد عام ١٨٧٥ عندما « أصبح لا يمكنه أن يملأ بطون الذين منوا أنفسهم بأن يثروا على حسابه » (١١) . ومع ذلك ، فلم تخل كتابات المؤلفين الأخيرين من الاشارة الى اسراف اسماعيل وسوء ادارته ، بل ان الدكتور صبرى اعتبر بذخ الخديوى وتبذيره هو السبب الأول للارتباك المالى الذى أصاب مصر فى عهده (١٢) ، وكذلك فعل الأستاذ عبد الرحمن الرافعى (١٩٣٢) (١٣) .

وتصدى بعض الكتاب والمؤرخين الأجانب للرد على هذا الاتهام . مثل القاضى الأمريكى كرابتيس (١٤) (١٩٣٣) الذى هاجم كتابات ملنر وكرومر ،

---

(٧) Kaufmann, W : Das Internationale Recht der aegyptischen Staatsschuld (1891), S. 178.

(٨) Hron, K : Agypten und die Agyptische Frage (1895), S. 126 ; Fricks, Von : Agypten (1894), Bd. 1, S. 15.

(٩) الياس الأيوبى : تاريخ مصر فى عهد الخديوى اسماعيل باشا جـ ٢ ص ٣٥٨ وما بعدها .

(١٠) Sabry, M : L'Empire Egyptien sous Ismail et L'Ingérence Anglo-Française 1863—1879 (Paris 1933), p. 111.

(١١) محمد رفعت : تاريخ مصر السياسى فى الأزمنة الحديثة جـ ٢ ص ١٠

(١٢) Sabry, M : Op. cit, p. 108.

(١٣) عبد الرحمن الرافعى : عصر اسماعيل جـ ٢ ص ٢٨ وما بعدها .

(١٤) Crabitès, P : Ismail. The Maligned Khedive ... (1933), pp. 16—46, 119—154.

ثم المؤرخ الايطالى أنجلو سامارکو [١٥] (١٩٣٥) الذى تولى الرد على الكتاب المصريين والأجانب معاً ، واضعا نصب عينيه اقامة الدليل على أن اسراف اسماعيل لم يكن هو سبب الارتباك الذى حل بمالية الدولة فى عهده ٠

ورغما عن ذلك ، فقد استمر الخلاف حول أسباب الارتباك المالى فى عهد اسماعيل بين الكتاب الأجانب [١٦] والمصريين على السواء ، فيقول الأستاذ صبحى وحيده (١٩٥٠) تعليقا على حفل افتتاح قناة السويس عام ١٨٦٩ :
« ترجع فخامة هذا الافتتاح الى رغبة اسماعيل فى انتهاز فرصته والسير بالأزمة التى كانت تقوم حينئذ بينه وبين الآستانة الى غايتها ، ولكنها لا شك تتصل أيضا بميول الترف التى صحبت حكمه ، والتى أراد غالب مؤرخيه أن يردوا اليها افلاسه (عبد الرحمن الرافعى ومحمد صبرى) وحاول الباقون تغطيتها مستعينين بما عرف عنه فى شبابه من ميل للادخار أو ما قام به من مشروعات عامة لم تكن كلها اسرافا (سامارکو وكرابتيس) ٠ والحقيقة عندنا هى أنه بينما كان محمد على لا يريد من ألقاب الشرف غير اسمه ولا يصبو الى منافسة السلطان الا فى سلطته ، كان أبناؤه يريدون أن يكونوا ملوكا ويتمسكون بمظاهر الملك فى انتظار ذلك ويفعلون هذا بحماسة الملكيات الجديدة وعلى سبيل الدعوة الداخلية والخارجية ٠ وقد أنشأ عباس لنفسه قصورا وفرض على رجاله أن يقيموا لأنفسهم مثلها ٠ وأراد سعيد لنفسه بلاطا عصريا كبيرا وحرسا ملكيا زاهيا ٠ودأب الاثنان على احاطة حركاتهما بأبهة مسرحية فاقعة ، ولكنهما لم يتركا لاسماعيل شيئا يذكر خصوصا بالقياس الى ما كانت تصبو اليه نفسه الطموح بطبيعتها ٠ وهكذا اضطر اسماعل أن يقيم ما تحتاج اليه الأسرة الجديدة من قصور دفعة واحدة ، وأن يجمع بين ذلك وبين تجميل عاصمته تجميلا حديثا ، وأن يفعل هذا فى الوقت الذى كان يسير أثناءه بسياسته المالية الانشائية سيرا سريعا » [١٧] ٠

---

(١٥) Sammarco, A : Les Règnes de Abbas, de Said et d'Ismail (Roma 1935), pp. 169—240.

(١٦) The Cambridge History of the British Empire, vol 3 (Cambridge 1959), p. 107.

(١٧) صبحى وحيده : فى أصول المسألة المصرية (القاهرة ١٩٥٠) ص ١٦٢

أما الدكتور محمد فؤاد شكرى (١٩٥٢) فقد اعتمد على التقرير الذى بعث به القنصل الأمريكى فارمان Farman الى حكومته من القاهرة فى ٨ يوليو ١٨٧٩ ولخص فيه حكم اسماعيل وبين الأسباب التى أحدثت الأزمة المالية ثم أدت الى خلع الخديوى ، وذلك لاثبات أن سوء الادارة فى عهد اسماعيل لم يكن هو سبب الأزمة المالية ، فقال : « لم يذكر (التقرير) كلمة واحدة يمكن بها الاستدلال على أن اسراف اسماعيل ــ الذى تغالى الكثيرون فى اعتباره عاملا أساسيا ــ كان منشأ هذه الأزمة أو من العوامل التى ساعدت على استحكامها . بل ان فارمان كان صريحا فى قوله ان مغامرات المضاربين والمصرفيين الأجانب الذين طلبوا فوائد باهظة لديونهم كانت هى السبب الرئيسى فى حدوث الأزمة المالية » .

واستنادا على تقرير فارمان كذلك ، اعتبر الدكتور شكرى مسألة اسراف اسماعيل وتبذيره من قبيل الأساطير المغرضة ، فيقول : « ان تشويه سمعة الحكم (أى حكم اسماعيل) على يد حكومة فرنسا وأصحاب الديون الفرنسيين وفريق من الدائنين الانجليز ، كان عملا المقصود به تسويغ التدخل السياسى فى شئون مصر وخلع الخديوى . ولقد وجدت انجلترا عندما انتهى الأمر باحتلالها هى لهذه البلاد أن من صالحها أن تستمر هذه الحملة المشوهة لسمعة الخديويين ، ولاظهار عجز البلاد عن ادارة شئونها عموما ، وذلك لتبرير أو تسويغ حادث الاحتلال البريطانى نفسه . وكان تشويه سمعة الحكم هذا على يد فرنسا فى أثناء الأزمة المالية ، واستمراره على يد الانجليز عقب الاحتلال البريطانى ، منشأ أسطورة الاسراف الذى أرغم الخديوية على الاستدانة واستتبع لزوما فى عرف هذه الأسطورة احتلالا أجنبيا للبلاد لاصلاح شئونها » (١٨) .

***

وعلى ذلك ، فالسؤال الذى يطرح نفسه هو : ما هى الأسباب التى أدت الى حدوث الارتباك المالى فى أواخر عهد الخديوى اسماعيل ؟

---

(١٨) محمد فؤاد شكرى : مصر والسودان . تاريخ وحدة وادى النيل السياسية فى القرن التاسع عشر (القاهرة ١٩٥٢) ص ١٩١ - ١٩٢

لقد جاء فى التقرير المرفق بمشروع قانون المقابلة بتاريخ ٢٨ أغسطس عام ١٨٧١ أن « المجلس الخاص (١٩) يرى أن حالة مصر المالية لا توجب القلق مطلقا ، ولكنها تستلزم عناية سموكم (الخديوى) من جهة مراعاة رخاء البلاد فى المستقبل . ومن المعلوم أن الأسباب التى أدت بالخزينة العامة الى شبه الضيق المالى هى : (أولا) العجز المتخلف من سعيد باشا (ثانيا) الاشتراك فى انشاء القنال والمصاريف الباهظة التى جر اليها ذلك الاشتراك (ثالثا) الأموال الجزيلة المصروفة فى سبيل مقاومة طاعون المواشى وملافاة مضاره (رابعا) الأشغال التى أجريت لترقية شئون الزراعة والتجارة (خامسا) وأخيرا الأزمة القطنية المتسببة عن انتهاء الحرب الأمريكية ، فالبلاد لغاية الآن بفضل الرخاء المنتشر فيها وفلاحها تمكنت من القيام بمقتضيات العبء الثقيل الملقى على عاتق الخزينة . ولكن الفطنة تشير مع ذلك بالبحث عن دواء ناجح للمستقبل . غير أن الوصول الى اكتشاف الداء يستلزم معرفة الداء ، فأين هو الداء ؟ الداء فى سعر الفوائد المرتفع التى تدفعها حكومة سموكم ، والتى تبلغ وحدها أكثر من نصف الايرادات العمومية » (٢٠) .

وفى الحقيقة يلخص هذا التقرير الأسباب الرئيسية التى أدت الى عقد القروض ، وهى الأموال التى أنفقت فى ملافاة أثر الكوارث الطبيعية التى اجتاحت مصر فى سنوات حكم اسماعيل الأول ، وما خلفه الوالى محمد سعيد (١٨٥٤ — ١٨٦٣) من ديون ثابتة وسائرة (٢١) ، ثم ما أنفقته الحكومة المصرية على قناة السويس : ثمن أسهم وتكاليف حفر واقامة منشآت وتعويضات نقدية بالغة « للشركة العالمية لقناة السويس البحرية » La Compagnie Universelle du

---

(١٩) Le Conseil Privé هو المجلس الذى كان يدعوه الخديوى من النظار والباشوات للنظر فى شئون الدولة العامة .

(٢٠) ورد نص هذا التقرير فى إلياس الأيوبى : تاريخ مصر فى عهد الخديوى اسماعيل باشا جـ ٢ ص ٢٨٣ وما بعدها .

(٢١) الدين السائر Dette Flottante عبارة عن المبالغ المتبقية على الوالى والحكومة عند العجز عن دفع كافة النفقات المتفق عليها مع الشركات والأفراد المختلفين للقيام بالأعمال والمشروعات العامة . أما الدين الثابت Dette Consolidée فهو عبارة عن القروض التى اقترضها الوالى من المصارف الأوروبية بضمان ثابت كدخل بعض المصالح الحكومية .

Canal Maritime de Suez • وهذا فضلا عن ملايين من الجنيهات خسرها الاقتصاد المصرى نتيجة للتعبئة المدنية التى فرضت على الشعب المصرى من أجل انشاء القناة فى وقت لاحت فيه للاقتصاد المصرى فرصة ذهبية نادرة بسبب قيام الحرب الأهلية الأمريكية (١٨٦١ — ١٨٦٥) وتعذر تصدير القطن الأمريكى الى انجلترا وفرنسا ، مما أوجد طلبا متزايدا من هاتين الدولتين للأقطان المصرية والهندية (٢٢) •

غير أنه كان الى جانب هذه الأسباب الثلاثة أسباب أخرى لا تقل عنها فى الأهمية ، ذكر التقرير المتقدم أحدها ، وهو « سعر الفوائد المرتفع » • فقد جاء فى تقرير ستيفن كيف Stephen Cave المشهور عام ١٨٧٦ أن التكاليف الحقيقية لكل قرض مصرى لم تقل عن ١٢٪ ومنها ما بلغت ٢٦٫٩٪ كما حدث فى قرض السكة الحديد عام ١٨٦٦ (٢٣) • وفى كتابه عن « القانون الدولى ودين الدولة المصرية » يقول المؤرخ الألمانى كاوفمان : « لقد بلغ من جشع رجال الأعمال والمولين الأوروبيين أنهم لما رأوا حاجة اسماعيل الى عقد القروض لاتمام مشاريعه ، كانوا يستغلون ضعفه المالى بشكل مستبشع ، فكانوا يفرضون عليه شروطا مالية لو جرؤ فرد منهم على استعمالها فى أوروبا لكان جزاؤه السجن من قضاة المحاكم فيها » (٢٤) •

---

(٢٢) أدى قيام الحرب الأهلية الأمريكية عام ١٨٦١ إلى حدوث أزمة أو مجاعة قطنية فى كل من انجلترا وفرنسا . وكانت آثارها أشد وطأة فى انجلترا ، حيث توقف عن العمل كثير من مصانع الغزل والنسيج ، وبلغ عدد العمال المتعطلين أكثر من ٥٠٠,٠٠٠ عامل . ولملافاة الانهيار التام فى صناعات الغزل والنسيج ، أقبل أصحاب المصانع الانجليز والفرنسيين على استيراد الأقطان المصرية والهندية ، كما قدم أصحاب المصانع الانجليز عروضا مغرية للتوسع فى زراعة القطن فى مصر ، وأبدوا استعدادهم لشراء جميع الأقطان التى تزرعها مصر بأسعار مجزية للغاية . ولكن أعباء السخرة فى حفر القناة أعاقت إلى حد كبير انتاج القطن فى أواخر عهد سعيد وأوائل عهد اسماعيل ، كما حرمت البلاد من الانتفاع بالارتفاع الجنونى فى أسعار القطن . أنظر عبد العزيز الشناوى : « ما تكلفته مصر فى إنشاء قناة السويس » المجلة التاريخية المصرية . المجلد السادس سنة ١٩٥٧ ص ١٤٤ — ١٤٥ وكذلك

The New Cambridge Modern History, vol X (Cambridge 1960), p. 638.

(٢٣) McCoan, J. C : Egypt as it is (London 1877), Appendix G, Mr. Cave's Report on the Financial Condition of Egypt, pp 384—402.

(٢٤) Kaufmann, W : Das Internationale Recht der aegyptischen Staatsschuld, S. 178.

ويتساءل بهذا الصدد كذلك الأستاذ عزيز خانكى : « ما قولك دام فضلك فى دائن يقرض مدينه ٤٧٤٥ جنيها ويستكتبه سنـدا بمبلغ ٦٨٤٩ جنيها ، أى بزيادة ٢١٠٤ جنيها على الأصل • ولا يكتفى بذلك بل يشرط لنفسه علاوة على هذه الزيادة الفاحشة فوائد ربوية فاحشة ؟ البداهة تنطق فى الحال بأن العملية عملية باطلة بطلانا جوهريا لابتنائها على الربا الفاحش وعلى ما فيها من غبن وغش وتدليس واكراه • اعلم أن هذا ما حصل تماما لمصر فى عهد سـعيد وفى عهـد اسماعيل • أقرض رجال المال فى أوروبا سعيد واسماعيل ١٤٠ر٤٥٢ر٤٧ جنيها، واستكتبوهما سندات بمبلغ ١٦٠ر٤٩٧ر٦٨ جنيها ، أى بزيادة ٠٢٠ر٠٤٥ر٢١ جنيها على الأصل ، واستباحوا لأنفسهم فوق ذلك اقتضاء فوائد ربوية فاحشة على الأصل وعلى الاضافة الوهميـة (التى لم تدفع) تتراوح بين ٧ و ٩ و ١٢ و ١٤ و ١٨ فى المائة • هل رأيت أو سمعت أن دائنا يضيف ٣٠ر٧٣ فى المائة من أصل دينه الى أصل د ينه ، ثم يأخذ على ما دفعه وعلى ما لم يدفعه فوائد ربوية فاحشة تتراوح بين ٧ فى المائة و١٨ فى المائة • لأن النسبة المئوية بين ماقبضـه سعيد واسماعيل وقدره ١٤٠ ر٤٥٢ر٤٧ جنيها وما تعهـدا بدفعـه وقـدره ١٦٠ر٤٩٧ر٦٨ جنيها تبلغ ٢٧ر٦٩ والباقى وقدره ٧٣ر٣٠ من مائة،هى نسبة ماعلاه الدائن على أصل الدين وسماه فرق سعر الاصدار وعمـولة وسمسرة • لعل التاريخ لم يرو عملية قرض تجلت فيها شراهة الدائن وفظاعة الربا مثل العمليات التى أحاطت بالقروض التى اقترضها سعيد واسماعيل » (٢٥) •

على أن هناك أسبابا لم يشر اليها التقرير السالف الذكر ، وهى أسباب تتصل بطبيعة شخصية اسماعيل المتناقضة • فمع أنه ظل حتى نهاية أيامه بخيلا مقترا فى نفقات بيته الخاص ويتشاجر مع بستانيه على أمور تافهة ويرفض دفع بقشيش لخادمه فى أحد فنادق باريس،الا أنه كحاكم كان متلافا للمال لا يميز بين الجنيهات والمليمات (٢٦) ، كما كان محبا للظهور والتمتع بملذات الحياة الى أقصى حد ،

---

(٢٥) عزيز خانكى : « ديون مصر أمام المحاكم المختلطة » . الأهرام ١٠ – ١٢ – ١٩٣٥

(٢٦) دافيد لاندز : بنوك وباشوات ص ١٢٠ . ويقول أحمد شفيق باشا : « من سوء الطالع أن اسماعيل كان آية فى الاسراف ، يبذر المال بغير حساب ويعشق البذخ الطائل . فلقد تأنق ما شاء فى زينة الملك وزخرفه ، وأكثر من تشييد القصور وملأها بأسراب الجوارى الحسان وأجزل العطايا والهبات . فكان ثالث ثلاثة من ذوى الفخامة والعظمة والأبهة والاسراف : هم السلطان عبد العزيز والامبراطور ==

فأنشأ قصرا بالجيزة (مكانه الآن حديقة الحيوان) لمجرد المتعة كلف الدولة ٣٠ مليون فرنك وقصرا آخر على ضفاف البسفور لينزل به عند زيارته القسطنطينية وفضلا عن ذلك ، فقد كان اسماعيل يسعى لتكوين أرستقراطية مصرية يزين بها بلاطه ([٢٧]) ، فأكثر من اهداء الأراضى الواسعة الخصبة لرجال حاشيته وزوجهم من جواريه وحباهم بالأموال الكثيرة والحلى الثمينة •

ثم كانت هناك أسباب أخرى تتصل بسياسة اسماعيل الافريقية وسعيه لمد الدولة المصرية الى حدودها الطبيعية كما كان يراها ، أى من سواحل البحر المتوسط شمالا الى خط الاستواء ومنابع النيل جنوبا ومن سواحل البحر الأحمر شرقا الى المحيط الهندى ومنه الى وسط القارة حتى البحيرات الاستوائية ([٢٨]) ، فضلا عن رغبته فى الغاء الرق ومكافحة تجارة الرقيق فى السودان والأقاليم الاستوائية واحلال تجارة مشروعة محلها ([٢٩]) واستكشاف نهر النيل وفتحه للملاحة من غندكورو الى البحيرات الاستوائية ([٣٠]) • ولاشك أن هذه السياسة قد كلفت مصر نفقات طائلة • وقد اعترف اسماعيل للقنصل البريطانى ستانتون بأنه أنفق حتى مطلع عام ١٨٧٦ نيفا ومليونا من الجنيهات

= نابليون الثالث واسماعيل خديوى مصر »أنظر : مذكراتى فى نصف قرن جـ ١ (القاهرة ١٩٣٤) ص٢٤.
ويرى دونالدبليسدل أن اسماعيل كان أكثر اسرافا وتبذيرا من باى تونس (محمد الصادق) الذى انتهى به الأمر إلى التوقيع على معاهدة باردو فى ١٢ مايو ١٨٨١ التى اعترفت تونس فيها بالحماية الفرنسية عليها . أنظر

Blaisdell, D. C : European Financial Control in the Ottoman Empire (1929), pp. 23—4.

(٢٧) صبحى وحيده : فى أصول المسألة المصرية ص ١٦٣

(٢٨) محمد صبرى : مصر فى إفريقية الشرقية (القاهرة) ١٩٤٧ ص ١٣ — ١٤ ، وكذلك
Sabry, M : Op. cit, pp. 375—552.

(٢٩) **Shukry, M. F : The Khedive Ismail and Slavery in the Sudan 1863—1879, Cairo 1937 ; Sandwitch, M. F : «Egypt and Egyptian Sudan 1841—1907», Cambridge Modern History, vol XII, pp. 429—456.**

(٣٠) **Hill, R : Egypt in the Sudan 1820—1881 (Oxford 1959) ; War Office, Bureau of the General Staff, Cairo : Summary of Geographical and Scientific Results accomplished by Expeditions made by the Government of the Khedive of Egypt during the three years 1874—5—6 (Proc. Royal. Geog. Soc. vol XXI. London 1877, pp. 63—6.**

الانجليزية فى محاولة فتح الأقاليم الاستوائية فى افريقية الوسطى للتجارة والحضارة (٣١) .

وعلاوة على ذلك كله ، فهناك أسباب تتصل برغبة اسماعيل فى توسيع الاستقلال الداخلى لمصر . ففى سبيل التخلص من قيود معاهدة لندن عام ١٨٤٠ وفرمان ١٨٤١ والتوسع فى حقوق الباشوية المصرية ، اتبع اسماعيل سياسة ارضاء السلطان العثمانى ورجال حاشيته بارشائهم واغداق الأموال والهدايا عليهم . ومن ثم ، فقد صدرت ابتداء من عام ١٨٦٦ عدة فرمانات ، كان آخرها الفرمان الشامل الجامع فى عام ١٨٧٣ ، الذى حوى كل الامتيازات التى حصلت عليها الخديوية المصرية من قبل ، وأطلق يد الخديوى فى جميع شئون مصر (٣٢). وبهذا الفرمان استحال دفعة واحدة ما كان من قبل دينا شخصيا على الخديوى الى دين على الحكومة المصرية .

تلك هى الأسباب التى أدت الى الارتباك المالى فى أواخر عهد اسماعيل . وفى رأينا أن السبب الأكبر والمباشر لذلك الارتباك هو جشع الدائنين والممولين ورجال الأعمال الأجانب وعمليات النهب والقرصنة التى استنزفوا عن طريقها موارد الخزانة المصرية (٣٣) ، ثم يأتى بعد هذا الأسباب الأخرى التى أشار اليها التقرير المرفق بمشروع قانون المقابلة ، أو التى لم يشر اليها وتكلمنا عنها آنفا .

***

---

(٣١) F. O. 78/3189, 195/1103, Stanton to Derby, 9 Jan., 1876.

(٣٢) Nahoum, Haim: Recueil des Firmans Impériaux Ottomans addressés aux Valis et aux Khedives d'Egypte. Le Caire, 1934 ; Douin, G : Histoire du Regne du Khédive Ismail, tome 2 eme (Roma 1934), pp. 711—742.

(٣٣) فى مقال بعنوان « مصر والخديوى » **Egypt and the Khedive** بعدد ديسمبر عام ١٨٧٧ من « مجلة القرن التاسع عشر » **Nineteenth Century Review** تكلم الكاتب والصحفى الانجليزى ادوارد ديسى **Dicey** عن القروض التى عقدها اسماعيل ، وقال إنها أنفقت فى مشروعات اتسمت بالاسراف والتبذير ، وضرب مثلا على ذلك بالسكك الحديدية التى ذكرت حسابات الحكومة المصرية أنها تكلفت ١٣,٣٦١,٠٠٠ جنيه انجليزى ، فى حين أنها لم تكن تساوى غير ٣,٢٠٠,٠٠٠ جنيه انجليزى فقط . وفى عدد فبراير عام ١٨٧٨ من المجلة المذكورة رد ماكون **McCoan** على ديسى وقال بخصوص النقطة السالفة : « قد يظن مستر ديسى أن هذا المبلغ كبير ، ولكن مصر ليس البلد الوحيد الذى كلفته السكك الحديدية فوق قيمتها الحقيقية »

«Mr. Dicey may think this too high a figure, but Egypt is not the only country where railways have cost more than they are worth».

وأيا ما كان الأمر ، ففى صيف عام ١٨٦٣ انتشر وباء الماشية (الطاعون البقرى) المتقدم الذكر فى الوجه البحرى ، وراح يقتل الماشية خلال ساعات قلائل من ظهور أعراضه ، فامتلأت فروع النيل البطيئة الجريان بآلاف الرمم المتعفنة . وقبل نهاية سبتمبر ، أصبحت أغنى مديريات مصر خاوية من الماشية (٣٤) . ولما كانت مصر لا تعلم غير طرق الوقاية البسيطة لمكافحة الوباء ، فقد امتد أثره سريعا الى الوجه القبلى . وقدرت الخسائر بنحو ٢٥٠,٠٠٠ أو ٣٠٠,٠٠٠ رأس من الماشية . فساءت حال الفلاح وتعطلت زراعته ، واضطرت الحكومة الى تقديم الأموال المتتابعة لتعويض الأهلين عما فقدوه ولمساعدتهم فى زراعاتهم ، ثم جلبت لهم الماشية والأغنام من ايطاليا واليونان والأناضول وسوريا والمغرب (٣٥) . وتمت هذه الاجراءات بالطبع عن طريق شركات وبيوت مالية محلية مثل بنك « ديرڤيو وشركاه » Dervieu et Cie وبنك « أوبنهايم وشركاه Oppenheim et Cie بالاسكندرية وغيرهما ، والذين أضافوا عمولاتهما الكبيرة الى الثمن الباهظ أصلا . وقدرت قيمة التعويضات التى دفعتها الحكومة للفلاحين والنفقات التى تحملتها فى كفاح هذا الوباء حتى عام ١٨٧٣ - ١٨٧٤ بنحو ٣,٨٣٧,٥٦٢ جنيها انجليزيا (٣٦) .

وفى خريف العام نفسه حدث فيضان النيل الذى ازداد فجأة فى أواسط سبتمبر ، فأغرق فى الصعيد مساحات كبيرة من الأراضى . غير أن المحصولات الزراعية كانت فى مخازنها ، فلم يصب الوجه القبلى بخسارة جسيمة مثلما حدث فى الوجه البحرى ، حيث أتلف الفيضان محصول القطن والذرة ، وأغرقت السكة الحديد من كفر الزيات الى طنطا تقريبا ، فتعطلت المواصلات بين القاهرة والاسكندرية وأصبحت الباخرة هى وسيلة الاتصال السريع الوحيد بينهما . وعلى فرع دمياط ، انهارت الجسور فى مواقع متعددة ، وخصوصا عند طلخا (٣٧) . وأما الخسائر التى سببها الفيضان فيصعب تقديرها ، ولو أن محصول القطن وحده لعام ١٨٦٣ كان يقدر بنحو مليونى قنطار بثمن يبلغ ٣٠٠

(٣٤) دافيد لاندز : بنوك وباشوات ص ١٣٣ - ١٣٤

(٣٥) Douin, G : Op. cit, tome 1 ere (Roma 1934), pp. 233—4.

(٣٦) Crabitès, P : Ismail. The Maligned Khedive, p. 150.

(٣٧) Douin, G : tome 1 ere, pp. 235—6.

مليون فرنك ، ولم يصدر منه هذا العام سوى نحو ١٫٢٨٧٫٠٠٠ قنطار [٣٨] •
وكان من آثار هذا الفيضان ارتفاع أسعار الحنطة والذرة ، وحدوث المجاعات ، فاهتمت الحكومة باستيراد الغلال من الخارج وتوزيعها بأثمان مخفضة على الأهالى حتى وردت الغلات من الوجه القبلى [٣٩] •

بيد أنه لم تلبث أن أصيبت البلاد بكارثة أخرى ، هى انتشار الكوليرا عقب عودة الحجاج من مكة فى مايو عام ١٨٦٥ • ومع أنه لم يظهر أثر للوباء فى السويس ، فلم يمض شهر واحد حتى حدثت أول اصابة به فى الاسكندرية فى ١١ يونية • وسرى الوباء الى أبى قير وطنطا والقاهرة ، ثم الى رشيد ودمياط والمنصورة ، وانتشر فى مصر السفلى والوسطى • وفى يولية ، ظهرت الكوليرا فى بنى سويف ، وانتشرت من ثم فى الوجه القبلى ، فأضطربت الأحوال ، وهاجر كثيرون من المقتدرين الوطنيين •

أما فى الاسكندرية ، حيث كان الأوروبيون يقبضون على ناصية تجارة التصدير [٤٠] ، فقد وصف دافيد لاندز الحالة هناك بقوله : « فى أول يوم مات عدد قليل من الضحايا ، وفى اليوم الثانى زاد هذا العدد قليلا ، ثم وصل الى عشرات ، ثم مئات • وفى مقابل كل جثة يتم تبليغ السلطات عنها كانت هناك عديد من الجثث تدفن فى هدوء فى الحدائق الخاصة والأقبية • وفى أحياء الفقراء تكومت الجثث فى الحفر الضيقة • وسيطر الفزع على المدينة • وعلى الرغم من أن المرض أصاب فى غالب الأمر الفقراء ، الا أن الأغنياء الذين كان لديهم ما يعيشون من أجله هم أول من هربوا • وضرب الخديوى المثل بنفسه • فاذ كان ممتلئا بالخوف والرعب سارع بالخروج بيخته الى عرض البحر لبضعة أيام من الراحة • وعاد بعد ستة أسابيع • وعند اقدامه اقتحم الأوروبيون الميناء وشقوا طريقهم الى السفن المزدحمة ودفعوا مبالغ ضخمة لينقذوا أرواحهم

---

(٣٨) Douin, G : tome 1 ere, pp. 235, 258.

(٣٩) ميخائيل شاروبيم : الكافى فى تاريخ مصر القديم والحديث جـ ٤ (القاهرة ١٨٩٨) ص ١٤٠.
وقد حدث فيضان آخر فى عام ١٨٦٦ ، ثم فى أعوام ١٨٦٩ و ١٨٧٠ و ١٨٧٢ و ١٨٧٤ و ١٨٧٥ و ١٨٧٦ على التوالى . راجع إلياس الأيوبى : تاريخ مصر فى عهد الخديوى اسماعيل باشا جـ ٢ ص ٢٢٦ — ٢٣٤

(٤٠) Douin, G : tome 2 eme, p. 124.

ويسافروا على مراكب صغيرة لم تكن معدة أبدا للملاحة فى غير المياه العـذبة • ولم تكن لدى السفن التى تدخل الميناء أى فرصة فى انزال شحنتها من البضائع قبل أن تترك الميناء محملة بشحنتها من البشر • وفى فترة أسبوعين نجح حوالى ٣٠ ألف أوروبى(٤١) فى الخروج من مصر • • لقد ماتت التجارة المصرية بالسكتة القلبية »(٤٢) •

وعلى هذا النحو تعطلت الأعمال وأغلقت البيوت المالية والتجارية أبوابها • وهذا بالرغم من ارتفاع أسعار القطن ، ذلك الارتفاع العظيم الذى وصل اليـه أثناء الحرب الأهلية الأمريكية ، والذى كان من شأنه نشاط الأسواق التجارية •

ولمعرفة أثر الكوليرا البالغ فى حياة البلاد الاجتماعية والاقتصادية ، يكفى أن نذكر عـدد ضحاياها • فقد بلغوا فى البحـيرة ٢٢٤٠ والغربيـة ١٠ر٠٦٤ والمنوفية ٢٦٤٨ والدقهلية ٧٣٥٦ والشرقية ٣٥٩١ والقليوبية ٦٩٩ والجيزة ١٤٧٣ وبنى سويف ١٠٣١ والفيوم ١٣٠٦ والمنيا ١٧٦٦ وأسيوط ٤٣٨٧ وجرجا ٥٧٧٥ وقنا ٣٠٨٤ واسنا والقصير ٧١٣ • وبلغ عدد ضحايا الاسكندرية ٤٠١٨ والقاهرة ٦١٠٤ ورشيد ٢١٦٦ ودمياط ٢٣٠٧ ، وذلك بخلاف ضحايا بور سعيد والسويس والاسماعيلية وغيرها • وبلغ العدد الاجمالى لضحايا الكوليرا حوالى ٦١ر١٩٢ ، وذلك فى وقت كان عدد سكان القطر المصرى يبلغ ٤ر٨٤١ر٦٧٧ نسمة(٤٣) •

واستمر الوباء نحو شهرين ، فأختفى من الاسكندرية فى آخر يولية من العام نفسه ، وأخذ يتناقص تدريجيا فى الجهات الأخرى منذ أواسط أغسطس حتى تلاشى تماما فى أوائل الشـهر التالى • ومع أنه من الصعب معـرفة ما تكلفته الحكومة بسبب هذا الوباء ، الا أنه من المؤكد أنها قد تحملت فى سبيل مكافحته الشيء الكثـير ، وذلك بتعميم الوسـائل الصـحية فى البـلاد مثـل انشـاء المستشفيات(٤٤) وردم البرك والمسـتنقعات فى القـاهرة وازالة أكوام التراب

---

(٤١) بلغ عدد سكان الاسكندرية وقتئذ ١٦٠,٠٠٠ نسمة ، من بينهم ٧٠,٠٠٠ أوروبى . أنظر
Sacré, A et Outrebon, L : L'Egypte et Ismail Pacha (Paris 1865), p. 70.

(٤٢) دافيد لاندز : بنوك وباشوات ص ٢٢٥ – ٢٢٦

(٤٣) . **Douin, G : tome 1 ere, pp. 236—240.**

(٤٤) بلغت ستا وثلاثين عام ١٨٧٢ . أنظر
Régny, E. de : Statistique de L'Egypte, d'après des documents officiels ... , 3 eme année, 1872, p. 234.

المحيطة بها ، وانشاء الأحياء الجديدة والشوارع النظيفة فى سبيل تحسين أحوال العاصمة الصحية . فقد كانت اصابات الكوليرا شديدة فى القاهرة فى الأحياء المكتظة والقديمة خصوصا ، فأربت الاصابات فى الأزبكية وباب الشعرية وقيسون وبولاق عن غيرها فى الأحياء الأخرى . واختطت الحكومة فى الاسكندرية الشوارع والأحياء الجديدة ، واهتمت بأعمال النظافة والصحة ، ومنها تبليط كثير من الشوارع وعمل المجارى لتصريف مياه الأمطار .

وفى نفس العام الذى انتشرت فيه الكوليرا فى مصر ، حلت بالبلاد نكبة اقتصادية أخرى ، تتعلق بنزول أسعار القطن فجأة عقب نهاية الحرب الأهلية الأمريكية .

وكان القطن من المحصولات التى وجه اليها اسماعيل - أكبر مالك زراعى فى مصر[٤٥] - كل اهتمامه وعنايته ، بسبب اغلاق أسواق التصدير الأمريكية خلال الحرب الأهلية وضرورة سد حاجات أوروبا وانجلترا خصوصا من الأسواق المصرية . فقد كان الفراغ الذى نجم عن هذه الحرب كبيرا ، اذ أنتجت الولايات المتحدة الأمريكية مثلا فى عام ١٨٥٨ حولى ثلاثة أرباع محصول العالم من القطن

---

(٤٥) اتسعت رقعة الأراضى المنزرعة فى مصر من ٣,٠٥٠,٠٠٠ فدان عام ١٨١٣ إلى ٤,٧٤٣,٠٠٠ فدان عام ١٨٧٧ . أنظر

Issawi, C : Egypt. An Economic and Social Analysis (Oxford 1947), p. 14

وفى تقريره المشهور عام ١٨٧٦ ، ذكر ستيفن كيف أن مساحة أراضى الدائرة السنية أو أملاك الخديوى الخاصة تبلغ حوالى ٣٥٠,٠٠٠ فدان من الأراضى الجيدة فى الوجه القبلى خصوصا ، بالإضافة إلى ١٠٠,٠٠٠ فدان من الأراضى البور غير المنزرعة ، وأن الخديوى يؤجر للفلاحين حوالى نصف أراضيه الجيدة ويحتفظ بنصفها الآخر لكى يزرعها بنفسه ، ويخصص من هذه الأراضى الأخيرة زهاء ١٥,٠٠٠ فدان لزراعة القطن والخضروات على اختلاف أنواعها و ٤٠,٠٠٠ فدان لزراعة قصب السكر . أنظر

McCoan, J. C : Egypt as it is, Appendix G, pp. 384—402.

وحسب تقرير ساندرز Sandars عام ١٨٧٧ بلغت مساحة الأراضى التى يمتلكها الخديوى ٤٨٥,٠٠٠ فدان ، منها ١٧٠,٠٠٠ فدان غير منزرعة و ١١٨,٠٠٠ فدان يؤجرها للفلاحين و ١٩٧,٠٠٠ فدان يتولى زراعتها بنفسه . أنظر

The Khedive and His Calumniators. The Finances of Egypt (London 1878), p. 12.

(أو ٥٨٨٫٠٠٠ طن) كانت تصدر منها الى أوروبا فقط ١٦٨٫٨٧٢ طنـا[٤٦] .
وعندما بدأت هذه الحرب فى أبريل عام ١٨٦١ امتنع عن أوروبا ورود الأقطان الأمريكية ، فكثر الطلب على القطن المصرى وأقبل الناس على زراعته . واستلزم التوسع فى زراعة القطن توفير مياه الرى وجلب العديد من الآلات الحـديثة . ولهذا الغرض ساعد اسـماعيل على انشاء شركة زراعية صناعيـة[٤٧] فى أبريل عام ١٨٦٤ وهى « الشركة الزراعية والصناعية المصرية » **La Société Agricole et Industrielle d'Egypte** برأس مال قدره مليون جنيه . وكان غرضها بيع الطلمبات والمضخات وتشييد آلات الحلج التجارية والمصانع والمعامل على جوانب النيل ، وفى الأماكن التى تجيزها الحكومة[٤٨] .

وكان من نتيجة ذلك كله أن أخذت مصر مكان الولايات المتحدة الأمريكية فى تصدير القطن . وبعد أن كان متوسط ما صدرته مصر من القطن بين عامى ١٨٥٠ و ١٨٦٠ حوالى نصف مليون قنطار سنويا بثمن يتراوح بين عشرة واثنى عشر ريالا للقنطار الواحد ، بلغ مجموع ما صدرته منه فى عـام ١٨٦٢ نحـو ٨٢٠٫١١٠ قنطارا، وفى العام التالى زهاء ١٫٢٨٧٫٠٠٠ قنطار، وارتفع الثمن أيضا الى نحو ٤٦٫٥ ريالا للقنطار . وفى عام ١٨٦٤ وصل الثمن الى ٥٢ ريالا ، وبلغ

(٤٦) Douin, G : tome 1 ere, p. 257

(٤٧) كان صاحب مشروعها أنطوان ليكوفتش **Antoine Lucovich** وهو رجل نمساوى أقام فى مصر مدة ٢٨ عاما ، بدت له فكرة تأسيس « شركة زراعية ميكانيكية » **Société Agricole Mecanique** فى عام ١٨٦٣ لتوصيل المياه إلى الأرض الزراعية بأجور رخيصة ، سواء بعقد اتفاقات مع الأفراد لرى أراضيهم أم ببيع الطلمبات إليهم .

(٤٨) تعدلت أغراضها فى أبريل عام ١٨٦٥ ، فأصبحت شركة تقوم بالأشغال العامة والمقاولات وشراء الأراضى وبيعها بعد إقامة المبانى عليها طلبا للربح ، ثم لاستغلال المحاجر وغير ذلك من الأشغال ذات الأرباح الكبيرة . غير أن الأعمال الجديدة سرعان ما تعطلت عندما انتشرت الكوليرا فى البلاد حتى أواخر أغسطس عام ١٨٦٥ ، فلم تتحسن حال الشركة بعد ذلك بالرغم من مساعدات الحكومة لها ، لسوء إدارتها وكثرة نفقاتها ، فأنهت أعمالها فى فبراير ١٨٦٦ ، ودفعت الحكومة لمؤسسيها تعويضات كبيرة .

مقدار ما صدر ١٫٧٤٠٫٠٠٠ قنطار . وفى عام ١٨٦٥ ازدادت مقادير الأقطان المصدرة الى ٢٫٥٠٧٫٠٠٠ قنطار[٤٩] .

غير أنه سرعان ما هبط مقدار المصدر من القطن فى العام التالى (١٨٦٦) فبلغ ١٫٧٨٥٫٠٠٠ قنطار ، ولو أن السعر قد ظل محتفظا بمستواه فى العام السابق (من ٢٧ الى ٤٢ ريالا) . وفى عام ١٨٦٧ انخفض الثمن فجأة الى النصف تقريبا ، فأستحكمت حلقات الأزمة التى بدأت فى الواقع منذ أن انتهت الحرب الأهلية الأمريكية فى أبريل عام ١٨٦٥ وأستعادت الولايات المتحدة الأمريكية مكانتها السابقة فى التصدير . فكان لهذه الأزمة آثار شديدة فى حياة البلاد الاقتصادية والاجتماعية .

اذ أن الفلاح الذى كان يعيش على الذرة ويكتفى بالقوت والملبس القليل ، كان قد أصبح بفضل الحرب الأهلية الأمريكية فى بحبوحة من العيش ، وصار يأكل الخبز الأبيض واللحم ويشترى الجوارى من النساء للعمل المنزلى والمتعة ،

(٤٩) Douin, G : tome 1 ere, pp. 257—9.

وقد أورد ساكريه وأوتريبو الجدول التالى لبيان مقدار ما صدرته مصر من الأقطان (بالبالات) إلى بريطانيا وفرنسا والنمسا بين سنتى ١٨٥٧ و ١٨٦٤ ، ومنه يتضح مدى ازدياد مقادير الأقطان المصدرة خلال سنوات الحرب الأهلية الأمريكية .

السنوات	بريطانيا	فرنسا	النمسا	المجموع
١٨٥٧—١٨٥٨	٢٠,٢٩٣	٦,٩٠٩	٥,٨٠١	٣٣,٠٠٣
١٨٥٨—١٨٥٩	٣٦,١١١	١٣,٠٦٧	٨,٦٩٤	٥٧,٨٧٢
١٨٥٩—١٨٦٠	٤٧,٢٨٥	١١,٦٢٣	٥,٠٤٥	٦٣,٩٥٣
١٨٦٠—١٨٦١	٥٣,٣٧٣	١٩,١٩٩	٣,٧٥٥	٧٦,٣٢٧
١٨٦١—١٨٦٢	٦٣,١١٢	١٥,٦١٨	٣,٣٨٦	٨٢,١١٦
١٨٦٢—١٨٦٣	٨٦,٧٥٢	٢٤,٨٣٢	٣,٣٠٥	١١٤,٤٣٩
١٨٦٣—١٨٦٤	١٠٠,٢٦٣	٤٠,٣٠٩	٩,٥٦٠	١٥٠,١٣٢

أنظر

Sacré, A et Outrebon, L : L'Egypte et Ismail Pacha (Paris 1865), p. 227.

كما صار يطلب الكماليات وينفق عن سعة ويستدين من المرابين(٥٠) من أجل تحسين زراعته وتوسيع نطاقها أملا فى الربح ، ولشراء الآلات الزراعية كى ينمى محصول القطن • وفضلا عن ذلك ، فقد أهمل الفلاح زراعة الحبوب والخضروات ، مما كان من شأنه ارتفاع أثمان المأكولات عموما ، فتضاعف ثمن الزيت والخضروات ثلاث مرات ، وارتفعت أسعار الغلال والفول بنسبة ٤٠٠٪ ولحم الضأن بنسبة ٣٠٠٪ •

فلما انتهت الحرب ونزلت أسعار القطن ، عجز المزارعون عن سداد أقساط الديون ، وأصبحت ثروة البلاد العقارية مهددة بالانتقال الى الأيدى الأجنبية ، فضلا عن تعرض الدولة للبلبلة والتوتر الذى يصحب بالضرورة أى مصادرة عامة للأرض • وعلاوة على ذلك ، فقد كان فى عدم قدرة الأهالى على سداد ديونهم ضياع ثقة المولين الأجانب فى مصر عموما ؛ وهذا ما كان يحسب له اسماعيل ألف حساب • وفى الوقت نفسه كانت البلاد مهددة بالمجاعة بسبب قلة المحصولات الغذائية وارتفاع أثمانها • وكان طبيعيا أن يسترعى الموقف اهتمام الحكومة ، فمنعت تصدير الغلات الغذائية فى عامى ١٨٦٤ و ١٨٦٥ ، واستوردت من الخارج الكميات الكبيرة من القمح الى أن زال خطر المجاعة تماما فى عام ١٨٦٦ ، فأصبحت تجارة الغلال حرة ثانية ، ونزلت أثمان المحصولات الغذائية •

وأما مشكلة ديون المزارعين ، فقد عالجتها حكومة اسماعيل بتنفيذ الاقتراح الذى تقدمت به لجنة من رجال الأعمال برئاسة ادوارد ديرفيو أحد أصحاب بنك ديرفيو وشركاه بالاسكندرية وصديق الخديوى وسكرتيره الخاص لفترة

---

(٥٠) كان المرابون من الأجانب الذين نزحوا إلى مصر فى عهد سعيد وخصوصا بين عامى ١٨٥٧ و ١٨٦١ بمعدل ٣٠,٠٠٠ أجنبى كل عام . وفى عام ١٨٦٢ دخل مصر ٣٢,٠٠٠ أجنبى ، ثم ٣٤,٠٠٠ فى عام ١٨٦٣ ، ثم ٥٦,٥٠٠ عام ١٨٦٤ . ولم يكن هؤلاء الأجانب كلهم من خيار القوم ، بل كانوا إجمالا من المغامرين الذين أرادوا استغلال البلاد واستنزاف دمائها طلبا للثراء السريع . واقتناصا للفرصة السانحة التى أتاحها إنشاء قناة السويس ورواج القطن المصرى ، انبث الأجانب – واليونانيون خصوصا – فى القرى والأقاليم ، وصاروا يقرضون المزارعين برهون عقارية وبفوائد باهظة تراوحت بين ٣ و ٧ ٪ فى الشهر . أنظر محمد فؤاد شكرى : مصر والسودان ص ٥٦ ، أحمد أحمد الحتة : « الأجانب فى مصر والسودان ١٨٤٩ – ١٨٦٢ » مجلة الاقتصاد والتجارة . العدد الثانى . السنة السادسة (يوليو – ديسمبر ١٩٥٨) ص ١٨٥ – ٢٢٨ ، دافيد لاندز : بنوك وباشوات ص ٨٠

طويلة من حياته • ومؤدى الاقتراح أن تتفق الحكومة مع الدائنين على أن تتحمل هى ديون المزارعين والأهالى ذات الضمانة العقارية وتمهلهم حيال ذلك سبع سنوات لسداد ديونهم قبلها على أقساط سبعة بفائدة قدرها ١٢٪ فقط ، وهى فائدة كانت أقل بكثير جدا من الفوائد المطلوبة للدائنين الأصليين • وفى نظير ذلك تصدر الحكومة « أذونات مالية » بقيمة « دين القرويين » وتعطى للدائنين الأصليين الذين قبلوا تخفيض الدين الى ٩٣٪ من قيمته الاسمية وبفائدة ٧٪ •

وفى ٣٠ أكتوبر عام ١٨٦٥ صدر المرسوم اللازم ، وعرفت الأذونات الجديدة باسم « أذونات القرى » وبلغت قيمتها ١٫٣٨٥٫٠٠٠ جنيه انجليزى(٥١) ؛ أضيفت الى دين مصر السائر ، اذ جعل سدادها للدائنين الأصليين فى عشرة أقساط تبدأ من عام ١٨٩٠ • ولما كان من أغراض هذه العملية(٥٢) حماية المزارعين وحماية ثروة البلاد العقارية ، فقد اتخذت الحكومة التدابير اللازمة حتى لا تتكرر هذه الحالة ، بأن جعلت الضمانة العقارية غير مقبولة أمام المحاكم ؛ الا اذا تمت باشراف السلطة المختصة وتقيدت فى السجلات المعدة لذلك •

ولكن الصعوبات التى واجهت اسماعيل ، كان مصدرها — الى جانب ما تقدم — سببان رئيسيان : ديون سعيد الثابتة والسائرة ، وما خلفه سعيد من نفقات ومتاعب بسب الامتياز الذى أعطاه الى « صديقه المخلص » فردنند دلسبس لحفر قناة السويس • وكان سعيد قد أصدر الامتياز الأول فى ٣٠ نوفمبر عام ١٨٥٤ ، ثم الامتياز الثانى فى ٥ يناير عام ١٨٥٦ الذى فصل فيه الامتيازات التى أغدقها على شركة قناة السويس ، والتى فاقت ما جاء فى الامتياز الأول كما وكيفا • ولم يلبث أن استصدر دلسبس من سعيد فى ٢٠يوليو عام ١٨٥٦ « لائحة استخدام العمال الوطنيين فى حفر قناة السويس ، وهى

---

(٥١) Cattaui, J : Le Khedive Ismail et la Dette de L'Egypte (Le Caire 1935), pp. 52—3 ; Douin, G : tome 1 re, pp. 282—285.

(٥٢) استهدفت مصلحة الدائنين والمدينين والحكومة على السواء ، فقد تحولت بموجبها مطالب الأولين إلى « قرض » حكومى وبضمانة الحكومة من جهة ، وحفظت للأهالى من جهة أخرى ثرواتهم العقارية ، وحققت الخزانة من جهة ثالثة بعض المكاسب وهى الفرق بين فائدة ٧ و ١٢ ٪ .

اللائحة التى ساقت الشركة بموجبها المصريين زمرا الى ساحات الحفر وفق نظام السخرة ([53]) .

أما الديون التى خلفها سعيد فيمكن تلخيصها فى دين ثابت قدره ٣٫٢٩٢٫٨٠٠ جنيه انجليزى ، انتهى الدفع منها فى عام ١٨٧٦ ، ثم دين سائر صدرت به سندات مالية قدرها ٢٫٧٥٤٫٢٠٠ جنيه انجليزى ([54]) . وهذا عدا المبالغ التى كان قد استولى عليها سعيد من « الأوقاف » ومن محصصات الأرامل واليتامى والشركة المجيدية . وقد بلغت ٥٦٧٫٥٢٢ من الجنيهات الانجليزية ، فكان مجموع الديون التى خلفها سعيد والتى أمكن حصرها من ثابتة وسائرة ٦٫٦١٤٫٥٢٢ جنيها انجليزيا ([55]) ، كان على الحكومة أن تبدأ فى سدادها منذ مجىء اسماعيل الى الولاية .

وأما قناة السويس فقد كلفت مسألتها الخزانة المصرية النفقات الطائلة فى أيام سعيد ، ثم فى أيام خلفه . وتتلخص النفقات التى تحملتها حكومة اسماعيل فى سداد ثمن الأسهم ([56]) التى فرضت على مصر فى أيام سعيد وعددها ١٧٧٫٦٤٢ سهما قيمتها الاسمية وقت الاكتتاب ٨٨٫٨٢١٫٠٠٠ فرنك (حوالى ٣٫٥٥٢٫٨٤٠ جنيها انجليزيا) ، دفعت الحكومة منها فى أيام سعيد ٢٫١٥٦٫١٥٧

(٥٣) عبد العزيز الشناوى : « ما تكلفته مصر فى إنشاء قناة السويس » ص ١٣٥ — ١٤٠ ، وكذلك
Freycinet, C. de: La Question d'Egypte (Paris 1904), pp. 110—114 ;
Lenczowski, G: The Middle East in World Affairs (New York 1952), pp. 386—7.

(٥٤) Cattaui, J: Op. cit, pp. 19—20, 28.

وفى تقدير آخر بلغ الدين السائر ٢٫٧٥٤٫٣٥٢ جنيها انجليزيا .

(٥٥) قبل وفاة سعيد بحوالى أسبوعين ، بعث القنصل النمساوى شراينر Schriener فى ٥ يناير عام ١٨٦٣ بتقرير مطول إلى حكومته ، كان مما تناوله فيه مسألة ديون سعيد من سائرة وثابتة ، فقدرها بسبعة ملايين وأربعمائة ألف جنيه إنجليزى (محمد فؤاد شكرى : مصر والسودان ص ٦١) . أما اسماعيل فقد قدر الدين الذى ورثه عن سلفه بأحد عشر مليونا من الجنيهات ، ولكن أحمد شفيق باشا يقول : « والحقيقة التى علمتها من أبى — وكان فى معية سعيد — أنه بعد تصفية التركة لم يكن الدين ليزيد عن أربعة ملايين ونصف مليون من الجنيهات فقط » . أنظر مذكراتى فى نصف قرن جـ ١ ص ٤٠

(٥٦) كانت أسهم شركة القناة وعددها ٤٠٠٫٠٠٠ سهم موزعة بالشكل التالى :

٢٠٧٫١٦٠	سهما	للمكتتبين الفرنسيين	أو ٥١٫٧٩ ٪ من عددها .
١٧٧٫٦٤٢	سهما	لحساب الحكومة المصرية	أو ٤٤٫٤١ ٪ من عددها .
١٥٫١٩٨	سهما	لبقية المكتتبين	أو ٣٫٨٠ ٪ من عددها .

فرنكا فقط ، ودفعت حكومة اسماعيل بقية الثمن بين عامى ١٨٦٣ و ١٨٦٧ ، فبلغت أول دفعة قدمتها فى عام ١٨٦٣ (بالفرنـكات) ١٢٥ر٣٠٥ر٠٢ وفى عام ١٨٦٤ جاء قرار التحكيم المشهور الذى أصدره الامبراطور نابليون الثالث .

وكانت شركة قناة السويس قد التجأت الى نابليون الثالث فى يناير عام ١٨٦٤ للتدخل وفض النزاع القائم بينها وبين اسماعيل حول الامتياز الممنوح لدلسبس من سعيد . ولما كان الامبراطور قد أجاب الشركة فى التدخل وأرسل وزيـر خارجيتـه (Drouyn de Lhuys) الى قنصـل فرنسـا العـام فى مصر تاستو Tastu فى ٦ يناير ١٨٦٤ برغبة الامبراطور فى ألا يوقف اسماعيل الأعمال فى القناة قبل أول أبريل (٥٧) تمهيدا للتوصل الى اتفاق مع الشركة ، فان اسماعيل لم يجد مناصا من قبول هذه الوساطة التى طلبها هو بدوره فى ٣٠ يناير من العام نفسه (٥٨) . ولا شك أن اسماعيل قد جانبه التوفيق فى هذه الخطوة ، لأن نابليون الثالث كان قد احتضن مشروع القناة ، على أساس أنه مشروع من شأنه اعلاء قدر فرنسا فى ربوع الشرق . وعلى كل حال ، فقد بادر الامبراطور بتشكيل لجنة استشارية برئاسة توفنيل Thouvenel وكانت مهمة « لجنة التحكيم » هذه البت فى لائحة ٢٠ يوليو عام ١٨٥٦ المتعلقة بتشغيل العمال المصريين فى حفر القناة وتحديد قيمة التعويض الكافى فى نظير الغاء هذه اللائحة .

وعندما أتمت اللجنة بحوثها ، أصدر نابليون الثالث قرار التحكيم المشهور فى ٦ يوليو عام ١٨٦٤ (٥٩) . وتناول هذا القرار لائحة ٢٠ يوليو عام ١٨٥٦

---

(٥٧) Sabry, M : Op. cit, p. 277.

(٥٨) Douin, G : tome 1 ere, pp. 87—88.

(٥٩) Wraycinet, C. de : La Question d'Egypte, p. 123.

وقد سبب هذا القرار عند صدوره دهشة كبيرة لاجحاف بنوده ، فان اللجنة — وعلى رأسها الامبراطور لم ترع غير مصلحة الشركة وحاجتها الملحة فى هذا الوقت إلى المال اللازم لمواصلة أعمالها . أنظر عبد الرحمن الرافعى : عصر اسماعيل ج ١ ص ١٩٤ — ١٠٠ ، وكذلك

Sabry, M : Op. cit, pp. 277—288 ; Sammarco, A : Op. cit, pp. 160—168.

وفى رأى المؤرخ الايطالى ساماركو أن من المبلغ الذى حكم به التعويض ، كان حوالى ٦٠ مليون فرنك مشكوك فى أحقيتها .

فألبسها صفة « التعاقد » وألزم الطرف المتسبب فى نقضها ــ وهو الحكومة المصرية فى رأى اللجنة ــ بتعويض الطرف الآخر عن الأضرار العائدة (على الشركة) من تعطيل « التعاقد » والغاء السخرة . وقدر القرار هذا التعويض بمبلغ ٤٢ر٥ مليون فرنك . غير أنه لما كانت اللجنة قد وجدت « أن على الشركة أجورا متأخرة للعمال المصريين بلغت فى تقدير اللجنة أربعة ملايين ونصف مليون فرنك ، فقد رأت أن تخصم هذه الأجور المتأخرة من مبلغ التعويض الذى تقرر عن الغاء السخرة ، فأصبح صافى المبلغ المتعين دفعه هو ٣٨ مليون فرنك . وقد استخدم رجال القانون من أعضاء اللجنة الدهاء فى صياغة الحكم لاخفاء حقيقة المبلغ الذى تقرر تعويضا عن الغاء السخرة . فهو يبدو للقارىء العادى لمنطوق الحكم أو للباحث المتعجل أنه ٣٨ مليون فرنك والحقيقة أنه ٤٢ر٥ مليــون فرنــك » (٦٠) .

وبمقتضى قرار التحكيم أيضا تنازلت الشركة عن « حقوقها » فى ترعــة الميــاه العذبة فى نظير ٦ مليون فرنك . وهذا مع احتفاظ الشركة بحق الانتفاع بالترعة بعد أن تقوم الحكومة المصرية باتمامها . وكذلك احتفظت الشركة بقدر من الأرض يبلغ ٢٣٫٠٠٠ هكتار تقريبا . وأرجعت الى الحكومة كافة الأراضى الزائدة عن حاجتها وقدرها ٦٠٫٠٠٠ هكتار ، بينما نالت فى نظير ذلك كلــه تعويضا قدره ٣٠ مليون فرنك ، على أساس تقدير ثمن الهكتار الواحد بخمسمائة فرنك . فبلغ مجموع التعويضات التى نالتها الشركة اذن ٨٨ر٥ مليونا من الفــرنكات ، يستنزل منها ٤ر٥ مليون فرنك قيمة الأجور المتأخرة للعمــال المصريين ، فيصبح صافى المبلغ ٨٤ مليونا .

وفى سبيل تعديل قرار التحكيم السابق ونصوص الامتياز الممنوح لدلسبس بوجه يكفل سيادة الدولة العليا ، لم يلبث أن أبرم اسماعيل مع شركة القنــاة اتفاقات جديدة . وبموجب اتفاق ٣٠ يناير عام ١٨٦٦ استرد الوالى أراضى الطميلات (١٠٫٠٠٠ هكتار أو ٢٣٫٨٠٠ فدان) فى نظير عشرة ملايين من

---

(٦٠) عبد العزيز الشناوى : « ما تكلفته مصر فى انشاء قناة السويس » ص ١٤٩

الفرنكات (حوالى ٣٩٥ر٦٤٠ جنيها انجليزيا) (٦١) ، وأصبح للحكومة الحق فى اقامة الحصون والاستحكامات فى أراضى القناة من غير اعاقة الملاحة وتشييد المصالح والثكنات وخلافها فى نظير ثمن تدفعه الحكومة للشركة ، كما صـار للأفراد حرية الاقامة وامتلاك الأراضى فى المنطقة التابعة للشركة على ضفتى القناة ، على أن يدفعوا الضرائب للحكومة ويخضعوا لقوانين الدولة ، وتنازلت الشركة للحكومة أيضا عن مبانيها فى ضفتى الترعة العذبة ، على أن تؤجـرها لها الحكومة ثانية . وفى ٢٢ فبراير عام ١٨٦٦ أبرم اسماعيل اتفاقا مع الشركة يتضمن الى جانب استرداد الحكومة لكامل سيادتها (٦٢) شروط الامتيـاز الأول مع التعديلات التى طرأت عليه . وفى اتفاق ٢٣ أبريل عام ١٨٦٩ نالت الشركة تعويضا كبيرا بلغ قدره ٣٠ مليونفرنك (٠٠٠ر١٨٧ر١ جنيه انجليزى) تسـدد فيمـا بين عامى ١٨٧٠ و ١٨٩٤ (٦٣) .

وعلاوة على هذه التعويضات الضخمة ، فقد تكلفت مصر بسبب القنـاة نفقات باهظة تتمثل فى النواحى التالية : (٦٤)

أولا ــ نفقات الرحلات التى قام بها اسماعيل ووزيره نوبار فى أوروبا ابان النضال مع شركة القناة .

ثانيا ــ الرشا التى قدمت الى السلطان عبد العزيز ووالدته وبعض موظفى السفارتين البريطانية والفرنسية بالقسطنطينية ابان مفاوضات القناة فى شـهرى

---

(٦١) دفع سعيد عام ١٨٦١ ثمنا لها ما بلغ كما يقول صبرى ١,٩٩٧,٥٣٧ فرنكا أو كما يقول قطاوى ١,٨٥٠,٠٠٠ فرنك . أنظر

Sabry, M : Op. cit, p. 294, Cattaui, J : Op. cit, p. 58.

(٦٢) Fitzgerald, P : The Great Canal at Suez : Its Political, Engineering and Financial History (London 1876), vol 1, p. 332.

(٦٣) Cattaui, J : Op. cit, p. 82.

ثم أنظر المذكرة الايضاحية للقانون رقم ٢٨٥ لسنة ١٩٥٦ بتأميم الشركة العالمية لقناة السويس البحرية (محمد فؤاد شكرى ومحمد أنيس والسيد رجب حراز : نصوص ووثائق فى التاريخ الحديث والمعاصر ص ٣٨١ ــ ٣٩٠) .

(٦٤) عبد العزيز الشناوى : «ما تكلفته مصر فى إنشاء قناة السويس» ص ١٤٩ – ١٥١ ، وكذلك Douin, G : tome 2 eme, pp. 1—36, 283—308 ; Sabry, pp. 311—314 ; Cattaui,J : pp. 82—87.

يونية ويولية عام ١٨٦٣ • فقد قدم نوبار باسم اسماعيل الى والدة السلطان قلادة ماسية ثمنها عشرة آلاف جنيه انجليزى ، وقدم هدايا مماثلة الى رجال البلاط والوزراء • وخص فؤاد باشا الصدر الأعظم ٣٠٠٠٠ قطعة ذهبية من العملة المجيدية لم يقبلها الا بعد أن أذن له السلطان فى قبولها • كما قدم نوبار الرشا الى مستر ستيفنس Stephens السكرتير الخاص للسفير البريطانى بالقسطنطينية ، والى مسيو أوترى Outrey المترجم الأول بالسفارة الفرنسية بالقسطنطينية ، وكان كل منهما يطلع نوبار على بريد السفارة •

ثالثا ــ الرشا التى قدمها نوبار فى باريس الى الدوق دى مورنى de Morny أخ الامبراطور نابليون الثالث ورئيس الهيئة التشريعية فى فرنسا ، لكى يساند الحكومة المصرية فى موقفها أثناء نزاعها مع الشركة خلال سنتى ١٨٦٣ و ١٨٦٤ •

رابعا ــ النفقات الجسيمة للحملة الصحفية التى نظمها نوبار فى باريس ضد شركة قناة السويس ، والتى استمرت فترة طويلة ، واشتركت فيها خمس جرائد ، كانت الجريدة تتقاضى ستين جنيها عن نشر المقال الواحد •

خامسا ــ نفقات الاستشارات القانونية التى كان يصدرها أعلام القانون فى فرنسا وقتذاك وبعض أعضاء مجلس النواب الفرنسى مؤيدة وجهة نظر الحكومة المصرية فى نزاعها مع الشركة • وكان نوبار يطبع أعدادا وفيرة من هذه الاستشارات ويوزعها بالمجان على مختلف هيئات باريس وجمعياتها وأنديتها ودور النشر • وكانت الصحف فى باريس تنشر هذه الاستشارات بعد أن تتقاضى خمسة فرنكات عن كل سطر •

سادسا ــ الخسائر أو النفقات التى نجمت عن اضطرار الحكومة الى اصدار سندات على الخزانة حتى تحصل على الأموال اللازمة لدفع الأقساط المستحقة للشركة •

وفضلا عن ذلك كله ، فهناك نفقات الحفلات التى أقامها اسماعيل ابتهاجا بافتتاح قناة السويس للملاحة العالمية فى ١٧ نوفمبر عام ١٨٦٩ ، وهى الحفلات التى حضرها جل ملوك أوروبا وأعلام الثقافة فيها وترأستها الامبراطورة أوچينى

Eugenie زوجة الامبراطور نابليون الثالث ، والتى قالت عنها بأنها لم تر فى حياتها ما يماثلها روعة وبهاء • وقد تكلفت هذه الحفلات مليونا وأربعمائة ألف جنيـــه [٦٥] •

وحسب البيان الرسمى الذى قدمته الحكومة المصرية الى مجلس شورى النواب عام ١٨٧٦ ، بلغ ما دفعته مصر فى انشاء القناة ١١٩ر٠٧٥ر١٦ جنيها • وهذا عدا آلاف المواطنين الذين ماتوا نتيجة العطش أو الجوع أو الأوبئة فى ســاحات الحفــر •

***

ولقد ظهر أثر الصعوبات التى خلفها سعيد بعد أقل من عامين فقط من وصول اسماعيل الى الحكم • فقد واجه الوالى ضرورة تسديد الأقساط المستحقة من قرض سعيد الثابت ، ثم ما استحق من ثمن أسهم قناة السويس ، وما كان عليه أن يدفعه عقب قرار تحكيم نابليون الثالث • وهذا عدا النفقات التى استلزمها تنظيم الجيش والبحرية وضرورة مكافحة وباء الماشية الآنف الذكر والخــراج السنوى الى القسطنطينية ، وما تكلفته زيارة السلطان عبد العزيز (١٨٦١ــ١٨٧٦) لمصر فى المدة من ٧ الى ١٧ أبريل عام ١٨٦٣[٦٦] ، وهى أول زيارة يقوم بها أحد السلاطين العثمانيين ابان توليته الحكم لمصر منذ أن غزاها السلطان سليم الأول عام ١٥١٧ ، ثم نفقات الحملة المصرية الى الحجاز وعسير[٦٧] •

---

(٦٥) أحمد شفيق باشا : مذكراتى فى نصف قرن جـ ١ ص ٢٥

Freycinet, C. de : La Question d'Egypte, pp. 128—130 ; The Cambridge History of the British Empire (Cambridge 1961) p. 589 ; Dicey. E : The Story of the Khedivate (London 1902), pp. 78—82.

(٦٦) Douin, G : tome 1 ere, pp. 1—18 ; Sabry, M : pp. 126—7 ; Cattaui J : p. 25.

وكان يرافق السلطان خلال هذه الزيارة الصدر الأعظم فؤاد باشا ، الذى قبل من اسماعيل مبلغ ٦٠,٠٠٠ جنيه انجليزى على سبيل الهدية ، مقابل الخدمات التى أداها — أو التى كان من المفروض أن يؤديها — لاقامة علاقات ودية بين السلطان والوالى . أنظر

Dicey, E : The Story of the khedivate, p. 58.

(٦٧) Douin, G : tome 1 ere, pp. 315—9.

ولما كانت موارد الدولة لا تكفى المطالب المتقدمة[٦٨] ، وكانت الحكومة فى أوائل سبتمبر عام ١٨٦٤ عاجزة عن دفع مرتبات الموظفين ، وكان اسماعيل نفسه مفلسا بعـد أن استهلك منذ زمن ايراد محصول عـام ١٨٦٣ وامتص كلا من بيتى ديرفيو وشركاه وأوبنهايم وشركاه بالاسكندرية حتى الثمالة ؛ اذ كان مدينا لهما فى سبتمبر بمبلغ ٤٠ مليون فرنك[٦٩]فقد اضطر الى عقد قرضه الأول مع بيت فرولنج جـوشـن Fruhling-Goschen الانجليزى الألمـانى فى أكتـوبر عام ١٨٦٤ . وكانت قيمة هذا القرض الاسمية ٥٫٧٠٤٫٢٠٠ جنيه انجليزى ؛ فى حين بلغت قيمته الحقيقية ٤٫٨٦٤٫٠٦٣ جنيها فقط ، وقيمـة العمولة والسمسرة ٨٤٠٫١٣٧ جنيها ، وكانت فائدته ٧٪ ويصير سداد القرض فى خمسة عشر عاما من أبريل عام ١٨٦٥ الى أكتوبر عام ١٨٧٩ على قسطين كل سنة ، وضماناته ايراد ثلاث مديريات من الوجه البحرى هى الدقهلية والشرقية والبحيرة[٧٠] .

ودفع اسماعيل من المبلغ المتحصل من هذا القرض الأموال المطلوبة لصندوق اليتامى والمأخوذة من مخصصات الأعمال الخيرية فى عهد سعيد . وهذا غـير سداد الدين السائر الذى قدم أصحابه من العملاء والتجار ما أثبت ادعاءاتهم . وبلغ جميع ما دفع فى هذا السبيل ٣٫٣٩٣٫١٢٠ جنيها انجليزيا ، فيكون ما تبقى لدى اسماعيل حوالى المليون ونصف تقريبا من الجنيهات كادت أن تكون كافية لاستقامة الأحوال لولا نفقات رحلة والدة الوالى الى القسطنطينية ومكافحـة طاعون الماشية الذى استمر عامين (١٨٦٣ ـ ١٨٦٥) ثم انتشار وباء الكوليرا ووقوع أزمة القطن المعروفة فى عام ١٨٦٥ ، بالاضافة الى عشق اسماعيل للمظاهر وحبه للترف وادمانه للاستدانة ، فكما يقول دافيدلاندز : « أصبح الدين (لديه) كادمان الخمر ، كلما اقترض زادت شهوته الى الاقتراض » [٧١] .

---

(٦٨) فى حين دفعت الحكومة المصرية فى عام ١٨٦٤ (بالجنيهات الانجليزية) ٦٫١٧٦٫٤٢٧ سدادا لبعض الوجوه المتقدمة ، فقد قدرت ايرادات الدولة السنوية بنحو أربعة ملايين وربع من الجنيهات الانجليزية فقط . أنظر

The Khedive and His Calumniators. The Finances of Egypt, p. 11.

(٦٩) دافيد لاندز : بنوك وباشوات ص ١٩٣

(٧٠) عزيز خانكى : « ديون مصر أمام المحاكم المختلطة » .

Cattaui, J : pp. 51—52 ; Douin, G : tome 1 ere, pp. 280—281.

(٧١) دافيد لاندز : بنوك وباشوات ص ١٩٣

وعلاوة على ذلك ، ففى عام ١٨٦٥ كانت قد ظهرت الحاجة الى تحسين خطوط السكك الحديدية ، بسبب النشاط التجارى والزراعى ابان مدة اشتعال الحرب الأهلية الأمريكية ، وعجز السكة الحديد بين القاهرة والاسكندرية عن احتمال عبء التجارة المتزايدة وحدها . وكان التجار الأجانب قد طالبوا عام ١٨٦٤ بتوفير سبل النقل وسرعتها لتصريف بضائعهم فى الداخل بسهولة ومن غير ابطاء عقب انزالها من السفن فى الاسكندرية خصوصا . فعنى اسماعيل باجابة مطلبهم(٧٢) ، وفكر فى عقد قرض جديد لاصلاح السكك الحديدية ، ولانشاء شبكة من الخطوط الحديدية تربط أطراف البلاد من سواحل البحر المتوسط الى أواسط السودان ، ولانشاء شبكة أخرى فرعية تخدم اقطاعياته الواسعة ، ولدفع جزء من الديون السائرة ، وعهد الى نوبار باشا(٧٣) بالمفاوضة فى باريس.

وكانت مهمة نوبار شاقة ، وذلك لقرب تاريخ القرض الأول ، ولجشع الممولين الأجانب . وكاد نوبار أن يعقد القرض المطلوب بفوائد باهظة ، لولا أن تدخل اسماعيل . فأستؤنفت المفاوضة وتم الاتفاق نهائيا فى ٥ يناير عام ١٨٦٦ على قرض السكة الحديدية مع بيت أوبنهايم بباريس (٧٤) . وكانت قيمة القرض الاسمية ثلاثة ملايين جنيه انجليزى والحقيقية ٢٫٦٤٠٫٠٠٠ ، ونفقاته ٣٦٠٫٠٠٠ بفائدة قدرها ٧٪ ومدة السداد ستة أعوام من أول يناير عام ١٨٦٩ . وتم الاتفاق على أن يدفع نصف القرض نقدا (١٫٣٢٠٫٠٠٠ جنيه انجليزى) والباقى تشترى به الحكومة أدوات ومهمات السكة الحديدية ، فيتناول عنها البنك سمسرة قدرها ٥٪ (٥٧) . وقد بلغت أرباح البنك من هذه العملية وحدها

(٧٢) بلغت أميال السكك الحديدية المنشئة حديثا فى عهده ١٢٠٠ ميل كما يقول كيف أو ١١٨٥ كما يقول روزشتين أو ١٠٨٥ كما ذكر على مبارك باشا (الخطط التوفيقية ج ٧) تكلفت ١٣,٣٦١,٠٠٠ جنيه انجليزى. وهذا عدا السكة الحديد التى اعتزم بناءها من وادى حلفا إلى الخرطوم لربط السودان بمصر . فقد تم من هذا الخط ٥٧ كيلو مترا ، ولكن تعطل العمل فيه عام ١٨٧٨ بسبب الأزمة المالية . أنظر

Leon, Edwin de : Egypt under Its Khedives (London 1882), p. 184.

(٧٣) كان نوبار قد تعين وزيرا للأشغال العمومية فى بداية عام ١٨٦٥ ، واستمر فى منصبه حتى يناير ١٨٦٦ ، فتعين وزيرا للخارجية .

(٧٤) **Sabry, M : Op. cit, pp. 131—132.**

(٧٥) **Cattaui, J : pp. 55—56 ; Douin, G : tome 1 ere, pp. 286—7.**

٦٦٫٠٠٠ جنيه انجليزى[٧٦] • وجعلت ضمانة هذا القرض السكة الحديدية ، وتم سـداده فى أقساط سـنوية قـدر كل منها ٦٢٩٫٣٨٧ جنيها انجليزيا فى عام ١٨٧٤ •

غير أن هذا القرض لم يقابل حاجة اسماعيل المتزايدة للمال ؛ بسبب زيادة الأقساط السنوية الى شركة قناة السويس اثر الاتفاقين المبرمين معها فى ٣٠ يناير و ٢٢ فبراير عام ١٨٦٦ • فقد دفعت الحكومة المصرية الى الشركة فى أعـوام ١٨٦٤ و ١٨٦٥ و ١٨٦٦ نحو ٢٦٫٢٥٠٫٠٠٠ فرنك[٧٧] • وكان من المنتظر الآن زيادة الدفعات المطلوبة عملا باتفاق فبراير الآنف الذكر حتى تسدد الحكـومة كافـة تعويضـات الشركة وثمن أراضى وادى الطميلاتعلى النحـو التـالى (بالفرنكات) ؛ وهو ٣٦٫٧٥٠٫٠٠٠ فى عام ١٨٦٧ ، ثم ١٩٫٢٥٠٫٠٠٠ فى كل من عامى ١٨٦٨ و ١٨٦٩[٧٨] • بيد أنه كانت هناك عدا ما ذكر نفقات أخـرى جديدة ، بسبب الأموال التى بذلها اسماعيل لكسب عطف الباب العالى حتى ينجح فى مفاوضات تغيير الوراثة •

فعقد اسماعيل اذن قرض الدائرة السنية الأول مع بنك «الانجلو اجبشيان» The Anglo-Egyptian Bankوهو القرض الذى كلف اسماعيل الخسائر الفادحة بسبب نهم المولين الأجانب وضغط الحكـومة الفرنسية • وكانت قيمة هـذا القرض الاسمية (بالجنيهات الانجليزية) ٣٫٣٨٧٫٣٠٠ ، والحقيقية ثلاثة ملايين فقط ، ومدة سداده خمسة عشر عاما (من ١٨٦٦ الى ١٨٨١) وفائدته ٧٪[٧٩] •

---

(٧٦) يضاف إلىذلك ربح البنك من الفرق بين القيمة الحقيقية للقرض وهى ٨٨ ٪ من قيمته الاسمية ،و بين السعر الذى اشترى به الماليون فىلندن وهو ٩٢٪ من القيمة الاسمية أى $\left(\frac{٨٨ \times ٣,٠٠٠,٠٠٠}{١٠٠}\right)$ مطروحة من $\left(\frac{٩٢ \times ٣,٠٠٠,٠٠٠}{١٠٠}\right)$ أو ١٢٠,٠٠٠ جنيه انجليزى ، فيكون قد ربح أوبنهايم من عملية هذا القرض ٦٦,٠٠٠ + ١٢٠,٠٠٠ = ١٨٦,٠٠٠ جنيه انجليزى . ويقول أنجلو ساماركو أنه ثبت له من الاطلاع على محفوظات سراى عابدين (القصر الجمهورى حاليا) أن مصر دفعت فى غضون ثمان سنوات فوائد عن هذا القرض وحده مقدارها ١,١٥٤,٩٩٨ جنيها . إذ قبضت ٢,٦٤٠,٠٠٠ جنيه وردتها ٤,١٥٤,٩٩٨ جنيها ، أى بفرق ١,١٥٤,٩٩٨ جنيها عبارة عن فوائد ربوية فاحشة . أنظر

Sammerco, A : Les Régnes de Abbas, de Said et d'Ismail, p. 176.

(٧٧) **Cattaui, J : pp. 48—9.**

(٧٨) **Douin, G : tome 1 ere, p. 198.**

(٧٩) **Douin, G : tome 1 ere, pp. 287—8 ; Sammarco, A : p. 188.**

وقد وقع جول باستريه Jules Pastré أحد مديري بنك « الانجلو » على هذا القرض فى ١١ أكتوبر عام ١٨٦٥[٨٠] ، وافتتح الاكتتاب به فى مارس من العام التالى .

ومع ذلك ، فلم ينجح هذا القرض بسبب المساعى التى بذلها لاخفاق هذه العملية بيت « أوبنهايم » منافس « الانجلو » ، ولاضطراب الأسواق المالية فى أوروبا عندما حلت بها أزمة مالية عصيبة فى يونية عام ١٨٦٦ ، بسبب اندلاع الحرب البروسية النمساوية[٨١] . ولما كان « الانجلو » قد احتفظ بقدر كبير من هذا القرض طمعا فى الربح عن طريق المضاربة فى المستقبل ، فقد وجد نفسه على وشك الافلاس ، وأضطر الى بيع ما قيمته ٦٠٠٠٠٠ جنيه انجليزى بخسارة ٣٣٪ ، وطلب من اسماعيل تعويضا لا مبرر له عن هذه الخسارة . ولما كان جول باستريه يمثل فى الحقيقة مصلحة الماليين الفرنسيين فى مصر لعلاقته بالبنك العقارى الفرنسى Crédit Foncier فى باريس ، فقد تدخل قنصل فرنسا لنجدة البنك . واضطر اسماعيل بسبب هذا الضغط السياسى الى عقد اتفاق مع باستريه فى يولية عام ١٨٦٦ أنقذ به الموقف . اذ قبل أن يسترد السندات الغير مكتتب بها وقيمتها نصف القرض (أو ٣٧٫٥ مليونا من الفرنكات أى ١٫٥٠٠٫٠٠٠ من الجنيهات الانجليزية) ، كما قبل أن يدفع للبنك تعويضا عن خسائره وأن يعطيه أيضا حق توريد الفحومات اللازمة للسكة الحديد لمدة عامين . أما ما وصل الخزانة من هذا القرض ، فكان ٢٫٧٥٠٫٠٠٠ جنيه انجليزى فقط [٨٢] .

ولكن جشع المولين الأجانب لم يلبث حتى ظهر من جديد ، عندما أراد اسماعيل أن يتخلص من سندات القرض المعطلة بين يديه وهو لا يزال فى حاجة الى المال بعد العملية الخاسرة المتقدمة . فقد أوفد الماليون الفرنسيون من أصحاب المصلحة فى البنك لعقارى الفرنسى مسيو تشرنسكى Cernuschi حتى يضع تحت تصرف الدائرة السنية ٢٢٫٥٠٠٫٠٠٠ فرنك يتم دفعها للدائرة فى ديسمبر

---

(٨٠) Sabry, M : p. 133.

(٨١) Phillips, W. A : Modern Europe 1815—1815 (London 1920) pp. 425—448.

(٨٢) Cattaui, J : pp. 60—65.

عام ١٨٦٧ ، على أن يودع اسماعيل فى نظير ذلك السندات السابقة لدى البنك العقارى الفرنسى كضمانة ، ومع تخويل تشرنسكى المذكور حق التصرف فيهـا اذا تأخر دفع الأقساط المستحقة ، أو بيعها لحساب الدائرة السنية اذا ما طلب منه ذلك ، على أن تحتسب قيمتها بعد خصم العمولة اللازمة بمقدار ٦٩٫٥٪ . وبذلك يكون اسماعيل قد تحمل خسارة جسيمة بسبب أخطاء بنك « الأنجلو » الأولى . ولكن دخول « البنك العقارى » فى هذه العمليــة كان له أثره ، لأن الحكومة الفرنسية كانت المسئولة مباشرة عن ادارته ، ولأن « الأنجـلو » كان وكيل البنك العقارى فى مصر[٨٣] . وقد خصص اسماعيل جزءا من الأمـوال المتحصلة لشراء أملاك الأمير عبد الحليم بن محمد على ، بثمن قدره ١٫٢٠٠٫٠٠٠ جنيه انجليزى ، على أن يستلم الأمير من الثمن ٣٠٠٫٠٠٠ جنيه سـندات على الدائرة السنية بضمانة الحكومة ، وتتعهد الدائرة بسداد ديونه السابقة .

وفى عام ١٨٦٧ عقد اسماعيل قرضا جديدا لشراء ممتلكات الأمير مصطفى فاضل الذى اعتزم الاقامة فى فرنسا بعد تغير الوراثة . وقـد بدأت المفاوضات لعقد هذا القرض الجديد الذى عرف « بقرض مصطفى باشا » منذ نهاية العـام السالف ، ولكن الاتفاق لم يتم نهائيا الا فى ٢٣ مارس عام ١٨٦٧ ، وذلك مـع «البنك العثمانى الامبراطورى» The Imperial Ottoman Bank و«أوبنهايم» و « ألبرتى وشركاه » Alberti et Cie ، على أن يفتتح الاكتتاب فى أسواق لندن وباريس لقرض بلغت قيمته الاسمية ٢٫٠٨٠٫٠٠٠ جنيه انجليزى ، بسعر ٩٠٪ وبفائدة ٩٪ . وبلغت قيمة القـرض الحقيقيــة (بالجنيهات الانجليزية) ١٫٧٦٨٫٠٠٠ بفرق ٣١٢٫٠٠٠ (أى ١٥٪ من أصل الدين) ومدة سداده خمسة عشر عاما من ١٨٦٧ الى ١٨٨١ على قسطين سنويا،قدرهما ٢٥٥٫٣٩٠ .وضمنت الدائرة السنية بالاشتراك مع الحكومة هـذا القرض . وبلغت سمسرة هـذه العملية ١٠٤٫٠٠٠ جنيه انجليزى[٨٤] .

---

(٨٣) Sabry, M : pp. 185—187 ; Douin, G : tome 1 ere, pp. 290—293.

(٨٤) Cattaui, J : p. 68 ; Sammarco, A : pp. 188—189.

ولما كانت البلاد قد أصيبت بضيق اقتصادى شـديد عقب هبوط أسـعار القطن ، فقد عمل اسماعيل على تلافى هذه الحالة السيئة(٨٥) ، فأقبل على زراعة قصب السكر بالصعيد(٨٦) ، وأنفق من الأموال المتحصلة عموما على انشاء مصانع جديدة للسكر(٨٧) فى الفيوم وبنى سويف وأسيوط وقنا ، وجلب اليها الآلات الحديثة من أوروبا(٨٨) . كذلك عنى اسماعيل بتوفير مياه الرى ، وذلك بانشاء القناطر والرياحات وحفر القنوات والترع(٨٩) .

وفضلا عن ذلك كله ، فقد شاهد عاما ١٨٦٦ و ١٨٦٧ نفقات طائلة بسبب انشاء السكك الحديدية وخطوط الأسلاك البرقية(٩٠) وأعمال اصلاح الموانى(٩١)

---

(٨٥) أحمد عزت عبد الكريم : تاريخ مصر من الحملة الفرنسية إلى نهاية عصر اسماعيل (المجمل فى التاريخ المصرى . القاهرة ١٩٤٢) ص ٣٧١

(٨٦) كانت زراعة القصب وصناعة السكر قد أهمل شأنهما عند ارتفاع أسعار القطن ، فانخفضت كية السكر من العشرين أو الخمس وعشرين ألف قنطار بين عامى ١٨٥٣ و ١٨٥٩ إلى أن بلغت ٢٣٠٠ قنطار فى عام ١٨٦٤ ، ثم ١٠٩٠ قنطارا فقط فى عام ١٨٦٦ واضطرت مصر إلى استيراد السكر المكرر من البلاد الأجنبية مثل فرنسا وانجلترا .

(٨٧) كان لاسماعيل مصنعان هامان لصناعة السكر وتكريره فى المنيا والروضة ، كما كان لغيره من الملاك مثل الأمير عبد الحليم بن محمد على مصانع أخرى .

(٨٨) بلغ ما تكلفته هذه المجهودات ٦,١٠٠,٠٠٠ جنيه انجليزى .

(٨٩) بلغ عدد الترع التى حفرت فى عهده ١١٢ ترعة فى كافة أنحاء القطر ، كانت أهمها اثنتان : الترعة الابراهيمية لرى الأراضى فى مديريات أسيوط والمنيا وبنى سويف ، وبدأ العمل فيها عام ١٨٦٧ وانتهى عام ١٨٧٣ ، ثم الترعة الاسماعيلية لرى أراضى الدقهلية والشرقية ومنطقة القناة ، بفرعيها الممتدين من الاسماعيلية أحدهما إلى السويس والأخرى إلى بور سعيد . وتكلفت الترع النيلية ١٢,٦٠٠,٠٠٠ جنيه انجليزى . أنظر

Mulhall, M. G: «Finance in Egypt», Contemporary Review, XLII, 1882, pp. 525—535.

(٩٠) بلغت أطوال خطوط الأسلاك البرقية فى عهد اسماعيل ما يزيد على ٥٠٠٠ ميل . أما مكاتب البرق فكانت ١٥١ مكتبا ، منها ٢١ فى السودان وحده . وفى عام ١٨٦٥ اشترت الحكومة المصرية مكاتب البريد التابعة « لموتس » الايطالى الجنسية ، فتحولت إلى مصلحة أميرية ، وتقدمت هذه المصلحة لدرجة أن أقر المؤتمر الذى انعقد فى برن عام ١٨٧٥ انضمام مصر إلى الاتحاد البريدى ، وأجاز للحكومة المصرية الحق فى اغلاق المكاتب الخصوصية الأجنبية ، فتم لها ما أرادت ، بينما ظلت فرنسا الدولة الوحيدة التى احتفظت لأسباب سياسية بمكاتبها فى الأسكندرية والقاهرة .

(٩١) أتمت حكومة اسماعيل ميناء السويس الذى بدأته حكومة سعيد فى عام ١٨٥٦ ، فتكلفت أحواض السويس التى قامت بها شركة«دوسو» ١,٤٠٠,٠٠٠ جنيه انجليزى. ثم توفرت حكومة اسماعيل لاصلاح =

وفتح المدارس (٩٢) وتجهيز حملة كريت العسكرية (١٨٦٦ ــ ١٨٦٩) (٩٣) ، ثم بسبب الاهتمام بزيادة الجيش المصرى عموما(٩٤) ، حيث كان من المتوقع قرب فتح المسألة الشرقية من جديد لسوء العلاقات بين اليونان وبين العثمانيين خلال اشتعال نيران الثورة فى كريت على الحكم العثمانى • ولا ريب أن العناية بالجيش وايصاله الى ستين ألف جندى مسلحين بالبنادق الحديثة ، الى جانب العناية بالأسطول واضافة ثلاث فرقاطات مدرعة اليه ، وتحصين الشواطىء المصرية ، قد كلف حكومة اسماعيل أموالا كثيرة •

ثم يضاف الى ما تقدم ما كان مطلوبا من الخزانة المصرية دفعه سدادا للأقساط المستحقة فى عام ١٨٦٧ وقيمتها ١٫٥٠٨٫٦٣١ جنيها انجليزيا ، ثم لدفع الجزية السنوية للقسطنطينية ، وللعطايا التى صحبت فرمان « الخديوية » فى يونية عام ١٨٦٧ • وهذا عدا ما تكلفته رحلة اسماعيل نفسه عندما دعاه الامبراطور نابليون الثالث لحضور معرض باريس الدولى عام ١٨٦٧ • وكان غرض اسماعيل من هذه الزيارة أن « يظهر مصر أمام العالم المتمدين فى ثوب التقدم والرقى ، وليريه بذخه وجوده وسطوع معروضاتها فى ثوب الثروة التى لا حد لها ، ويقر فى القلوب ثقتها غير المتناهية فى قدرتها على القيام بجميع تعهداتها المالية مهما بلغت قيمتها وأيا كانت مواعيد سدادها » (٩٥)•وزيادة على ما تقدم ، ففى عام ١٨٦٧ كان المطلوب من الحكومة المصرية لشركة قناة السويس

= ميناء الاسكندرية وتوسيعه ، فشيدت حوضا عائما من الحديد فى عام ١٨٦٨ ، كما شيدت حاجزا ضخما لصيانة السفن والميناء من الأمواج والعواصف ، بالاضافة إلى إقامة عدة أرصفة للشحن والتفريغ ، وتكلف العمل الذى قامت به شركة « جرانفيلد » ٢٫٥٤٢٫٠٠٠ جنيه انجليزى . وعلاوة على ذلك ، فقد أقيمت المنارات على ساحل البحر المتوسط ، ثم على ساحل البحر الأحمر الغربى وخليج عدن . وبلغ عدد هذه المنارات نحو ١٥ وتكلفت ١٨٨٫٠٠٠ جنيه انجليزى .

(٩٢) أحمد عزت عبد الكريم : تاريخ التعليم فى مصر من نهاية حكم محمد على إلى أوائل حكم توفيق (القاهرة ١٩٤٥) .

(٩٣) Douin, G : tome 1 ere, pp. 351—391.

(٩٤) محمد محمود السروجى : الجيش المصرى فى القرن التاسع عشر (القاهرة ١٩٦٧) .

(٩٥) أحمد عبد الرحيم مصطفى : علاقات مصر بتركيا فى عهد الخديو اسماعيل ١٨٦٣ – ١٨٧٩ (القاهرة ١٩٦٧) ص ٩٥

هو ٣٦٫٧٥٠٫٠٠٠ فرنك . فلهذه الأسباب اذن ، رأى اسماعيل لكى يسد قدرا من النفقات أن يعقد قرضا جديدا فى عام ١٨٦٨ .

ولهذا القرض الجديد تاريخ فذ ، لما حف به من مظاهر سوء النية المتوفرة لدى الممولين الأجانب ، ثم لما أدت اليه المفاوضات الملتوية التى لزمته من تمهيد السبيل لبروز شخصية جديدة فى العالم المالى فى مصر ، هى شخصية اسماعيل صديق المفتش ، الذى ازداد بظهوره ذلك الارتباك والتخبط الذى لازم سوء الادارة المالية فى الأعوام التالية خصوصا . فانه ما شاعت الرغبة فى عقد قرض جديد حتى تهافت « أوبنهايم » وجماعته والسادة تشرنسكى وباستريه لعقده . بيد أنه لما كان الخديوى لا يرضى فى هذه الآونة عن أحد منهم لمواقفهم المعروفة فى القروض السابقة ، فقد أغفل مساعيهم ، ومال الى الاستماع الى رجل آخر هو دى لاشفارديير de La Chevardière الذى عرض خدماته باسم بيت كارتريه وشركاه Carteret et Cie بباريس [٩٦] . ووقع وزير المالية (والداخلية) المصرية راغب باشا عقد القرض فى ٣ فبراير عام ١٨٦٨[٩٧] ، لتوحيـــد الديون المصرية (بما فيها دين السكة الحديد ، وما عدا أذونات القرى) .

غير أنه سرعان ما اتضح أن دى لاشفارديير كان لا يمثل أحد فى باريس ولا يحمل توكيلا ، بل كان من المغامرين الذين لا تعرف هويتهم . وهذا بالرغم من دعاواه العريضة ، ونجاحه فى التأثير على اسماعيل ووزير ماليته ، وحمل الخديوى خاصة على الاعتقاد بأنه ذو صلة ــ وان كانت مبهمة ــ بالحكومة الفرنسية . فما أن انكشف أمر هذه الفضيحة ، حتى غضب اسماعيل وعزل وزير ماليته ، الذى مكن ذلك الفرنسى المغامر من السخرية بالحكومة المصرية ، بفضل طيبته الكبيرة وغفلتـــه ، وانبرى الوزير الجديد (اسماعيل صديق) عنـــدئذ حتى يتدارك الموقف ، يتدبر الأموال الضرورية لاجتياز الأزمة .

وكان صديق أخا لاسماعيل فى الرضاعة و « صديقه وصفيه » [٩٨] ، وهو من أبوين فلاحين ، تنقل فى خدمة اسماعيل منذ حداثته ، فأظهر الاخلاص له ،

---

(٩٦) Cattaui, J : p. 75.

(٩٧) Sabry, M : p. 138.

(٩٨) أحمد شفيق : مذكراتى فى نصف قرن جـ ١ ص ٣٠

وصار يتقرب اليه بما أبداه من ضروب المهارة والنشاط فى اجابة مطالبه ، حتى وثق به وولاه التفتيش فى عموم الأقاليم ، فاشتهر أمره ، وحــذق « المفتش » أساليب جباية الضرائب وجمع المال من الفلاحين (٩٩) ، وعرف بالجرأة والاقدام فى ادارته ، وظهرت مواهبه الطيبة فى الشئون المالية ، فصار بعد ممارسة قليلة يدرك كنه العمليات المالية ويعرف كيف يساوم الممولين والوكلاء •

ولكن فاتحة أعمال هذا الوزير الجديد كانت منذرة بدخول الاضطراب على عمليات اسماعيل المالية جملة ، كما يدل على ذلك مسلكه فى أول مفاوضة مالية اشــترك فيها • فانه بعد أن خرج دىلاشفارديير من الميدان ، تقــدم تشرنسكى لاقراض الحكومة • وبعد مفاوضة طويلة والتوقيع على عقد القرض ، « اكتشف » صديق عيوبا فى الاتفاق وعمل على نقضه (١٠٠) • وقــد يكون صديق محقا لخوفه من تدخل فرنسا المالى فى الشئون المصرية ، اذ كانت ضمانة القرض المزمع عقده ايرادات الدولة العامة وخاصة ايرادات الجمارك • ولكن « اكتشافه » لعيوب الاتفاق بعد أن وقعه تشرنسكى باشارة الخديوى ونقضه متأخرا ، كان له وقع سىء لدى دوائر الحكومة الفرنسية (١٠١) •

أما صديق ، وقد تعطل القرض ، فقد لجأ الى وسائل سقيمة لســد حاجة الخزانة الملحة الى المال • فبدأ يخصم سندات مالية بقيمة المليونين من الجنيهات الانجليزية : خصم ثلاثة أرباعها لدى بيت « أوبنهايم » المالى ، والبــاقى من مصارف القاهرة والاسكندرية • وازداد الدين مرة واحدة الى نحو المائة مليون من الفرنكات ، وهى المطلوبة من التعويض المحكوم به لشركة قناة السويس •

وعمد صديق فى الوقت نفسه الى اشراك مجلس النواب لتدبير الأموال ، وقد ازدادت الحاجة القصوى اليها • وكان المجلس منعقدا منذ شهر مارس برئاسة عبد الله باشا عزت • وقد ألف الأعضاء لجنة لبحث المسألة المالية بعد أن طلبت الحكومة منهم فى خطاب العرش (١٦ مارس عام ١٨٦٨) أن يتذاكروا من جديد فى مسألة تعديل أقساط الأموال الأميرية الذى اقترحوه منذ العــام

---

(٩٩) Dicey, E : The Story of the Khedivate, p. 89.

(١٠٠) Cattaui, J : p. 76.

(١٠١) Sabry, M : pp. 142—144.

الماضى حتى يتمكنوا من التوصل الى حل فى مصلحة الخزانة والمزارعين معا . وحينذاك لم يعدم صديق الوسيلة للتأثير على الأعضاء ، فقدمت اللجنة تقريرها فى ١٨ مايو عام ١٨٦٨ وخلاصته :

أولا ــ ان الحكومة قد دفعت أربعة عشر مليونا من الجنيهات الانجليزية لسداد جزء من ديون العهد السابق وفوائدها ونفقات المنشآت العمرانية والأعمال العامة التى تمت فى العهد الحالى . وهذا على الرغم من النقص الذى ألم بدخل الجمارك لتخفيض ضرائب الصادر من ١٢٪ الى ١٪ ، لأن البلاد كانت تصدر أكثر مما تستورد ، ولذلك ما كان يتأثر دخلها كثيرا من الاحتفاظ بنسبة ضريبة الوارد وهى ٧٪ كما حدث .

ثانيا ــ ان المتبقى على الحكومة والواجب دفعه فى الفترة من سبتمبر عام ١٨٦٧ لغاية سبتمبر عام ١٨٧٠ هو ٦٠٠٠٠٠٠ر٦ جنيه انجليزى بخلاف الفوائد . وعلى ذلك ، اقترحت اللجنة فرض « السدس » وهى ضريبة اضافية على الأراضى والنخيل وغيرها لمدة أربعة أعوام مالية (من سبتمبر عام ١٨٦٧ لغاية سبتمبر عام ١٨٧١) . ولكن لما كان المتحصل منها لا يكفى لسداد المطلوب من الحكومة فقد أشارت اللجنة أيضا بعقد قرض (١٠٢) .

وبذلك حصل صديق على بغيته . وشرع من فوره يخابر بيت «أوبنهايم» المالى . فعقد القرض فى أول يونيه عام ١٨٦٨ ، وكانت قيمته ست ملايين من الجنيهات الانجليزية تخصص لسداد الدين السائر . ولكن صديق سرعان ما أدخل التعديلات المتتالية على عقد القرض ، حتى كان الاتفاق نهائيا فى ٧يوليو من العام نفسه (١٠٣) ، وبه أصبحت قيمة القرض الاسمية ٨٩٠٠٠٠ر١١ من الجنيهات الانجليزية بفائدة ٧٪ ، وصل الخزانة المصرية منه ١٩٠٠٠٠ر٧ جنيه فقط ، بفرق ٧٠٠٠٠٠ر٤ جنيه ، لأن سعر الاصدار كان ٧٥٪ . وكانت مدة سداد القرض ثلاثين عاما من يناير عام ١٨٦٩ لغاية عام ١٨٩٨ ، وتدفع الحكومة

---

(١٠٢) Douin, G : tome 2 eme, pp. 68—69.

(١٠٣) Sabry, M : p. 145.

منه قسطين سنويا قدرهما ٩٥٣٫٣٠٧ جنيها . وبلغت قيمة عمولة القرض وسمسرته ١٫٧٢٧٫٥٠٠ جنيه انجليزى (١٠٤) .

ولم يكن القرض كافيا لسداد الدين السائر بأجمعه كدعوى المفتش ، فلم يتسدد غير جزء منه . وهذا بينما ظلت الديون الثابتة تتحملها الخزانة ، لأنه كان من المتعذر توحيدها أو سدادها منه . فقد بلغت قيمة الديون الثابتة بعد القروض السابقة فى أعوام ١٨٦٢ و ١٨٦٤ و ١٨٦٥ و ١٨٦٦ و ١٨٦٧ نحو ١٧٫٢٦٤٫٣٠٠ جنيه انجليزى ، كان كل ما سددته الحكومة منها هو ٩٢١٫٣٢٠ جنيها والباقى عليها ١٦٫٥٤٢٫٩٨٠ جنيها انجليزيا .

ولذلك استمر المفتش يصدر سندات جديدة . غير أنه بالرغم من اشراف مالية الدولة على الاضطراب ، وبسبب تلبد الغيوم فى أفق السياسة الدولية عندما ساءت العلاقة بين اليونان وتركيا من جراء استمرار الثورة الكريتية ، وما أحدثه ذلك من القلق فى نفوس الماليين الأجانب فى مصر ، فقد استقبلت البلاد عامها الجديد (١٨٦٩) بالاحتفالات المختلفة ، وكان منها الاحتفال الذى أقامه اسماعيل ابتهاجا بافتتاح قناة السويس . أما الدعوة التى وجهها الى ملوك أوروبا وأعلام الثقافة فيها لحضور هذا الاحتفال ، فقد أدت ــ الى جانب أسباب أخرى ــ الى توتر العلاقات بينه وبين السلطان ، حتى صدر اليه فى ٢٩ نوفمبر من العام نفسه فرمانا منعت به مصر من عقد القروض الخارجية من غير موافقة السلطان (١٠٥) .

وفى نوفمبر كانت الثقة القليلة التى عادت الى النفوس فى بداية العام قد زالت . فان المفتش حتى يحصل على المال ، لم يتورع عن اتباع كافة الطرق الموصلة الى غرضه ، وكان منها بيع محصدل بذرة القطن نقدا ، على أن يسلمه الى التجار بعد مهلة وجيزة (خمسة أو ستة شهور) . ولكن بدلا من ذلك ، باع المفتش ذات المحصول للمرة الثانية وقبض ثمنه . ولذا لم ير التجار بدا ــ وكانوا جلهم من الأجانب ــ الا أن يقبلوا التسوية التى عرضتها عليهم الحكومة

---

(١٠٤) Cattaui, J : pp. 75—77.

(١٠٥) Douin, G : tome 2 eme, pp. 486—7 ; Sabry, M : p. 147 ; Dicey, E : p. 84.

خيرا من مقاضاتها ، فباعوها بدورهم بسعر ٧٨ قرشا ما اشتروه منها سـابقا بسعر ٧١ قرشا للأردب ، على أن تدفع لهم القيمة سندات مالية بفائدة قدرها ١٢٪ سنويا . ووقعت هذه العملية المزرية فى صيف عام ١٨٦٩ . غير أن الموقف لم يتحسن بسبب نفقات افتتاح القناة وما تكلفته مجهودات الاصلاح القضائى . وهذا الى جانب ما خرج من خزانة الدولة تسديدا لأقساط الديون المستحقة ولما هو مطـلوب لشركة القنـاة والخراج للبـاب العالى ، وقدره جميعـا ٤٫٣٢٧٫٩٣٦ جنيها انجليزيا . فبدأ العام الجديد اذن والحاجة الى المال ملحة .

وفى عام ١٨٧٠ تمكن المفتش من تخفيف شدة الموقف بالوسائل المعروفة ، وهى بيع سندات المالية على أن تسدد بعد ثلاثة شهور فقط ، وعلى أن يدفع لها ربحا قدره ١٤٪ وعمولة ١/٢٪ ، ثم المضاربة بشراء ما يعرض فى السـوق من السندات المالية ذات الاستحقاقات القريبة ، مما أدى الى تسـارع الناس لبيع ما فى أيديهم ، فندر فى السوق هذا النوع من السندات ونزل معدل الخصم من كثرة المعروض منها من ١٤٪ الى ٩٪ ، وتحول الناس الى شراء السندات ذات الاستحقاقات البعيدة لاستثمار أموالهم ، فتمكن المفتش بفضل هـذه الطـريقة من تأجيـل مطالبة أصحـاب الدين السـائر الى مدة سنة ونصف تقريبـا .

وأما الوسيلة الثالثة ، فكانت عقد قرض جديد مع مجموعة « بيتشوفهيم و جولد شميد » Bischoffsheim et Goldschmid المالية بباريس ، قيمته الاسمية بالجنيهات الانجليزية (٧٫١٤٢٫٨٦٠) والحقيقية (٤٫٢٨٥٫٠٠٠) أى بفرق (٢٫٨٥٧٫٨٦٠) ، وكانت فائدته ٧٪ وسعر الاكتتاب به للجمهـور ٧٠٪ ، ومدة سداده عشرين عاما فى قسطين سنويا قدرهما ٧٦٤٫٢٣٦ جنيهـا انجليزيا من اكتوبر عام ١٨٧٠ لغاية أبريل عام ١٨٩٠ . وكان سمسـار القرض « بنك فرانكوا جبسيان » Banque Franco-Egyptienne ، وبلغت سمسرته ٧١٥٫٠٠٠ جنيه ، وهو مبلغ يعادل ثلاثة أرباع رأس مال البنك كله . وجعلت ضمانة القرض الدائرة السنية ، أى أملاك الخديوى الخاصة : الأراضى والعقارات ومصانع السكر وزراعات القصب فى الوجه القبلى (١٠٦) ، وذلك

---

(١٠٦) Cattaui, J : 100—101 ; Sabry M : p. 150 ; Freycinet, c. de : 149.

لأن قرض عام ١٨٦٨ كان يمنع الحكومة من الاقتراض لمدة خمس سنوات . وهذا الى جانب قيد فرمان نوفمبر الآنف .

على أن قرض الدائرة السنية هذا لم يكن ناجحا . اذ لم يكتتب الناس الا فى ثلثيه فقط . والسبب فى ذلك هو معارضة الباب العالى الذى احتج على هذا القرض واعتبر عقده منافيا للفرمان المتقدم واتخذ الوسائل لتعطيله ، وكذلك معارضة أصحاب قرض عام ١٨٦٨ ، ثم انفجار الحرب السبعينية بين فرنسا وألمانيا (١٠٧) واضطراب الأسواق المالية ، فسقط سعر القرض ، وارتفع معدل خصم السندات المالية . وهذا بينما كان القسط المطلوب من الخزانة لسداد الديون الثابتة فى عام ١٨٧٠ قدره ٣٫٧٦٥٫٥٦١ جنيها انجليزيا .

لذلك أوجبت هذه الحال السيئة التفكير ، ووجد الخديوى أن خير طريقة ولتسوية مركزه المالى هى توحيد الديون وجعل القسط السنوى مناسبا مع كفاية البلاد ومقدورها . وعلى هذا الأساس طفق وزير المالية (صديق) يصل الجهد لحل الأزمة الى أن هداه تفكيره الخصب الى مشروع « لم يسبقه أحد اليه ، لا فى العالم الغربى مهد التفنن المالى ، ولا فى العالم الشرقى مهد التفنن فى المظالم . ذلك المشروع هو قانون المقابلة » (١٠٨) .

صدر قانون المقابلة فى ٣٠ أغسطس عام ١٨٧١ (١٣ جمادى الآخرة عام ١٢٨٨هـ) من ٤٥ مادة ، ومرفق به تقرير مرفوع من المجلس الخاص الى الخديوى يفيض فى بيان الأسباب التى أدت الى سوء الحالية المالية والتى تنحصر خاصة فى سعر الفوائد العالية التى تدفعها الحكومة ، والتى أدت بالتالى الى اقتراح المشروع الجديد . وهذا الى جانب اظهار الغرض منه ، وهو أن يتخلص الأهالى من دفع فوائد الديون الباهظة التى ترهق مالية الدولة بالاقدام على شراء الدين ذاته . ولما كان هـذا الدين فى اعتبار المجلس الخاص ـ أو فى اعتبار اسماعيل صديق ـ يوازى ضعف مجموع الضرائب العقارية فى مدة ست

---

(١٠٧) The New Cambridge Modren History, vol X, pp. 577—602 ; Grant, A. J & Temperley, H : Europe in the Nineteenth century 1789—1914 (London 1929), pp. 342—355.

(١٠٨) إلياس الأيوبى : المصدر السابق جـ ٢ ص ٢٨٢

سنوات ، فقد أصبحت طريقة شراء هذا الدين ، هى أن يدفع أصحاب الأراضى الضرائب المقررة على أراضيهم فى السنوات الست دفعة واحدة مقدما ، أو فى أقساط سنوية لا تزيد مدتها عن ست سنوات أيضا ، علاوة على الضريبة السنوية ، ويحسب للأهالى فوائد عما يدفعونه مقدما قدرها ٨ ١/٢ ٪ ، وينالون فى نظير ذلك أيضا اعفاء أطيانهم على الدوام من نصف الضرائب المربوطة عليها ، كما يستمر فى المستقبل سعر الضريبة على أطيانهم من غير زيادة ، وألا يطالبهم أحد بأية سلفة مهما كانت الضرورة القاهرة « كشرق أو غرق أو أشغال منفعة عامة » الا بعد أن يصدق على ذلك مجلس النظار ومجلس شورى النواب (١٠٩) .

ذلك هو قانون المقابلة . وسبب هذه التسمية هو الفائدة التى ينالها الأهالى على الوجه المتقدم فى مقابل الفائدة التى تنالها الحكومة ، وهى فى الحقيقة التمكن من عقد قرض داخلى بفائدة ٨ ١/٢ ٪ ، أى أقل من الفائدة التى كانت تدفعها الحكومة وقتذاك على دينها السائر . هذا وقد نصت المادة ٢٩ على أن يمتنع وزير المالية من عقد القروض أو اصدار السندات المالية بعد حصوله على جميع المبالغ المطلوبة .

وكانت تقدر قيمة ضريبة الأرض فى عام ١٨٧١ بمبلغ ٥ر١٥٠ر٠٠٠ جنيه انجليزى . وعلى ذلك ، انتظرت الحكومة أن تحصل من المقابلة نحو ٣١ مليونا من الجنيهات الانجليزية(١١٠) . ولكن لما كان دفع المقابلة اختياريا وليس اجباريا كما ورد فى المادة الثانية من قانونها ، فانه لم يصل الحكومة من هذا القرض حتى نهاية عام ١٨٧١ سوى خمسة ملايين جنيه انجليزى تقريبا(١١١) . وهذا على

---

(١٠٩) Cattaui, J : Op. cit, pp. 103—7 ; Annexe IV, Note sur la loi de la Moukabala, pp. 185—196.

(١١٠) قدر ستيفن كيف قيمة ضريبة الأرض بنحو ٤,٧٩٣,٤٥٩ جنيها انجليزيا سنويا ، وقدر بالتالى ما كان ينتظر أن تحصله الحكومة من قانون المقابلة بنحو ٢٨,٧٦٠,٧٥٤ جنيها انجليزيا .

(١١١) محمد فؤاد شكرى : مصر والسودان ص ١٥٨ . وقد قدر يوسف قطاوى المبلغ المحصل من هذا القرض حتى نهاية عام ١٨٧١ بنحو سبعة ملايين وخمسمائة ألف جنيه مصرى ، فى حين قدره مصطفى الحفناوى بنحو خمسة ملايين جنيه مصرى فقط . أنظر

Cattaui, J : Op. cit p. 109 ; El-Hefnaoui M : Brief Survey of the Egyptian Problem, pp. 9—10.

الرغم من التسهيلات الجديدة ، اذ جعل الدفع نقدا أو عينا أو بسندات مالية . ولم يدفع المقابلة سوى من أراد التقرب الى الخديوى ورجال الحكم أو أصحاب الأراضى المعروفة « بالخراجى » ، وهى الأراضى التى كانت لا تزال ملكا للحكومة ، وان ظل لأصحابها المقيمين عليها حق استغلالها والتصرف فيها ، على شريطة أنه اذا تأخروا عن دفع الضريبة خمس سنوات عادت الأرض للحكومة . وهذه عادة كانت تبيعها بثمن يوازى قدر المتأخر من الأموال المربوطة عليها . وأصبح ملاك الأراضى الخراجية أصحابها الحقيقيين نهائيا عند دفع كل قيمة المقابلة .

لم تكف اذن الأموال المحصلة من المقابلة لسداد حاجة اسماعيل المستمرة للمال . فان الاحتفالات التى أقامها ابان شتاء عام ١٨٧١ فاقت فى الأبهة والبذخ احتفالات الأعوام السابقة . وفى مطلع عام ١٨٧٢ أقيمت حفلات زواج أبناء الخديوى الثلاثة : توفيق وحسين وحسن ، واستمرت « أفراح الأنجال » هذه أربعين يوما كاملة(١١٢) ، وصحبها احتفالات شعبية تكلفت أكثر من ٥٢ مليونا من الفرنكات(١١٣) . ولذا فقد عمد صديق ــ رغم تعهداته ــ الى اصدار سندات جديدة على المالية فى أكتوبر عام ١٨٧١ ، وفى يناير ومارس ويونيه من العام التالى ، وجعلت هذه السندات الجديدة قابلة للدفع فى لندن وباريس ، خلاف المتبع فى السندات السابقة التى كانت تدفع قيمتها فى القاهرة والاسكندرية ، مما فتح الباب للممولين الأجانب لارهاق الحكومة المصرية . اذ أصبح متعذرا من الآن التأجيل أو التباطىء فى تسديد هذه السندات الجديدة فى مواعيدها .

غير أنه ما كان يغيب عن صديق أن هذه الوسائل ما هى الا مسكنات وقتية . ولذا طفق يأخذ العدة لعقد قرض كبير يتمكن به من توحيد الديون وسداد الدين السائر ، واجتهد حتى يقنع الخديوى بوجهة نظره ، ونجح فى ذلك ، وخاصة عندما بلغ الدين السائر فى ربيع عام ١٨٧٣ نحو ٢٦٫٠٠٠٫٠٠٠ جنيه انجليزى بفائدة ١٤٪ . وهذا فوق الديون الثابتة وفوائدها السنوية ؛ فقد

(١١٢) أحمد شفيق : مذ كراتى فى نصف قرن جـ ١ ص ٦٨ — ٧٠

(١١٣) Sabry, M : Op. cit, p. 154.

بلغت أقساط الدين الثابت وفوائده فى عام ١٨٧١ نحو ٣٫٧٦٥٫٥٦١ جنيها انجليزيا ، وعام ١٨٧٢ نحو ٣٫٧٦٥٫٥٦١ جنيها انجليزيا ، وعام ١٨٧٣ نحو ٦٫٣٣١٫٢٣٢ جنيها انجليزيا . فسعى الخديوى من جهته لتكسير القيود التى فرضها فرمان الباب العالى فى نوفمبر عام ١٨٦٩ ، وذلك بأن يستعيد الحق فى عقد القروض الخارجية من غير الرجوع الى السلطان . وتكللت مساعيه بالنجاح بسبب ما بذله من العطايا لرجال الدولة العثمانية . فنال هذا الحق صراحة فى فرمان ٢٥ سبتمبر عام ١٨٧٢(١١٤) ، وبدأت من ثم المفاوضات للحصول على الفرمان الجامع أو الشامل فى العام التالى . وفى أثناء ذلك كانت تدور مفاوضات من نوع آخر مع بيت « أوبنهايم » لعقد القرض الكبير الذى رئى أنه السبيل الوحيد للخروج من الأزمة التى بدأت تستحكم حلقاتها .

أما هذا القرض الكبير ، فكان من أسوأ العمليات التى قامت بها حكومة اسماعيل . وعقد هذا القرض فى يونيه عام ١٨٧٣ مع بيت « أوبنهايم » . وكانت قيمته الاسمية ٣٢ مليونا من الجنيهات الانجليزية ، وصل الحكومة المصرية منه نقدا ١٢٫٣٧٠٫٠٧٧ جنيها ، وتعهد مصدرو القرض أن يدفعوا تسعة ملايين منه سندات مالية وحوالات بسعر ٩٣٪ ، أى بما كانت قيمته ٨٫٣٧٠٫٠٠٠ جنيه . ولما كان متوسط السعر الذى اشتريت به هذه الأوراق المالية هو ٧٥٪ ، فيكون المصدرون قد ربحوا من هذه العملية الأخيرة وحدها ١٫٦٢٠٫٠٠٠ جنيه . وباضافة نفقات القرض اليها ، وهى ١١٫٢٥٩٫٩٢٣ جنيها : يكون مقدار ما حصل عليه الدائنون هو ١٢٫٨٧٩٫٩٢٣ جنيها انجليزيا ، أى ما يزيد على ٦٣٪ من قيمة القرض الحقيقية (٢٠٫٧٤٠٫٠٧٧) . وهذا هو أقصى حالات الربا الفاحش التى وصلت اليها أطماع الممولين الأجانب فى معاملاتهم مع الحكومة المصرية .

---

(١١٤) Douin, G : tome 2 eme, pp. 645—665.

وفى رسالة إلى لورد جرانفيل وزير الخارجية البريطانية بتاريخ ١٤ أكتوبر عام ١٨٧٢ ، قدر السير هنرى إليوت سفير بريطانيا فى القسطنطينية النفقات التى تكلفها اسماعيل فى سبيل الحصول على هذا الفرمان بنحو ٩٦٠,٠٠٠ جنيه انجليزى على النحو التالى : ٩٠٠,٠٠٠ جنيه دفعت للسلطان شخصيا ، و ٢٥,٠٠٠ جنيه للصدر الأعظم و ١٥,٠٠٠ جنيه لوزير الحربية و ٢٠,٠٠٠ جنيه لموظفى القصر السلطانى . أنظر
Sabry, M : Op. cit, pp. 154—155.

وكانت فائدة هذا القرض ٧٪ ومدته ثلاثين سنة من أبريل عام ١٨٧٤ الى أكتوبر عام ١٩٠٣ ، يتسدد فى قسطين سنويا قدرهما ٢٫٥٦٥٫٦٧١ جنيها انجليزيا . وتعهدت الحكومة المصرية بأن تمتنع عن عقد أية قروض أخرى لغاية ١٥ يوليو عام ١٨٧٥ ، على أن يكون لها الحق بعد هذا التاريخ فى اصدار سندات مالية بما لا يتجاوز عشرة ملايين من الجنيهات للانفاق منها على السكك الحديدية والأعمال العامة لغاية ١٥ يوليو عام ١٨٧٨ ، فتصبح بعد هذا التاريخ حرة فى عملياتها . أما ضمانات هذا القرض فكانت كثيرة : ايرادات البلاد العامة وايرادات السكك الحديدية فى الوجه البحرى والضرائب الشخصية وغير المقررة والمكس على الملح ومليون جنيه من المقابلة ، وكل الايرادات المخصصة لسداد القروض الأخرى عندما تصبح حرة[١١٥] .

غير أنه بدلا من أن يساعد على سداد الدين السائر أو توحيد الديون ، كان فى الحقيقة هذا القرض سببا فى ازدياد سير الأزمة وتعقد الأمور ، فان الدين السائر وحده مثلا كان فى تاريخ اصدار القرض قد وصل الى ٣٢ مليونا من الجنيهات تقريبا ، فى حين كان ما دخل الخزانة نقدا لا يتجاوز ١٢٫٣٧٠٫٠٧٧ جنيها . وكان من المنتظر اذن أن تلجأ الحكومة بعد مضى بضع شهور الى عملياتها المعروفة . وهذا بالرغم من تحميل الدولة عبءا ماليا ثقيلا ، سوف يؤدى عاجلا الى ارتباكات ذات عواقب بعيدة . اذ ارتفع بسبب هذا القرض مقدار القسط السنوى الذى تدفعه الحكومة سدادا لديونها الثابتة الى ٥٫٧٠١٫٨٤٥ جنيها فى كل من العامين التاليين (١٨٧٤ و ١٨٧٥) ؛ ثم الى ٦٫٩٥١٫٨٩٩ جنيها فى كل من الأعوام الثلاثة الباقية من حكم اسماعيل .

***

وكانت صحف القسطنطينية قد أكدت فى ٦ أكتوبر عام ١٨٧٥ ما سبق أن أعلنه الباب العالى منذ يومين بخصوص العجز فى ميزانية الدولة والاجراء الذى سوف يتخذ حيال الدين العثمانى العام ، فقالت انه قد تقرر أن يدفع نقدا نصف الفائدة المستحقة على هذا الدين وكوبونات استهلاكها ، وأن النصف الباقى سيستلمه الدائنون على شكل سندات على الخزانة بفائدة قدرها ٥٪ ، وهو

---

(١١٥) Cattaui, J : Op. cit pp. 113—116.

القرار الذى لم يلبث أن ضمنه الباب العالى مرسوم ٩ أكتوبر عام ١٨٧٥ (١١٦) . وكان معنى هذا القرار اعلان افلاس الحكومة العثمانية ، الأمر الذى أزعج دائنى مصر وجعلهم يخشون أن يقتدى الخديوى بالسلطان ويعلن افلاسه(١١٧).

ولكن الخديوى سرعان ما عرض على الحكومة الفرنسية بيع أسهم مصر فى قناة السويس بثمن قدره مائة مليون فرنك ، ودخل بهذا الصدد فى مفاوضات مع الماليين الفرنسيين . ورغم موافقة الدوق ديكاز Décazes وزير الخارجية الفرنسية على شراء هذه الأسهم ، فان المفاوضات لم تلبث أن توقفت بسبب امتناع مجلس الوزراء الفرنسى عن تأييد تلك العملية (١١٨) خشية اغضاب بريطانيا التى كانت قد أبدت على لسان وزير خارجيتها لورد دربى Derby اهتمامها بالقناة (١١٩) ، كنتيجة لازدياد استخدام السفن البريطانية لها (١٢٠) . وعلى مسئوليته الخاصة ، ودون الحصول على موافقة البرلمان الذى كان وقتئذ فى عطلة(١٢١) ، أسرع بنيامين دزرائيلى Disraeli رئيس الوزارة البريطانية (١٨٧٤ — ١٨٨٠) بالحصول من بيت روتشيلد على أربعة الملايين جنيه

(١١٦) Blaisdell, D. C: European Financial Control in the Ottoman Empire, p. 80.

(١١٧) أحمد عبد الرحيم مصطفى : مصر والمسألة المصرية (القاهرة ١٩٦٥)ص ٢٥

(١١٨) Freycinet, C. de: La Question d'Egypte, p. 151.

(١١٩) كانت بريطانيا قد أثارت بادىء ذى بدء معارضة شديدة لتعطيل مشروع قناة السويس فى عهد سعيد ، لأنها إلى جانب خوفها من ضياع نفوذها فى مصر كانت تخشى أن يهدد الطريق الجديد مصالحها فى الهند وفى الشرق عموما بوقوعه فى قبضة الفرنسيين ، وهذا بينما كانت بريطانيا تبذل فى الواقع كافة جهودها لمنع الفرنسيين من النفاذ إلى البحر الأحمر أو بسط نفوذهم فى المحيط الهندى . ولذا عملت بريطانيا لتعطيل المشروع ، فأخذت تثير الباب العالى وتبث الدسائس ضد سعيد فى الآستانة ، ثم وقفت إلى جانب اسماعيل فى نضاله ضد شركة القناة . ولكن خطة بريطانيا حيال القناة ذاتها كانت قد تغيرت منذ أن سارت أعمال الحفر حثيثا ، فخف عداؤها لها تدريجيا ، ولم يلبث أن انتهى الصراع الطويل بينها وبين فرنسا حول القناة بافتتاح هذا المجرى المائى للملاحة العالمية فى عام ١٨٦٩ . أنظر

Numair Saif al Din, I: England's Opposition to the Suez Canal Project, M. A. Thesis (1934),; Halberg, eh. W: The Suez Canal ... (New York 1931), p. 207 seqq; Freycinet, c. de: Op. cit, pp. 116—121; Douin, G: tome 1 ere, pp. 159—183.

(١٢٠) Hoskins, H. L: British Routes to India (New York 1928), pp. 469—470.

(١٢١) Lenczowski, G: Op. cit, p. 384.

الانجليزى (مائة مليون فرنك) المطلوبة لشراء الأسهم المذكورة ، ووقع مع الخديوى فى ٢٥ نوفمبر عقـد البيع(١٢٢) • وفى اليوم التـالى ، أودعت تلك الأسهم القنصلية البريطانية العامة بالقاهرة •

وكان الخديوى ــ أملا فى دعم مركزه المالى لدى الدول الدائنة ــ قد طلب منذ أواخر أكتوبر من بريطانيا أن تعاونه على اجتياز مصاعبه المالية ، بارسـال « موظفين حكوميين يتميزان بالكفاءة ، ولهما خبرة وثيقة بالنظام المتبـع فى وزارة مالية صاحبـة الجلالة ملكة بريطانيا » لكى يساعدا وزير ماليتـه على اصلاح الادارة المالية بالبـلاد • ولكن بريطانيـا بدلا من أن تبعث بالموظفين المطلوبين ، أرسلت بعثة خاصة Special Mission برئاسة ستيفن كيف عضو مجلس العموم البريطانى لاجراء تحقيق حول أوضاع مصر المالية (١٢٣) • وفى ١٦ ديسمبر عام ١٨٧٥ وصلت البعثة الى الاسكندرية وبارحت البـلاد فى ٢١ فبراير من العام التالى • ورغم أن كيف لم يخول رسميا فحص أحـوال المالية المصرية ، فقد تلقى بيانات واحصائيات من الموظفين المصريين مكنته من أن يضع تقريره المشهور ، الذى نشر فى ٤ أبريل عام ١٨٧٦ بصحيفة «التيمز» اللندنية • أما هذا التقرير فقد عرض لتفاصيل دخل مصر ومصروفاتها ، واقترح لانهاء الارتباك المالى تثبيت وتوحيد الديون بفائدة معتدلة وتتناسب مع موارد البلاد ، وتخصيص نصف هذه الموارد لخدمة الديون ، كما نصح لضمان الدقة

---

(١٢٢) Dicey, E : Op. cit, pp. 99—104 وكان عدد الأسهم المباعة لبريطانيا كما ورد فى عقد البيع هو ١٧٧,٦٤٢ سهما ، وهو العدد الذى اكتتب به سعيد فى أسهم شركة القناة لحساب الحكومة المصرية . بيد أنه اتضح بعد ابرام الصفقة أن الحكومة المصرية قد تصرفت فى ١٠٤٠ سهما ، فخصم ثمنها وهبط المبلغ إلى ٣,٩٧٦,٥٨٠ جنيها . وفضلا عن ذلك ، فقد استردت الحكومة البريطانية من الحكومة المصرية الجزء الأكبر من هذا المبلغ بطريقة ماكرة خادعة . إذ كان اسماعيل قد تنازل لشركة القناة طبقا لاتفاق ٢٢ أبريل ١٨٦٩ عن فوائد أسهم مصر لمدة ٢٥ سنة تنتهى فى عام ١٨٩٤ . فلما باع اسماعيل أسهم مصر لانجلترا ، طلبت الأخيرة أن تدفع لها مصر فوائد بنسبة ٥ ٪ من قيمة الثمن مقابل حرمان الحكومة البريطانية من أرباح الأسهم طوال هذه المدة . أنظر
The Cambridge History of British Foreign Policy, vol 3, p. 157.

(١٢٣) Dicey, E : Op. cit, p. 134.

فى سير الأعمال والاقتصاد فى النفقات بوضع الادارة المصرية تحت « المراقبة المالية » (١٢٤) .

ولم يلبث أن بدأ التدخل السياسى فى شئون مصر ، حينما أرغم الخديوى على الموافقة على تسليم موارد البلاد المخصصة للديون « لصندوق الدين العمومى » Caisse de la dette publique ، الذى أصدر اسماعيل مرسوما بانشائه فى ٢ مايو عام ١٨٧٦ لتسلم ايرادات المصالح المحلية : الجمارك والسكك الحديدية وبعض المديريات وغير ذلك مما يبلغ دخله فى العام ٨٠٠ر٠٠٠ جنيه ، بالاضافة الى دخل أراضى الدائرة السنية وقدره ٦٨٤ر٠٠٠ جنيه (١٢٥) . وفى ٧ مايو أصدر الخديوى مرسوما آخر توحدت بموجبه الديون من ثابتة وسائرة فى دين واحد قيمته ٩١ مليونا من الجنيهات الانجليزية بفائدة ٧٪ ومدة استهلاكه ٦٥ سنة . وكان من نتيجة ذلك أن تساوى حاملو سندات الدين السائر مع حاملى سندات الدين الموحد . وفى ١٤ مايو أصدر الخديوى مرسوما ثالثا لانشاء مجلس أعلى للمالية مهمته التفتيش على ايرادات وخزائن الحكومة وملاحظة الدخل والمنصرف ومراجعة الحسابات والتحقق من صحتها ، ثم بحث مشروع الميزانية الذى تقدمه الحكومة كل سنة (١٢٦) .

وفى ٨ أبريل عام ١٨٧٦ أصدر الخديوى مرسوما بتأجيل دفع أرباح سندات الخزانة ــ التى تستحق الدفع فى هذا الشهر والشهر التالى ــ لمدة ثلاثة شهور (١٢٧) ، فخشى الدائنون الفرنسيون أن يكون هذا المرسوم ممهدا لاعلان افلاس الخديوى ، ومن ثم صاروا يضغطون بشدة على حكومتهم للتدخل واقناع الخديوى بتأجيل اعلان افلاسه . وسرعان ما أقدمت الحكومة الفرنسية

---

(١٢٤) The Cambridge History of British Foreign Policy, vol 3, p. 159.

(١٢٥) روزشتين : ص ٢٥ وكذلك

Compte Rendu des Travaux de la Commission de la Caisse Spéciale de la Dette Publique d'Egypte, du 15 Jan. 1877 au 31 Jan. 1878 (Le Caire 1893), pp. 9—13 ; Freycinet, c. de : Op. cit, pp. 157—9 ; Robinson, R ; Gallagher, J ; Denny, A : Africa and the Victorians. The Official Mind of Imperialism (London 1961), p. 84

(١٢٦) محمد فؤاد شكرى : مصر والسودان ص ١٦١

(١٢٧) The Cambridge History of British Foreign Policy, vol 3, p. 159.

على تنسيق جهودها مع الحكومة البريطانية ، التى أطلقت أيدى حملة السندات الانجليز فى التوصل الى اتفاق مع اخوانهم الفرنسيين ، حتى يستطيع الفريقان أن يعملا معا على ضفاف النيل ، الأمر الذى كان من نتيجته ارسال بعثة الى مصر تمثل أصحاب الديون الثابتة الذين ألحق بهم الضرر توحيد الديون ، لكى تقوم هذه البعثة بتصفية عامة للمسألة المالية • وفى اكتوبر عام ١٨٧٦ جاءت الى مصر بعثة جوشن Goschen وچوبير Joubert • وكان جوشن يمثل الدائنين الانجليز ، فى حين كان چوبير يمثل الدائنين الفرنسيين •

وتضمنت تسوية جوشن وچوبير للمسألة المالية المصرية وجهين ، أحدهما مالى والآخر سياسى • فمن الناحية المالية اقترحت التسوية تحويل الدين السائر الى دين ثابت مع تخفيض الفائدة التى تمنح لحملة سنداته الى ١٠٪ • ومن جهة أخرى ، لا يدخل دين الدائرة السنية الخاص بالخديوى فى هذا الدين الثابت ، بل يضم الى الدين السائر ويكون منهما دين واحد فائدته الاسمية ٥٪ • وفضلا عن ذلك ، لا يدخل فى الدين الثابت العام القروض القصيرة الأجل (emprunts à court terme) التى عقدها الخديوى مع بيت فرولنج ــ جوشن أساسا ابان سنوات ١٨٦٤ و ١٨٦٥ و ١٨٦٧ وقيمتها ٤ر٣٩٢ر٦١٦ لاعتبارات فنية كما قيل والحقيقية لمصلحة فرولنج ــ جوشن ، بل تعتبر دينا ممتازا Dette Privilegiée قائما بذاته وتظل فائدته ما بين ١٠٪ و ١٢٪ • وبهذه الوسائل ينقص الدين الثابت الحقيقى الى ٥٩ مليونا بفائدة ٧٪ من قيمته الاسمية • ولاجراء هذا التحويل يعقد قرض ممتاز جديد قدره ١٧ مليونا وفائدته ٥٪ ، وبذلك كله تصبح الأموال المخصصة لخدمة الديون والتى يكون على مصر أداؤها سنويا ٠٠٠ر٥٦٥ر٦ جنيه أى نحو ٦٦٪ من دخلها الرسمى •

وأما من الناحية السياسية ، فقد اشترطت التسوية انشاء نظام « المراقبة الثنائية » ، وذلك بتعيين مراقبين عامين غير هيئة صندوق الدين العمومى ، أحدهما لمراقبة ايرادات الحكومة والآخر لمراقبة مصروفاتها ويشتركان فى اعداد الميزانية ، على أن يسلم المراقبان الانجليزى والفرنسى الايرادات الى لجنة للدين العام ، فتضع هذه ما كان مخصصا من تلك الايرادات لخدمة الديون فى بنكى

انجلترا وفرنسا ، بالاضافة الى انشاء « هيئة خاصة » أو لجنة مختلطة من انجليز وفرنسيين ومصريين لادارة السكك الحديدية (١٢٨) •

وكان بسبب الضغط الذى تعرض له الخديوى من جانب قنصلى بريطانيا وفرنسا : اللورد ڤيڤيان Vivian والبارون دى ميشيل de Michels ، والذى وصل الى حد التهديد بالخلع اذا هو أقدم على اشهار افلاس مصر (١٢٩) أن اضطر اسماعيل الى تنفيذ تسوية جوشن وچوبير بوجهيها المالى والسياسى ، وذلك باصدار مرسوم ١٨ نوفمبر عام ١٨٧٦ (١٣٠) ، الذى أنشأ « المراقبة الانجليزية الفرنسية » Condominium Anglo-Francais على المالية المصرية ، وعضواها الانجليزى رومين Romaine للاشراف على الايرادات والفرنسى البارون دى مالاريه de Malaret للاشراف على المصروفات ، بالاضافة الى انشاء اللجنة المختلطة لادارة السكك الحديدية وميناء الاسكندرية ، وتألفت اللجنة من خمسة مديرين : اثنان من الانجليز واثنان من المصريين وواحد فرنسى (١٣١)•

ومع ذلك ، فقد استمر ضغط فرنسا وبريطانيا على اسماعيل ، ووصل الى حد التهديد بالقضاء على الخديوية ذاتها • ومن ثم ، فقد اضطر الخديوى الى قبول تشكيل « لجنة تحقيق عليا » Commission Supérieure d'Enquête ووقع فى ٢٧ يناير عام ١٨٧٨ بتأليف هذه اللجنة وآخر فى ٣٠ مارس من العام نفسه لتنظيمها وتحديد اختصاصاتها•وكان فرنند دلسبس رئيس اللجنة ، وسير ريڤرز ويلسون Rivers Wilson نائبا أول للرئيس ورياض باشا نائبا ثانيا للرئيس ، فى حين كان أعضاؤها : باراڤللى Baravelli الايطالى وبارنج Baring (لورد كرومر Cromer فيما بعد) الانجليزى ودى بلنيير de Blignières الفرنسى ودى كريمر de Kremer النمساوى ، وهم أعضاء صندوق الدين

---

(١٢٨) روزشتين : ص ٢٨ — ٢٩ وكذلك
The Khedive and His Calumniators. The Finances of Egypt, pp. 7—8 ; Sabry, M : pp 185-6 ; Dicey, E : p. 153

(١٢٩) محمد فؤاد شكرى : مصر والسودان ص ١٦٢

(١٣٠) Compte Rendu des Travaux de la Commission de la Caisse Spéciale de la Dette Publique d'Egypte (Le Caire 1893), pp. 29—33 ; Cattaui, J : pp. 137—142 ; Freycinet, c. de : pp. 162—4.

(١٣١) انخفض عدد أعضاء اللجنة فيما بعد إلى ثلاثة : واحد انجليزى وآخر فرنسى وثالث مصرى .

العمومى . وبفضل مرسومى ٢٧ يناير و٣٠ مارس عام ١٨٧٨ [١٣٢] ، سيطرت لجنة التحقيق على كل شئون المالية المصرية ، كما تعرضت مصر منذ انشاء هذه اللجنة « للتدخل الأوروبى الصريح أو بالأحرى للتدخل الفرنسى الانجليزى . فالهدف الضمنى من التحقيق هو محاكمة الخديوى والتأكد من مقدرة مصر على الاستمرار فى دفع نسبة الأرباح السارية على الديون ، واستبدالها بنسبة أخرى اذا عجزت عن الدفع [١٣٣] .

ولم تلبث أن رأت لجنة التحقيق[١٣٤] أن من الضرورى الحد من سلطة الخديوى كشرط أساسى لأى اصلاح مالى ، فصدر أمر الخديوى فى ٢٨ أغسطس عام ١٨٧٨ بانشاء الوزارة المسئولة عن الحكم ، وهى الوزارة التى تولى رئاستها نوبار الأرمنى وعرفت بالوزارة المختلطة أو الأوروبية الأولى ، حيث كان من أعضائها الانجليزى ريفرز ويلسون وزيرا للمالية والفرنسى دى بلنيير وزيرا للأشغال العمومية[١٣٥] . وقد علق روزشتين على تأليف هذه الوزارة فقال : « ان أوروبا كانت لا تحفل كثيرا بادارة مصر ما دام حملة السندات يجدون ما يرضيهم ، وأن الغرض الوحيد من وزارة نوبار وويلسون هو أن تعمل على تحقيق هذا الارضاء ، ولكن تحقيق هذا الارضاء كان من الصعوبة بمكان، فقد أخذ من المصريين منذ أقرت تسوية جوشن وجوبير الى أن الفت وزارة نوبار مالا يقل عن ١٢٫٣٢١٫٠٠٠ جنيه ليس فيها ما دفع من فوائد دين الدائرة السنية ، وفوق ذلك كانت موارد البلاد الاقتصادية قد بلغت غاية الانحطاط ،

---

(١٣٢) تلقى كل عضو من أعضاء لجنة التحقيق العليا فى ٣١ مارس عام ١٨٧٨ من فردنند دلسبس بصفته رئيسا للجنة خطابا رسميا مرفقا به صورة من مرسوم وقعه الخديوى فى اليوم نفسه ، يمنح أعضاء اللجنة سلطات مطلقة لفحص «كل عناصر الموقف المالى» . أنظر

Compte Rendu des Travaux de la Caisse Spéciale de la Dette Publique d'Egypte du 1 er Jan. 1878 au 31 Déc. 1878 (Le Caire 1879) p. 3.

(١٣٣) أحمد عبد الرحيم مصطفى : مصر والمسألة المصرية ص ٦١

(١٣٤) عقدت اللجنة أول جلسة لها فى ٣٠ أبريل عام ١٨٧٨ وآخر جلسة فى ١٠ أبريل عام ١٨٧٩ ، وبلغ عدد جلساتها ٧٣ . ورأس دلسبس الخمس عشرة جلسة الأولى ، ثم تغيب معظم الوقت فى الاسماعيلية ، فرأس ريفرز ويلسون بقية الجلسات وعددها ٥٨ ، مما أتاح له فرصة الانفراد بالسلطة الفعلية للجنة. أنظر **Cattaui, J : Op. cit, pp. 143—144.**

(١٣٥) **Sabry, M : Op. cit, p. 203.**

حتى أنه لم تجمع الأمـوال الـلازمة لأداء الكوبونات الا بأعجب الطـرق وأغربهـا » (١٣٦) •

ولمعالجة الأزمة المالية ، رأت الوزارة الأوروبية ضرورة عقد قرض جديد ، فسافر لهذا الغرض الى باريس سير ريفرز ويلسون قبل أن يتسلم زمام أعماله الجديدة ليفاوض آل روتشيلد فى عقد القرض المطلوب • وفى أواخر أكتوبر عام ١٨٧٨ عقد القرض بشروط مجحفة مع بيتى « اخوان روتشيلد » Rothschild Frères بباريس و « روتشيلد وأبنـاؤه » Rothschild & Sons بلندن • وكانت قيمة القرض الاسمية (بالجنيهات الانجليزية) ٨٫٥٠٠٫٠٠٠ والفعلية ٥٫٩٩٣٫٠٠٠ وسعر اصداره ٧٣٪ وفائدته ٧٪ ، وضماناته أراضى الدومين Domaines وهى الأراضى التى تنـازل عنها الخـديوى للدولة ومساحتها ٤٢٥٫٧٢٩ فدانا • وربح آل روتشيلد من هذه العملية وحدها ٢٫٥٠٧٫٠٠٠ جنيه ، منها ٢٫٢٩٥٫٠٠٠ جنيه فرق سعر الاصدار و ٢٢٢٫٠٠٠ جنيه عمولة وسمسرة (١٣٧) •

ولكن هذا القرض لم يستخدم لتسديد كثير من الديون التى صدرت بها أحكام المحاكم المختلطة وغيرها من الديون السائرة • فبعد دفع قسط الدين الثـابت فى نوفمبر عام ١٨٧٨ وقدره ١٫٢٢٥٫٠٠٠ جنيه والجـزية السـنوية للقسطنطينية وقدرها ٥٠٠٫٠٠٠ جنيه ، ثم عمـولة القـرض وسمسرته وهى ٢٢٢٫٠٠٠ جنيه ، لم يبق من المبلغ الذى وصل الى الحكومة من هذا القرض وهو ٥٫٩٩٣٫٠٠٠ جنيه سوى ٤٫٠٤٦٫٠٠٠ جنيه لتصفية الدين السـائر ، فلم ينفق منه أى شىء على مرافق البلاد العامة أو لسـداد مرتبـات الموظفين المتـأخرة •

وسارت الوزارة الأوروبية فى مباشرة أعمالها « بطريقة لم تسفر عما كـان ينتظر من صفاء الجو وتحسن الأحوال ، بل جاء الأمر على النقيض ، وقوبلت

---

(١٣٦) روزشتين : ص ٦٩

(١٣٧) Cattaui, J : Op. cit, pp. 149—150.

أعمالها بالسخط والنفور من جميع طبقات الأمة ، وعلى الأخص من اسماعيل ، اذ استأثرت بالسلطة . فكانت تعقد جلساتها مرتين فى الأسبوع وتقرر ما تراه من الأوامر ، ثم تعرضها على الخديوى لمجرد التوقيع عليها ، فعز ذلك على أمير مكث طوال السنين مطلق الحكم نافذ الكلمة ، وكبر على نفسه أن ينزل فجأة عن تلك المنزلة العالية الى منزلة المنفذ لقرارات نظارته ، دون أن يكون له رأى فيها أو يد فى ادارة الأعمال ، فلم يكن غريبا أن يشتد سخطه عليها » (١٣٨) .

ولم يلبث أن اعتمد الخديوى على مظاهرة ١٨ فبراير عام ١٨٧٩ التى دبرها « صنيعته المشهور » جاهين باشاكنج (١٣٩) ، والتى أهين فيها نوبار وريفرز ويلسون اهانات بالغة ، فأقال الوزارة الأوروبية الأولى فى اليوم التالى ، وتشكلت الوزارة الأوروبية الثانية برئاسة الأمير محمد توفيق فى ٢٢ مارس ، وفيها العضوان الأوروبيان اللذان احتفظ لهما بحق الاعتراض على الأمور التى لا يوافقان عليها بدعوى المحافظة على مصالح الدائنين ، ومن ثم أصبح لهما — ولفرنسا وبريطانيا كذلك — بفضل هذا الحق الكلمة العليا فى شئون البلاد الهامة ، فى حين ظلت سلطة الخديوى مقيدة .

ولكن اسماعيل سرعان ما اعتمد على التجمع الشعبى الذى أسفر عن لائحة ٢ أبريل عام ١٨٧٩ ، وقام فى ٧ أبريل « بانقلاب حكومى » كان من نتيجته أن قدم الأمير محمد توفيق استقالته بحجة أن زملاءه الوزراء لم يستشيروه فى المسائل الهامة منذ أن تولى رياسة الوزارة ، وأنه لم يعد يحتمل شغل هذا الوضع الثانوى . وفى ٨ أبريل تشكلت « الوزارة الوطنية » برياسة محمد شريف . وبعد يومين أو أكثر ، قدم أعضاء لجنة التحقيق العليا استقالتهم محتجين على تشكيل وزارة شريف ، وأبانوا فى احتجاجهم أن الاصلاحات المالية لن يتم

---

(١٣٨) أحمد شفيق : مذكراتى فى نصف قرن جـ ١ ص ٣٢

(١٣٩) أحمد عرابى : كشف الستار عن سر الأسرار . . . (القاهرة ١٩٣٢) جـ ١ ص ٤٤ وكذلك
Dicey, E : Op. cit, pp. 201—202 ; Sabry, M : Op. cit, p. 346.

تنفيذها الا على يد وزارة يتمثل فيها العنصر الأوروبى • وفى ٢٢ أبريل أصـــدر الخديوى مرسوما يتضمن مشروع اللائحة الوطنية لتسوية الديون وينكر افلاس البلاد ، وأخذت وزارة شريف تجرى على سياسة اصلاح واســعة فى الادارة المصرية •

وفى أثناءذلك ، كان آل روتشيلد ـ تحت تأثير ريفرز ويلسون (١٤٠) ـ يستخدمون كل ما لديهم من نفوذ سياسى للضغط على الحكومات فى باريس ولندن وبرلين من أجل التدخل الفعلى السريع فى المسألة المصرية • ومن ناحية أخرى ، كانت فرنسا وبريطانيا تعتقدان خطأ أن اسماعيل وراء انبعاث الحركة الوطنية المصرية المطالبة بانهاء التدخل الأوروبى المالى والسياسى فى شئون البلاد• ولذا فقد لجأت الدولتان ـ وانضمت اليهما ألمانيا البسماركية ـ فى مطالبة الباب العالى بعزل اسماعيل (١٤١) ، فعزل فى ٢٦ يونية عام ١٨٧٩ ، وغادر مصر منفيـا الى نابولى بايطاليـا •

وبعزل اسماعيل وصل التدخل الأوروبى المالى والسياسى فى شئون مصر الى غايته ، ولم يلبث أن انتهى الى نتيجته الحتمية باحتلال مصر بعد ذلك بثلاث ســنوات •

---

(١٤٠) كان ريفرز ويلسون يعتبر الخديوى مسئولا عن الإهانات التى لحقت به ، وعن الانقلابات التى وقعت لانهاء السيطرة الأوروبية ، ومن ثم قصد مباشرة إلى باريس بعد خروجه من مصر لمقابلة آل روتشيلد ، واجتهد فى اقناعهم بأن أموالهم مهددة بخطر الضياع بسبب الحوادث الأخيرة فى مصر ، لأن الخديوى ـ كما قال ـ يعتزم عدم الوفاء بديونه تحت ستار انشاء الحكومة الدستورية ، وأن آل روتشيلد اذا لم يبذلوا جهدهم لمنع إنشاء الحكومة الدستورية ضاعت عليهم أموالهم .

(١٤١) محمد فؤاد شكرى : مصر والسودان ص ١٧٦ – ١٧٧ وكذلك
Dicey, E : Op. cit, pp. 213—226 ; Sabry, M : Op. cit, pp. 367—369 ; Freycinet, c. de : Op. cit, pp. 177—178.

الاسلام واللغة العربية فى غرب أفريقيا

للدكتور ابراهيم على طرخان
استاذ تاريخ العصور الوسطى بكلية الآداب
جامعة القاهرة ــ بالخرطوم

— ١ —

الاسلام واللغة العربية والحضارة الاسلامية ــ تحديد غربى أفريقية او نجرتيا ــ متابع التأثير الاسلامى ــ الأدلة التاريخية على قدم الاسلام فى بلاد السودان الأوسط والغربى ــ تفسيرها ــ مراحل انتشار الدعوة الاسلامية ــ موقف المستعمرين الأوربيين من المسلمين ــ طبيعة انتشار الاسلام ــ بين انتشار الاسلام والمسيحية فى غرب أفريقيا ــ اثر العقيدة الاسلامية .

موضوع الإسلام واللغة العربية فى غربى أفريقيا مرتبط أوثق الإرتباط بالتاريخ القومى الأفريقى ، وكلمتا الاسلام واللغة العربية ، كلتاهما مرادف للحضارة العربية الإسلامية فى أى بقعة من بقاع العالم الإسلامى ، حتى التى تأثرت بهذا النبع الروى . ولم يكن دينها الإسلام أو لم يعد الإسلام لها ديناً . وكذلك الشأن بالنسبة للغة العربية .

فمثلا تأثرت الدول الأوربية فى مدنيتها بالحضارة الإسلامية العربية منذ العصور الوسطى عن طريق الأندلس وصقلية وجنوبى إيطاليا وغيرها ، وذلك فى شتى نواحى المعرفة من علوم وآداب وصناعات .

وكان النبع العربى الإسلامى أبرز العناصر فى نهضة أوربا الوسيطة ، كما كانت أعمال الفلاسفة المسلمين من مصنفات وترجمات وشروح وتعليقات ، أساس الدراسة فى جامعات أوربا الناشئة فى القرن الثانى عشر الميلادى ، ولا سيما فى جامعة باريس أم جامعات الشمال ، حيث كان أبرز مظاهر الحياة الفكرية فيها خلال القرن الثالث عشر ، ترجمات أرسطو وشراحه الإسلاميين ، وقد اعتبر أساتذة جامعة باريس تأويل ابن رشد لمذهب أرسطو أصدق صورة له وأكمل

مظهر للعقل ، كما رأوا أن المثل الأعلى للعلم ، هو فى كتاب المناظر للحسن بن الهيثم ، أكثر منه فى طبيعيات أرسطو[١] .

ثم إن ميخائيل سكون العالم الأسكتلندى (١٢٣٥) ترجم كتاب الحيوان لابن سناء ، وهو أول من ترجم شروح ابن رشد عن أرسطو وهكذا ، وحتى فى اللغات الأوربية الحديثة ، تركت العربية آثارها اللغوية[٢] .

وفى الشق الشرقى من العالم ، ولا سيما فى تركستان ، برزت معالم العربية فيها منذ انتشار الإسلام بها ، وازداد منذ القرن التاسع الميلادى حتى أخذت جميع مظاهر الحياة طابع العروبة ، كما صارت اللغة العربية وهى لغة القرآن ، الإطار الثقافى للبلاد ، فمثلا كانت الأولوية فى نظر المحاكم التركستانية للوثائق التى تكتب باللغة العربية مثل حجج الأملاك ومسائل الخصومات ؛ ومن تركستان ظهر المسيطرون على فنون المعانى والبيان فى العالم الإسلامى بأجمعه ، كما ظهر علماء الحديث والفقه والتفسير والفلسفة وعلم الفلك والرياضيات والجغرافية والتاريخ ، ومنهم على سبيل التمثيل لا الحصر : البخارى — خان الله الزمخشرى — يوسف السكاكى — سعد الدين التفتازانى — سديد الدين كشغرى — أبو البركات عبد الله ابن أحمد النسفى — أبو منصور الماتريدى — الأديب أبو بكر الخوارزمى وغيرهم[٣].

وفى غربى أفريقيا ، موضوع البحث ، نجد أنه ليس من باب الصدفة أن المساحات التى يضمها ، كانت أسبق فى تحطيم قيد العبودية والإستعمار ، عن غيرها من البقاع الإفريقية الأخرى التى لم يصلها الإسلام ، أو اللغة العربية ، أو لم يمسا إلا مساً خفيفاً عابراً .

ويعبر عن غربى أفريقيا كذلك ، باسم نجرتيا Nigritia ، وهى تلك المنطقة التى تحفها بحيرة تشاد من الشرق والمحيط الأطلسى أو بحر الظلمات من الغرب ، وهى بلاد السودان ، كما عناها العرب[٤] وإن اتسع مدلول هذا المصطلح ليشمل ما بعد تشاد شرقاً إلى مشارف وادى النيل ، وهى من باب التحديد بلاد السودان الأوسط والغربى .

أطلق القدماء من المؤرخين والجغرافيين ، هذه التسمية نسبة إلى نهر النيجر ، وأول من أشار إليها المؤرخ الرومانى القديم بلينى الكبير Plinius (ت حوالى ١١٥ م) ، فهو الذى أطلق على نهر النيجر اسمه الذى اشتهر به Nigris ، أى

نيل الأجناس السوداء ، ثم استعار كتاب العصور الوسطى بغرب أوربا هذا المصطلح ونسبوا جميع المنطقة المحيطة بهذا النهر إليه ، فعرفوا سكانها بالنجريتيين Nigritae [٥]

ومن الناحية الجغرافية ، يملأ النيجر وروافده هذه المنطقة ، فمن الشرق يصل رافده الكبير نهر بنوى Benue إلى قرب بحيرة تشاد ، بل تتصل أعاليه بنهر شارى الذى يصب فى تشاد ، وكذلك تقترب أعالى روافده الغربية مثل سنكارانى Sankarani وتنكسو Tinkisso ودليبا Doliba ، من ساحل المحيط الأطلسى ؛ وحوض النيجر ؛ والحزام السودانى عامة ، من أغنى المناطق الإفريقية من الناحية التاريخية .

ظفر الإسلام واللغة العربية بنجاح كبير فى هذا الإقليم ، مما يدعو إلى دراسة الدور الكبير الذى قام به هذا الدين ولغته فى تلك البلاد وتطورها ، فقد أصبحت عن طريق الإسلام والعلوم الإسلامية العربية عظيمة الحضارة والتقدم ، وسرعان ما شكل الإسلام عادات السكان وطور أحوالهم ، حتى صار مستوى التفكير والثقافة يقارن بنظائره أو يفوقه فى الدول المعاصرة فى أوربا المسيحية ، ولذلك ليس من سرف القول : إن العصور التاريخية الزاهرة لبلاد السودان الغربى والأوسط تقترن بالإسلام ، وبالإسلام ، كما يقول جويلى Gouilly ، يبدأ العصر التاريخى لأفريقيا السوداء[٦] . والإسلام والعلوم العربية الإسلامية، هى التى أدت إلى قيام الإمبراطوريات الإفريقية الإسلامية الكبرى : غانا ومالى وصنغى ثم برنو فامبراطوريات الهوسا والتكارره والفولانيين أو الفلاتا [٧].

***

لقد تطلعت بلاد السودان الأوسط والغربى إلى البلاد الإسلامية فى الشمال والشمال الشرقى ، من أجل العقيدة والمدنية ، ولم تحل وعورة الصحراء دون اجتيازها ، فطرق القوافل التى تعد بالعشرات ، تخترقها منذ أقدم العصور .

ويمكن التماس ثلاثة منابع رئيسية للتأثير الإسلامى فى أفريقية السوداء عامة :

١ — المنبع المصرى عن طريق النوبة وطرق القوافل الشرقية إلى برنو فبلاد الهوسا .

٢ ـ الحبشة إلى اليوروبا والأشانتى .

٣ ـ من شمال أفريقيا عبر الصحراء إلى حوض النيجر الأوسط والأعلى .

وعن المنبعين الأولين وصلت الآثار المصرية والإسلامية العربية إلى العناصر السوداء ، وساعد فى ذلك وقوع مصر فى طريق الحج ، واهتمام أولى الأمر فيها بتيسير أمور السفر إلى الأراضى المقدسة ، منذ فجر الإسلام ، بل إن وادى النيل عامة ، كما يقول ديشان Deschamps : كان أهم المراكز أو المنابع التى زحفت منها الدعوة الإسلامية ، وكانت مصر أسبق الأقطار لاعتناق الإسلام ، ثم زحف الإسلام جنوباً ، وعاقه بعض الوقت وجود مملكة دنقلة المسيحية[٨] .

وعن المنبع الثالث ، وصلت الدعوة الإسلامية إلى أواسط النيجر وحوض السنغال[٩] .

والإسلام قديم فى بلاد السودان الأوسط والغربى ؛ ومن الأدلة التاريخية على ذلك ، ما ذكره أحمد بابا مؤرخ صنغى ، من أنه حوالى عام ٦٠هـ-٦٧٩م ، كان يوجد بالحى الإسلامى بمدينة غانا أو كومبى صالح ، عاصمة إمبراطورية غانة ، إثنا عشر مسجداً[١٠] ، وما أورده البكرى ، من أن بنى أمية أرسلوا جيشاً فى صدر الإسلام ، لفتح بلاد السودان ، وأن ذرية هذا الجيش استقرت فى بلاد غانة[١١] وأن حملة إســـلامية كانت موجهة لمطاردة البربر ، وصلت فى حركتها إلى بلاد السنغال حوالى عام ١٠٢ هـ ـ ٧٢٠ م ، وعادت بكميات كبيرة من الذهب[١٢] ؛ وعن القلقشندى ، أن أهل غانة أسلموا أول الفتح[١٣] ؛ وقد أسلم أحد ملوك غانة فى القرن التاسع الميلادى ، وهو تلوتان بن تكلان (٨٣٧ م) ، ويقال إنه شن حرباً دينية ضد جيرانه الوثنيين[١٤] ؛ ويقال كذلك إن أربعة من جيش عمر بن عبد العزيز (٩٩ ـ ١٠٠ هـ = ٧١٧ ـ ٧٢٠ م) هاجروا إلى كانم[١٥] ، وأن بعض بنى أمية توجهوا إلى كانم عند محنتهم ببنى العباس[١٦] .

ولا شك أن لهذه التحركات الإسلامية تأثيراً جزئياً فى التعريف بالإسلام فى تلك البلاد منذ زمن مبكر .

ثم إن مدينة أودغست السوننكية الأصل ، نسبة إلى قبائل السوننك Soninks التى كونت إمبراطورية غانة ، البربرية الطابع ، كانت مركز إمبراطورية إسلامية

واسعة ، على حافة الصحراء الجنوبية ، امتدت خلال القرن الرابع الهجرى والعاشر الميلادى، من المحيط الأطلسى غرباً إلى قلب الصحراء شرقاً [١٧]، وتستغرق مساحتها ، فيما يقوله البكرى : « مسيرة شهرين فى مثلها »[١٨] ، نشط سادة هذه الإمبراطورية من قبائل لمتونة البربرية الصنهاجية فى نشر الإسلام ، جنباً إلى جنب مع تنشيط حركة التجارة بين بلاد السودان وشمالى أفريقية ، وكانت أهم السلع المطلوبة فى بلاد السودان الملح ، يقول ابن حوقل : « وحاجة ملوك السودان إلى ملوك أودغست ماسة من أجل الملح الخارج إليهم من ناحية الإسلام ، فانه لا قوام لهم إلا به »[١٩]

ومن سادة المتونة الذين عملوا فى نشر الإسلام بين قومهم وبين الزنوج المجاورين ، تيبونان Tiboutan (ت ٢٢٢ هـ — ٨٣٧ م)[٢٠] ؛ وأشهر ملوك أودغست تين يروتان بن وينسو بن نزار الصنهاجى (كان يحكم حوالى ٩٦١ ، ٩٧١ م) ، فقد دان له ، فيما يقول البكرى : « أزيد من عشرين ملكاً من ملوك السودان[٢١] .

ومعنى هذا ، أن إمبراطورية أودغست الإسلامية ، ساهمت بنصيب ، قل أو كثر ، فى نشر الإسلام والتعريف به فى بلاد السودان ، قبل عهد المرابطين بنحو قرن .

وفى مطلع القرن الحادى عشر الميلادى ، أسلم الملك الخامس فى سلسلة الملوك من أسرة الأزواء الحاكمة فى صنغى ، وهو زاكاسى Za - Kasi حوالى عام ٤٠٠ هـ — ١٠٠٩ م[٢٢] ، ونما فى جاو عاصمة صنغى ، حى إسلامى مثل الحى الذى قام فى مدينة كوسبي صالح عاصمة غانا[٢٣] .

كذلك أسلم ملك التكرور وارجابى بن رابيس (ت ٤٣٢ هـ — ١٠٤٠) ؛ وكان إسلامه عاملا أساسياً فى نشر الدعوة الإسلامية فيما حوله ، وهو صاحب الفضل فى إسلام أهل (سلى) من أعمال تكرور[٢٤] .

هـــذا ويدل حادث إسلام كويو كنبر Koyo Komboro ملك جنى ، المالنكى حوالى القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) ، على قدم الإسلام فى بلاده ، رغم تأخر إسلامه هو ، ففى الوقت الذى هداه الله فيه إلى

الإسلام ، أمر بحشر العلماء المسلمين فى بلاده ، فاجتمع له فيما يقول السعدى ، نحو أربعة آلاف ومائتى عالم ، وأسلم على أيديهم،وبديهى أن مثل هذا العدد أو ما يقرب منه ، لا يعقل أن يكون قد تكوّن أو وجد خلال فترة قصيرة ، أو أن هذا العدد أو حتى النصف أو دون النصف ، لم يكن له عمل فى نشر العقيدة الإسلامية ، بل المعقول أنهم وجدوا ، بصرف النظر عن عدتهم ، قبل القرن الثانى عشر بزمن طويل ، وأنهم دعوا إلى الإسلام فى جنى وغيرها من بلاد مملكته التى أحصاها السعدى بنحو ٧٠٧٧ قرية ؛ وعلى أثر إســلامه خرّب دار السلطنة وحولها إلى مسجد ؛ وهو المسجد الجامع[٢٥] .

وقد طلب كنبر ملك جنى أو « جنكى »[٢٦] من هؤلاء العلماء أن يدعوا الله تعالى بثلاث دعوات لمدينة جنى : كل من هرب إليها من وطنه ضيقاً عسراً ، أن يبدلها الله له سعة ويسراً حتى ينسى وطنه ، وأن يعمرها الله بغير أهلها ، وأن يسلب الصبر من وارديها من التجار حتى يملوا فيبيعوا ما معهم لأهلها بناقص الثمن ، فيربحوا منها . فقروأوا الفاتحة على هذه الدعوات . تقول الرواية : فكانت مقبولة[٢٧] .

تلك هى خلاصة الأدلة التاريخية على قدم الإسلام فى بلاد نجرتيا ؛ وتفسير ذلك،أن العلاقات بين هذه البلاد وشمالى أفريقية وآسيا وأوربا، ترجع إلى الزمن السحيق ، إلى ما قبل عهد هيرودوت (حوالى عام ٤٥٠ ق. م.)،وهى علاقات تجارية تبودلت فيها منتجات وسط أفريقية وغربها بالسلع الخارجية عن طريق القوافل ، ثم بواسطة السفن الفينيقية إلى بلاد البحر المتوسط وأوربا ، ونشطت حركة التبادل التجارى والمواصلات بعد دخول الجمل أفريقية حوالى القرن الأول قبل الميلاد ؛ كما أن الفتوح الإسلامية لمصر وشمالى أفريقية ، قد أدت إلى دفع المسلمين شمالا حتى الأندلس وفرنسا وقلب أوربا ، وجنوباً إلى قلب الصحراء[٢٨] .

ولذلك يمكن القول،إن أفريقية لم تنعزل تجارياً وحضارياً عن أوربا وآسيا فى أى فترة من فترات التاريخ ، وكان لهذا الإتصال المستمر أثره العميق فى حياة الزنوج فى نجرتيا ، ففضلا عن الآثار الإقتصادية والحضارية والثقافية ، ومن

بينها الإسلامية العقائدية بدرجة ما ، وهناك الأثر البشرى ، فقد أدى ضغط العناصر البيضاء من البربر والعرب على تلك البلاد منذ أزمنة موغلة فى القدم ، واختلاطهم بأهلها ، أدى هـــذا إلى امتزاج دمائهم بالدماء الزنجية حتى تغيرت ألوانهم مما يصعب معه وصفهم بالزنوج ، ومن ثم كان استخدام كلمة (أسود) للدلالة على سكان منطقة السافانا أدق من استخدام كلمة زنجى ، فالزنجى النقى أو الحقيقى يصعب العثور عليه فى تلك الأقاليم ، لأنه هاجر تدريجياً نحو الجنوب ، أمام ضغط العناصر البيضاء . ويشبه هذا الإختلاط ما حدث فى بريطانيا زمن الغزو الأنجلو سكسونى فى القرن الخامس الميلادى ، والغزو النورمانى فى القرن الحادى عشر ، فقد امتزجت دماء الفاتحين بالبريطانيين الوطنيين لدرجة كبيرة [٢٩].

ومن أجل هذا الإندماج واختلاط الدماء ، جاء وصف المؤرخين والجغرافيين العرب لبلاد السودان دقيقا ، فيقول الأصطخرى مثلا عن السودان « إنهم ليسوا بنوبة ولا بزنج ولا بحبش ولا من البجة ، إلا أنهم جنس أشد سواداً من الجميع وأصفى » [٢٠].

الخلاصة : لقد وجد الإسلام طريقه إلى بلاد السودان الأوسط والغربى ، منذ القرن الأول الهجرى (السابع الميلادى) ، وذلك لا عن طريق الفتح الحربى والضغط والقهر ، ولكن عن طريق التجارة والمصاهرة والإندماج والكتب والمدارس والمساجد ، لأنه يصعب إخضاع وقيادة القبائل الكبيرة القوية عن طريق الحرب ، بدليل أن الإسلام فى تلك البلاد ظفر بأقوى القبائل وأشجعها وأكثرها عدداً وليس بالمستضعفة منها ، ثم نما وترعرع فى المدن الكبرى التى أقامها المسلمون أو استقروا فيها ، فنمت وكبرت واشتهرت ، كما أدى إلى قيام الأمبراطوريات التاريخية الأفريقية الكبرى .

أما مراحل انتشار الدعوة الإسلامية فى بلاد السودان الأوسط والغربى ، فالواضح أن هذه الحوادث الدالة على قدم الإسلام بتلك البلاد نتيجة الإتصالات المستمرة والمتنوعة خلال الفترة السابقة على منتصف القرن الحادى عشر الميلادى ، هى فى الواقع المرحلة الأولى من مراحل انتشار الإسلام .

وجاءت المرحلة الثانية على أيدى المرابطين البربر من صنهاجة أكبر قبائل البربر ، ولصنهاجة دولتان بالمغرب هما : دولة بنى زيرى بن مناد الصنهاجى بأفريقية ، وهذه ورثوها عن الفاطميين ، ودولة الملثمين بالمغرب الأقصى والأوسط ، وهى التى تعنينا .

قام المرابطون أو الملثمون [٣١] بنشر الإسلام بين البربر أولا ؛ وانقطب الروحى لحركتهم هو عبد الله بن ياسين الجزولى (ت ٤٥١ هـ — ١٠٥٩ م) ثم اتجهوا جنوباً إلى بلاد السودان حيث كانت إمبراطورية غانه لا يزال ملوكها المعاصرون على الوثنية ، رغم انتشار الإسلام فيها ، ورغم أن أحد ملوكها فى القرن التاسع الميلادى كان قد اعتنق الإسلام [٣٢] . فتح المرابطون مدينة أودغست عام ١٠٥٥م وكانت خاضعة لغانه يومئذ ، ثم مدينة كومبي صالح عاصمة غانه ١٠٧٦م ومنذ ذلك الوقت صارت إمبراطورية غانه السوننكية دولة إسلامية ، وانفصلت بعد ذلك عن المرابطين فى الشمال بعد ضعف نفوذهم على أثر مقتل أميرهم أبى بكر بن عمر اللمتونى عام ٤٨٠ هـ — ١٠٨٧ م ، واتصلت بالخلافة العباسية مباشرة . ولقد اشتهرت قبائل السوننك ، وهى من فروع الماندنجو ، بحماسها ونشاطها فى الدعوة الإسلامية فيما بعد ، حتى إن كلمة (سوننك) Soninke غدت مرادفة لكلمة (داعية) فى أعالى غمبيا [٣٣] . ودور المرابطين هام فى نشر الإسلام بنجرتيا ، لنشاطهم وحماسهم ، إذ كانوا يرسلون الدعاة والعلماء بين القبائل السودانية ، وبفضل حركتهم ازداد انتشار الإسلام كما ازداد الإتصال التجارى والثقافى بالبلاد الإسلامية عامة ، حتى الأندلس فى أوربا ؛ والمرابطون هم الذين أنشأوا مدينة تنبكت وكانت من قبل قرية صغيرة . ومع أن قبائل الفولانيين وموش قاومت الإسلام زمن المرابطين ، إلا أنهم أسلموا بعد ذلك [٣٤] .

وتشبه حركة المرابطين وهى حركة دينية حربية ، حركة الفرسان المسيحيين ، الذين قاموا لنفس الغرض لخدمة المسيحية الغربية ، وأشهر هذه الحركات ما ظهر خــلال الحروب الصليبية ، مثل حركة الفرسان الداوية Knights Templars وهى التى تأسست فى القدس الصليبية عام ١١١٨ م ومهمتها دينية حربية ، وكذلك فرقة الفرسان التيوتون Teutonic Order & Knights . التى تأسست فى الشرق

(١١٩٧ م) للدفاع عن الأمارات الصليبية ، لكنها أدركت عدم جدوى الكفاح بسبب نتائج انتصارات صلاح الدين المتلاحقة ، فحولت جهودها إلى البلاد الوثنية بشرق ألمانيا وبولندا ولتوانيا وليفونيا وغرب روسيا[٢٥].

أما المرحلة الثالثة من مراحل انتشار الإسلام فى نجرتيا فكانت على أيدى سادة إمبراطورية مالى الإسلامية ، فقد كان الماندجو مؤسسوها أكثر السود تحمساً للإسلام والدعوة له ، وتدلنا قصة إسلام أول ملوكها (١٠٥٠ م) على مدى الحماس الذى صحب اعتناق العقيدة الإسلامية . يقول البكرى .

« عرف ملك مالى بالمسلمانى لأن بلاده أجدبت عاماً بعد عام ، فاستسقوا بقرابينهم من البقر حتى كادوا يفنونها . وكان عندهم ضيف من المسلمين يقرأ القرآن ويعلم السنة» . ووجود هذا المسلم الداعية من أدلة وجود الإسلام فى بلاد مالى ، قبل حادث إسلام هذا الملك . فشكا إليه الملك مادهمهم من ذلك ، فقال له : « أيها الملك ! لو آمنت بالله تعالى ، وأقررت بوحدانيته ، وبمحمد عليه الصلاة والسلام ، وأقررت برسالته واعتقدت شرائع الإسلام كلها . لرجوت لك الفرج مما أنت فيه وحل بك وأن تعم الرحمة أهل بلدك وأن يحسدك على ذلك من عاداك وناوأك ، فلم يزل به حتى أسلم وأخلص نيته وأقرأه من كتاب الله ماتيسر عليه وعلمه من الفرائض والسنن مالا يسع جهله ، ثم استسقى ، فنزل المطر ، فأمر الملك بكسر الدكاكير — الأصنام — وإخراج السحرة من بلاده ، وصح إسلامه وإسلام عقبة وخاصته[٢٦]» . ولما كان الكثير من رعاياه لا يزالون على الوثنية، فقد وسموه « بالمسلمانى » . وعبر العمرى والقلقشندى عن حماس ملوك مالى فى الدعوة إلى الإسلام ، يقول القلقشندى : « وملك مالى فى جهاد دائم وغزو ملازم لمن جاوره من كفار السودان »[٢٧] . وإلى ملوك مالى يرجع الفضل فى نشر الإسلام فى بلاد الهوسا .

ثم جاء الدور الرابع أو المرحلة الرابعة من مراحل انتشار الإسلام فى نجرتيا على أيدى إمبراطورية صنغى الإسلامية ، وهى التى ورثت مالى فى تلك البقاع . عملت صنغى منذ أسلم أول ملوكها زاكاسى حوالى عام ١٠٠٩ م ، على نشر الإسلام بين الوثنيين كما كان الشأن بالنسبة لمالى ؛ وفى زمن أسرة سن على

(ت١٤٩٢م)، ازداد انتشار الإسلام حتى وصل إلى فروع النيجر الشرقى ، كما أن أسرة الأساكى التى تبدأ بأسكيا الأكبر ، (ت ١٥٢٩) ، قامت بأعظم دور فى نشر الإسلام ؛ وبلغت إمبراطورية صنغى زمن أسكيا الأكبر، أقصى اتساعها وعظمتها . ظفر أسكيا بلقبى « إمام » ، «أمير المؤمنين » ، كما ظفر علماء الإسلام فى عهد هذه الأسرة بمنزلة سامية ؛ لم يقتصر نشاط هذه الأسرة على الدعوة إلى الإسلام بين الوثنيين ، بل شمل الكفاح كذلك تنقية العقيدة من البدع ، فمثلا لم يقف أسكيا الأكبر مكتوف اليدين أمام متنبىء فولانى ظهر فى عهـــده ، هو تينض Tayned ملك فوتا ، ويعرف باسم « فوط كنك » فحاربه عام ٩١٨ هـ — ١٥١٢ م وقتله[٣٨] .

كذلك يضم إلى هذا الدور ، ما قامت به امبر طورية برنو ، والمشهور أن الإسلام وصل إلى كانم من مصر مباشرة [٣٩]، ومن أشهر دعاة الإسلام فى كانم ، محمد بن مانى (القرن الحادى عشر الميلادى) وهو سلف الأمام أحمد بن فرتوا، مؤرخ بلاط برنو زمن الماى إدريس ألوما (ت ١٦٠٢ م) . عاش ابن مانى حوالى ١٢٠ سنة ، وعاصر خمسة من مايات برنوو قرأ معهم القرآن وسيرة النبى (ص)، ويقال أنه قرأ مع ابن الملك سالما بن بكر (ت ١٢٢٠ م) نحو ١٥٠ كتابا دينيا[٤٠] .

واشتهر مايات برنو بحماسهم للدعوة الإسلامية بين القبائل الوثنية، حتى إن الماى عثمان بن زينب (١٣٠٠) ادعى أنه من نسل عثمان بن عفان ، وفسر بعض الكتاب بأن الهادى العثمانى الذى اشتهر بالدعوة الإسلامية فى السودان الأوسط ، هو الماى عثمان هذا [٤١] .

وكانت المرحلة الخامسة على أيدى قبائل الفولانيين أو الفلاتا زمن ازدهار إمبراطوريتهم فى القرن التاسع عشر الميلادى ، على أن اسلام الفولانيين يرجع الى حوالى القرن الرابع عشر ، وكان منهم دعاة انبثوا فى أرجاء السودان لنشر الأسلام ، منهم اثنان وصلا إلى بلاط برنو زمن عثمان بن زينب حيث نشطا فى نشر الإسلام [٤٢] .

أسس الفولانيون أكثر من دوله : أشهرها تلك التى قامت فى بلاد الهوسا ، على أيدى الشيخ الصالح عثمان دان فودى أوائل القرن التاسع عشر . قام هذا الشيخ

بحركة جهاد واسعة النطاق خلال الفترة من ١٨٠٤ إلى ١٨١٠ وتمكن من إخضاع بلاد الهوسا و معظم بلاد برنو وسمى نفسه (أمير المؤمنين) Sarkin Musulmi واتخذ له قاعدتين فى سوكو تو وكانوا . ثم سار ابنه وخليفته محمد بلو على نهجه ، والسلطان بللو هو الذى استقبل الضابط المكتشف الإنجليزى كلا برتون Clapperton عام ١٨٢٢ ، ولم يأذن له بالتقدم نحو النيجر ، فعاد هو وزميلاه عام ١٨٢٥ [٤٣] .

وخلال نفس الفترة ، نهض التكارة فى إمبراطوريتهم الواسعة من أواخر القرن الثامن عشر الى أواخر القرن التاسع عشر ، وسيد هذه الأمبراطورية ، الحاج عمر (ت ١٨٦٤م) . ونواة أمبراطورية التكارة فى فوتاتورو بالسنغال وفوتا جالون وغينية، وفوتاتورو موطن التكاوة الأصلى ، من أكبر مراكز الدعوة الإسلامية والحماس لها ، وزادهم حماسا اتصالهم بطريقتى القادرية والتيجانية اللتين وصلتا اليهم من شمالى أفريقية .

وأسلم على أيدى التكاررة قبائل الولوف أو الجلف ، وكذلك بفضل التكاررة ، أسلم من بقى على غير الإسلام من جيرانهم الفولانيين والبامبارا ، وللحاج عمر وابنه أحمدو (أمادوا) تاريخ حافل فى كفاح الإستعمار الفرنسى .

يضم إلى هذا الدور أو هذه المرحلة كذلك ، جهاد ساموري التورى Samori Turè جد أحمد سيكتورى رئيس جمهورية غينيه الحالى ، أخذ لقب إمام Alimami ودوخ هو وابنه سارانتى Sarantie ، الفرنسيين نحو ثلاثين عاماً (١٨٧٠ — ١٩٠٠م) [٤٤] .

ومنذ نهاية القرن التاسع عشر ، وبعد أن استقر المستعمر الأوربى فى نجرتيا ، كان موقف المستعمر متضارباً من الإسلام والمسلمين ، فالقائد الفرنسى فيدرب Faidherbe ، رغم قتاله المسلمين فى الجزائر ثم جيوش الحاج عمر التكرورى ، اضطر إلى سياسة التقرب والتفاهم مع زعماء المسلمين لقوتهم ومكانتهم ، أما القائدان أرشينار ومانجان Archinard & Mangin ، فقد اصطبغت حروبهما الإستعمارية ضد الحاج أمادو بن الحاج عمر بالروح الصليبية المتعصبة . ثم إن الحاكم الفرنسى بريفى Brevié ، أصدر فى عام ١٩٢٣ م كتاباً عنوانه (الإسلام ضد الوثنية فى السودان الفرنسى) أوضح فيه خطر الاعتماد على الجماعات الإسلامية [٤٥] .

ومع كل هذه العقبات التى اعترضت ازدياد انتشار الدعوة الإسلامية ، ورغم نشاط البعثات التبشيرية المسيحية ، استمر انتشار الإسلام بين القبائل التى ظلت على وثنيتها مثل قبائل موش Mosi أغلب سكان جمهورية فولتا العليا الحالية ، كما وصل الإسلام إلى المناطق الساحلية التى تركز فيها نشاط البعثات التبشيرية ، والعجيب أن هذه المناطق المتطرفة ظلت بعيدة عن متناول نشاط الدعوة الإسلامية زمن الأمبراطوريات الإسلامية الكبرى أمثال مالى وصنغى .

ويقوم اليوم فى نيجيريا ، وهى جزء من نجرتيا ، حركة لتطهير الإسلام من الشوائب والبدع وآثار الوثنية ، أساسها الطلبة النيجيريون الذين درسوا وتعلموا فى الأزهر ، وأتقنوا اللغة العربية التى استخدموها فى التخاطب . وكذلك اشتدت أواصر الصداقة بين مسلمى حوض تشاد وبين السودان الشرقى ومصر ، وسارت نهضة الإسلام مع انتشار اللغة العربية فى شتى بلاد السودان الأوسط و الغربى[٤٦] .

والمذهب الغالب عند مسلمى نجرتيا هو مذهب الإمام مالك ؛ على أنه يوجد فى كانم وبرنو بعض الشافعية ، مما يؤكد أثر النبع المصرى فى إسلام كانم . كما أن أهل كانم أسسوا مدرسة للمالكية فى فسطاط مصر ، زمن الأيوبيين ، وهى المشهورة باسم مدرسة ابن رشيق[٤٧] . انتشرت بينهم الطرق الصوفية ، وأشهرها القادرية — وهى على مذهب مالك — وعنها تفرعت طريقة فى السنغال عرفت باسم (المريدية) وهى التى أسسها أمادوبامبا من الولوف[٤٨] كذلك اشتهرت طريقة التيجانية ، التى تبعها الحاج عمر التكرورى ؛ حارب الحاج عمر الطريقة الشاذلية التى انتشرت فى فوتاجالون ؛ وعن التيجانية ، تفرعت شعبة (الحماله) نسبة إلى الشيخ حما الله فى نيورو شرقى السنغال. هذه الشعبة ، متطرفة حتى أن أتباعها جعلوا قبلتهم مدينة ، نيورو وليست مكة[٤٩] كذلك وجدت الطريقة السنوسية التى ظهرت فى القرن التاسع عشر ، وشقت طريقها إلى بلاد السودان الأوسط والغربى ، كما وجدت (المهدية) بعض الأتباع لكن الكثرة فى كانت السودان الشرقى وشرقى تشاد[٥٠] .

أما عن طبيعة انتشار الإسلام فى تلك الجهات ، فقد أجمع المؤرخون والرحالة الأوربيون ، على أن السلم والإقناع كان الطابع الأساسى لنشر الدعوة الإسلامية مما جعل الأفريقيين يقبلون على اعتناق الإسلام إقبالا شديداً ، فلم يشهر حملة لواء

الدعوة، السيف إلا فى الحالات الدفاعية التى خلفها تكتل الوثنية ، وكان الداعى يعقب الفاتح ليدخل الطمأنينة فى النفوس وليقرب العقيدة الجديدة ؛ وفرق بين انتشار الإسلام والفتوح الإسلامية (٥١) . نشط الدعاة كما نشط التجار نشر فى الإسلام ، والتفوا حول الملوك وحببوا الدين إليهم وشرحوا لهم أحكامه ، فمثلا كان فى حاشية مانساموسى ومانسا سليمان من سلاطين مالى، عدد كبير من العلماء ، كذلك كان الشأن بالنسبة للأساكى مثل أسكيا داوود من حكام صنغى ، ومايات برنوا وسراكنة الهوسا وملوك الفولانيين .

ومما ساعد على قبول الإسلام ، ذلك الإندماج والمصاهرة التى تمت بين التجار والدعاة المسلمين من العرب والبربر من جهة ، وبين الأفريقيين الوثنيين من جهة أخرى ، وبهذه الطريقة الهادئة . دخل الأمراء ورؤساء القبائل فى الإسلام وتحمسوا بدورهم لنشره والدعوة له بين الجيران الوثنيين .

يقول كرمل Crummel فى كتابه (مستقبل أفريقية) : « انتشر الإسلام بسرعة فى هدوء بين جميع قبائل نجرتيا حتى البلاد المسيحية فى ليبريا » .

كذلك يسر سرعة انتشار الإسلام أنه دين الفطرة ، سهل التناول لا لبس فيه ولا غموض ولا تعقيد ، لم ترتبط به صور مقدسة أو أيقونات Icons ، فهو لا يتطلب من الشخص لإعلان إسلامه أكثر من النطق بالشهادتين ، ثم أداء الفروض فى بساطة ويسر . ثم إن فكرة التوحيد التى جاء بها الإسلام والأديان السماوية الأخرى لم تكن غريبة على الأفريقيين الوثنيين . إذ كانوا فى وثنيتهم. وإن تعددت آلهتهم ، يعتقدون فى وجود إله أعظم خالق الكون (٥٢) .

ولعل أكبر ما يميز طبيعة انتشار الإسلام ويفسر سرعة قبوله والتحمس له : أنه جاء إلى أفريقية السوداء وأهلها سادة فى بلادهم ، يتمتعون بكامل حرياتهم وسيادتهم واستقلالهم ويمارسون حكوماتهم وينظمون شئونهم الخاصة و مجتمعاتهم وفق تقاليدهم ، وظلوا كذلك بعد دخول الإسلام : بل ازدادوا به قوة كما ازداد نفوذهم اتساعاً وسيطرة .

لم يكن للدعاة المسلمين من العرب أو البربر أو من الأفريقيين السود أنفسهم أدنى قسط من السيطرة . كما لم يلجأوا إلى وسائل الإغراء: فلم يكن معهم مال للرشوة

خلال تجوالهم بين القبائل الوثنية ، أو وعود للأفراد ، فهم قد دعوا إلى دينهم فى هدوء ، وكان للوثنى كامل الحرية فى أن يختار بين القبول أو الرفض ، حتى شعر الأفريقيون بالأخوة مع الدعاة المسلمين ، ولذا تقبلوا الإسلام وتحمسوا له وقاموا بدورهم بنشره .

ومعنى هذا أن الإسلام لم يؤد إلى تدمير النظم المحلية ، بل إن الوطنيين أنفسهم هم الذين اختاروا الصور الجديدة للحياة بمحض اختيارهم ، ومن أجل هذا نظر المسلمون السود إلى الإسلام على أنه دين السود ، وإلى المسيحية التى جاء بها المستعمر ، على أنها دين الأوربيين البيض .

يقول سمث Smith فى كتابه (محمد والإسلام) Moh. & Mohammadanism :
« احترم الدعاة المسلمون العادات والتقاليد والعقائد المحلية ولم يحتقروها ، وهذا أحد أسباب نجاحهم ، وهو ما ينبغى أن تحذو البعثات التبشيرية المسيحية حذوه » (٥٣) .

ظلت الجماعات الإسلامية الأفريقية محتفظة بكيانها واستقلالها وعظمتها وسيادتها ، ونفث فيها الإسلام قوة روحية جديدة ، كما أسبغت العقيدة الإسلامية على معتنقيها احتراماً وتقديراً بين مواطنيهم .

والمهم فى هذا ، أن الدول الإسلامية الأصلية التى جاء منها الإسلام والعلوم الإسلامية ، فضلا عن النظم السياسية والإجتماعية ؛ حتى فى مظاهر الزى ، لم يكن لهذه الدول أى جانب من جوانب السيطرة أو السيادة السياسية أو أى نوع من أنواع الإشراف أو الحماية أو الوصاية على تلك البلاد . لقد ترك الإسلام الوطنيين فى أفريقية السوداء لأنفسهم وبلادهم .

أما المستعمر الأوربى فقد جاء بالمسيحية إلى الأفريقى ، كما يقول الدكتور بليدن Blyden ، أحد المثقفين المسيحيين الأفريقيين فى القرن التاسع عشر ، باعتباره عبداً ، أو على الأقل بوصفه خاضعاً محكوماً ، فتعلم الزنجى وبنوه من بعده بجانب تعاليم المسيحية ، أنه جنس منحط عديم الأهلية والكفاءة وأنه دون حكامه البيض ومعلميه .

لقد دهمهم المستعمرون وأجبروهم على اعتناق المسيحية بمختلف الوسائل والإغراء ، واستولوا على بلادهم بالعنف والقهر والتفرقة ، وأنزلوهم منزلة دون منازل الإنسانية ، لذلك بات أعظم المثقفين من الزنوج المسيحيين يتطلعون إلى اليوم الذى يزول فيه أثر لندن وباريس ولشبونه ، وقد زال حديثاً إلا القليل (٥٤).

وبينما شعر الأفريقى المسلم أن الإسلام لم يقطعه عن ماضيه أوعن مجتمعه ، نجد الإستعمار الأوربى قد جعل الأفريقى المسيحى حائراً ضائعاً ، فلا هو قريب من مجتمعه ولا هو مرضى عنه الأوربى من المستعمر لكى ينتسب إلى الحضارة الأوروبية المسيحية ، فحرمه الثقافة العادلة والحقوق الإنسانية الطبيعية المتاحة للمسيحى الأبيض ، وذلك على عكس الإسلام الذى اعترف منذ أول وهلة بالمساواة التامة ، وكفل للمسلم جميع حقوقه ، دون نظر إلى لون أو جنس .

يقول الرحالة منجو بارك Mungo Park : (لقد عمل الإسلام على تطوير بلاد الزنوج ولا يزال يعمل) ويقول القمص ستانلى Daan Stanley فى كتابه عن الكنيسة الشرقية Eastercn Church : (لا يمكن أن ننسى أن الإسلام هو الديانة السامية الوحيدة التى أدت إلى تقدم وتطور قارة أفريقية الواسعة ، ومهما كان مستقبل المسيحية فى أفريقية فليس هناك أدنى شك فى أن هذا المستقبل سوف يتأثر بالجانب الحماسى عند الزنوج المسلمين) . (٥٥)

لقد ظهرت المسيحية قبل الإسلام بخمسة قرون ، ومع ذلك كان الإسلام أسبق فى الوصول إلى بلاد نجرتيا ، حقيقة حال المسلمون فى العصور الوسطى دون الإتصال المباشر بين الأوربيين المسيحيين وبين تلك البــلاد لأسباب دينية وتجارية ، إلا أن الإستعمار الأوربى الحديث لم يستطع أن يحول قبيلة بأكملها إلى المسيحية بوسائله المختلفة ، فمن غمبيا إلى جابون مثلا ، ظل الكثير من الوطنيين على عقائدهم القديمة ووسائل حياتهم البدائية رغم اتصالهم بالمسيحية الغربية نحو ثلاثة قرون ، بينما على طول الساحل من السنغال إلى لاجوس ، لا توجد مدينة هامة إلا وبها مسجد على الأقل ، فضلا عن عدد كبير من المسلمين يعيش جنباً إلى جنب مع المسيحيين والمبشرين ؛ ومن العجيب أن نسبة المسلمين فى المنطقة الساحلية لم تزدد إلا فى عهد الإستعمار وخلال نشاط البعثات التبشيرية الغربية .

جاء فى المحاضر ةالتى ألقاها م. وليامز M. Williams أستاذ اللغة السنسيكريتية — وهى الهندية الفصحى — فى جامعة اكسفودر ، فى مؤتمر عقد فى لندن عام ١٨٧٥ م ، لبحث لشئون البعثات التبشيرية فى الخارج :

« إنه ما لم تكن هناك وسائل جديدة تضاف إلى جهود البعثات التبشيرية المسيحية ، فان الإسلام سوف يكتسح جميع القارة الأفريقية »[٥٦] .

أما أثر العقيدة الإسلامية فى مسلمى نجرتيا ، فهو عميق ، وعلى الأقل من حيث المظهر ، فمثلا يصف القلقشندى مسلمى كانم بأنهم «يابسون فى الدين» ، غير أن القرآن بالنسبة للأفريقى المسلم فى تلك البلاد أكثر منة بالنسبة لغيرهم من سائر مسلمى العالم ، أخذ المسلم الأفريقى من القرآن جميع احتياجاته ، حتى وسائل العلاج من أمراضه ، فبا القرآن تحجب ، وحمل معه بعض آياته فى عنقه وذراعه . والآيات التى كثيرا ما يتحجبون بها هى : آيات السورتين الأخيرتين من القرآن المعروفة باسم سور النجاة ، وهى (الفلق والناس) وكذلك آيات الحفظ مثل (فالله خير حافظا وهو أرحم الراحمين) [٥٧] ، وكذلك (والله من ورأيهم محيط) [٥٨] وعموما القرآن معهم فى كل مكان . [٥٩]

اهتموا كذلك بحفظ القرآن . وقد شهد ابن بطوطة فى رحلته فى بعض بلاد مالى (القرن الرابع عشر الميلادى) أطفالا مقيدين من أجل حفظ القرآن . دخل ابن بطوطه يوم عيد الفطر على قاضى مالى ، فوجد أولاده فى القيود ، ولما طالب تسريحهم ، قال له القاضى : لا أفعل حتى يحفظوا القرآن [٦٠] .

ووضح أثر الإسلام عند مختلف القبائل من ناحية الإصلاح والتهذيب والتقريب بين القبائل المتنافرة ، ولعل من أبرز مظاهر هذا الأثر الإسلامى أن الجلبة والضوضاء التى كانت تقترن بالحفلات الوثنية الصاخبة ، قد اختفت بحيث لم يعد هناك مدلول لتلك العبارة التى اشتهرت عن أفريقية الوثنية (إذا غربت الشمس ، رقصت أفريقية) .[٦١]

ومن تقاليد المسلمين فى تلك البلاد ، استجارة الناس ببيت للخطيب فضلا عن المسجد ، وحدث أن استجارت زوجة مانسا سليمان سلطان مالى (ت ١٣٦٠) بدار الخطيب فى مالى العاصمة على أثر اكتشاف اشتراكها فى مؤامرة [٦٢] ؛ وفى صنغى ، يتبرك المسلمون بالحجاج إذا عادوا من حجهم ، وجرت العادة أن يخرج

أسكيا وحاشيته وأهل المدينة لاستقبال الحجاج وطلب الدعوات منهم ، وفى هذا الإستقبال يقبل أسكيا ، أيدى الحاج حتى ولو كان عبدا ،[٦٣] كما أن للأشراف مكانة مقدسة فى نظر المسلمين هناك ، وقد طلب أسكيا الأكبر خلال حجه من أميرمكه أن يبعث له بشريف ليتبركوا به ، فأرسله عام ٩١٥ هـ ـ ١١٩م[٦٤].

كذلك لعلماء الدين الإسلامى مكانة سامية فى نظر مسلمى تلك البلاد حتى ، أن أسكيا داوودسلطان صنغى ، وقف بباب قاضى تمبكتو فلم يأذن له بالدخول إلا بشفاعة بعض العلماء ، ولما دخل جلس بحذاء القاضى (مستوقرا) وهو يتخشن ، وأسكى يتكين ، حتى أرضاه[٦٥] .

وفى برنو ، غير الثايات أسماء أسلافهم الوثنية إلى أسماء إسلامية ، مثل بيرى وهواسم إله المطر عندهم ، صار عثمان وكذلك ميديلا Midila من أسماء آلهة كانم ، صار عبد الرحمن و هكذا[٦٦] .

والخلاصة ، وجد الاسلام تربة خصبة فى بلا السودان الأوسط والغربى ، ويزداد انتشاره فى العصر الحاضر ، ولعل من أكبر العوامل ، زوال الإستعمار والصلات الجديدة التى تقوى يوما بعد يوم بين تلك البلاد وبلاد الشرق الأوسط الإسلامى .

وبحسب بعض الإحصائيات ، هناك بعض الأمثلة التى تدلنا على هذه الحقيقة ، فمثلا نجد المسلمين فى جمهورية السنغال يبلغون نحو ٨٥٪ من سكانها (إحصائية ١٩٦٢) وجمهورية مالى دولة إسلامية وسكانها نحو ٥ مليون ، وفى غينية البرتغالية (حسب إحصائية ١٩٤٦) ازداد المسلمون بها فى مدى خمسة عشر عاما من ٤٠ ألف إلى ٧٠ ألف (سكانها فى عام ١٩٦٢ ـ نحو ٥٦٥ ألف) وغمبيا أغلبها مسلم ، وجمهورية غينية إسـلامية بها نحو ٨٠ ٪ مسلمون (السكان نحو ٣ مليون حسب احصائية ١٩٦٢) وفى سيراليون يتركز المسلمون فى الداخل ، وكذلك فى ليبريا وساحل العاج ، وفى فولتا العليا نحو ٦٠٠ ألف مسلم من السكان البالغ عددهم نحو ٣,٢٠٠,٠٠٠ نسمة حسب إحصائية ١٩٦٢ ؛ وفى جمهورية غانة ، ازداد المسلمون فيها فى مدى ١٥ عاما من ٧٠ ألف إلى ١١٤ ألف ، ونسبة المسلمين فى نيجيريا نحو ٤٥٪ من سكانها البالغين أكثر من ٤٠ مليون (١٩٦٣) ، وفى جمهورية

النيجر ٨٠٪ مسلمون (١٩٦٢) ، وأكثر من النصف مسلمون فى جمهورية تشاد (١٩٦٢) . وهكذا . . يزداد انتشار الإسلام حتى فى البلاد الوثنية الساحلية التى تركز فيها نشاط البعثات التبشيرية فى العصر الحديث ، فمثلا فى جمهورية نيجيريا ، نجد الإسلام ينتشر بين كثير من قبائل اليوروبا والإيبو (IBO) الوثنية المنتشرة فى الجنوب (٦٧) .

— ٢ —

اللغة العربية

ارتباط الدعوة الإسلامية بانتشار اللغة العربية — العوامل التى ساعدت على انتشار اللغة العربية فى بلاد السودان الأوسط والغربى — كيف ينطق المسلمون هناك الحروف العربية وطريقة كتابتهم — أثر اللغة العربية فى اللغات المحلية — سيادة اللغة العربية وإيفاؤها بجميع الأغراض — نصوص عربية — بعض ما أضافه الأفريقيون إلى المكتبة العربية — ترجماتها إلى اللغات الأوربية — بين العربية واللاتينية .

وأما اللغة العربية ، فالواضح أن الدعوة الإسلامية فى تلك البلاد كما فى غيرها من البلاد الإسلامية ، قد ارتبطت باللغة العربية لغة القرآن والعلوم الإسلامية ، وسار الإسلام واللغة العربية جنباً إلى جنب مع الجهاد فى سبيل نشر الدين وتوسيع رقعة البلاد الإسلامية فى أفريقية ، فضلا عن تنشيط الحركة التجارية .

احترم المسلم الأفريقى اللغة العربية احتراماً يقرب من التقديس لأنها لغة القرآن ، فبها يؤدى صلاته وبها يتلو القرآن وبواسطتها يلم بعلوم الدين .

وحتى إذا صعب على الأفريقى المسلم فهم اللغة العربية وألفاظها ومدلولاتها فهما عميقاً تاماً ، إلا أن مجرد لفظها يحمل جرساً فيه جمال ورقة وفخامة تجذبه إليها ، ومثل هذه الخصائص لم يجدها فى اللغات الأوربية التى عرفها فيما بعد ، كما لاحظ بعض المسيحيين الأفريقيين (٦٨) .

وساعد على انتشار اللغة العربية والتمسك بها فضلا عن الجانب الدينى المرتبط بها ، أن الكثير من الشعوب الأفريقية فى السودان الأوسط والغربى قد ادعى

الأصول الشرقية ، وإذا كان هذا الإدعاء لم يظهر أو لم يعرف إلا بعد انتشار الإسلام واللغة العربية فى تلك البلاد ، فهذا دليل على حرص هذه الشعوب على التمسك بكل ما هو شرقى عربى ، كما يدل فى نفس الوقت على مدى الترحيب والرضى والقبول التى ظفر بها الإسلام ولغته .

لقد ادعى ملوك مالى والتكرور وصنغى وبورنو والهوسا والفولانيين وغيرهم، أنهم انحدروا أصلا عن العرب وأن أسلافهم الأوائل جاءوا من الشرق ، ومنهم من ادعى النسب العلوى، مثل ملوك مالى وتكرور ، ومنهم كذلك من ادعى النسب إلى سيف بن ذى يزن الحميرى مثل مايات كانم وبرنو [٦٩] .

كما أن من سكان بورنو من ادعى الأصول اليمنيه مثل ،قبائل الكانورى ،ويفسر ناختجال الرحاله الألمانى كلمة كانورى بأنها مشتقة أصلا من الكلمة العربية (نور) ثم أضيف المقطع (كا) الدال على معنى التبعية أوالإرتباط ، فصار معناها : أصحاب النور أوحملة المشاعل ، إشارة للدور الذى لعبته هذه القبائل فى نشر الإسلام والثقافة العربية الإسلامية [٧٠] والمشهور أن قبائل الكانورى خليط من العرب والبربر والزنوج [٧١] . ويقال إن مملكة كانم الأولى قد تأسست على أيدى العرب ،وكذلك الشأن بالنسبة لمملكة واداى الاسلامية [٧٢] . وادعى البولالا، وهم فرع من الأسرة الحاكمة فى برنو، أن لهم أصولا عربية من اليمن ، وكذلك ادعى الهوسا أن أصولهم الأولى جاءت من مكة .

ومهما يكن فى هذه الإدعاءات من بعض الأساطير ،فان آثارها المحققة ، هى سرعة انتشار اللغة العربية فضلا عن الإعتراز بها والفخر بالانتساب إليها وإلى مصادرها .

ومن العوامل التى ساعدت على انتشار اللغة العربية كذلك ، هجرة القبائل العربية إلى تلك البلاد واستقرارها فيها ،وهذه الهجرات قديمة وسابقة على دخول الإسلام ، وازدادت بانتشار الإسلام ، فمثلا مجموعة القبائل العربية المعروفة فى امبراطورية برنو الاسلامية باسم (شوا) ،وهى التسمية التى أطلقها عليها البرنويون، يقال إنهم وصلوا عن وادى النيل وعن الشمال ، واشتهروا فى جيش برنو بالفروسية . وفسّر بعض الباحثين بأن أصل هذه التسمية عربى ، من الكلمة (شاء) فى صيغة

الجمع ، وجمع الجمع (شوى) أى رعاة الأغنام، ويقول البعض، ربما كان أصل التسمية من الكلمة الحبشية « شا » Sha ، بمعنى راع [٧٣]؛ وأيا كانت الأصول والتخريجات، فهذه مجموعة عربية . كما أن من القبائل العربية من احتفظت باسمها الأصلى مثل جذام ، وكان الماى عثمان (ت ١٤٢٥ م) قد استشعر خطر جذام ، فأرسل إلى برقوق ملك مصر ، باعتبارها أم الدينا ، كما جاء فى رسالة صاحب البرنو التى يشكو فيها [٧٤] .

هذا ومصاهرات العرب الشوا وغيرهم من دعاة المسلمين العرب والبربر مع القبائل الأفريقية ، ساعدت على انتشار اللغة العربية بجانب الإسلام . فالبولالا مثلا، من فروع الأسرة المالكة فى برنو ، يدعون أنهم نتيج المصاهرات بين الشوا والزنوج ، ومن أجل ذلك ، قالوا إن لهم أصولا تنحدر عن عرب اليمن ، أى أن الدماء العربية أو المستعربة قد اختلطت وامتزجت بدماء أفريقية السوداء [٧٥] .

ويحرص المتكلمون باللغة العربية فى برنوا مثلا على الإحتفاظ بها حتى لا تطغى عليها اللغات المحلية ولا سيما لغة الكانورى، كما أن اللهجة العربية السائدة فى برنو تغلب عليها اللهجة الحجازية [٧٦] .

وهكذا وجدت اللغة العربية تربة خصبة فى بلاد غربى أفريقيا بل ظلت كذلك حتى عصر الإستعمار الأوربى، فمثلا عندما وصل الرحالة الإنجليزى فرانسس مور Francis Moore عام ١٧٣١ إلى غمبيا البريطانية ، وجد معظم أهلها يتكلم اللغة العربية كما وجد القرآن شريعتهم ، ومما أثار دهشته أن إلمامهم باللغة العربية كان أكثر من إلمام أهل أوربا الوسيطة باللغة اللاتينية ، وجد كذلك أن الكثير يتكلم باللغة العربية بالاضافة إلى لغته الأصلية المحلية [٧٧] .

كذلك وجد مانجوبارك أوائل القرن ١٩ م، عددا كبيرا من المدارس التى تعلم القرآن واللغة العربية ، وفى سيراليون ، وهى تسمية برتغالية ،وجد الإنجليز جماعات من القبائل الأفريقية تتقن اللغة العربية وتعنى بانشاء المدارس الخاصة لتعليم القرآن ولغته .

ورغم الجهود التى بذلها الإستعمار الفرنسى والإنجليزى للقضاء على اللغة العربية والثقافة العربية الإسلامية فى تلك الجهات وتحويل أنظار الأفريقيين من فاس وتونس والقاهرة ومكة، فانه فشل فشلا ذريعا ، إذ كان المسلمون والمستعربون من الأفريقيين

يعمدون إلى إنشاء مدارسهم ومؤسساتهم الثقافية فى المناطق الوثنية النائية ، كما فى ساحل العاج ونيجريا .

من أجل هذا لم يخطىء سير توماس أرنولدحين قال منصفا : بلغتاللغة العربية وهى لغة القرآن درجة عظيمة من الذيوع والإنتشار حتى غدت لغة تخاطب بين قبائل نصف القارة السوداء . ثم يردف بقوله : وهذا تقدم كبير فى الحضارة الأفريقية (٧٨) .

لكن يلاحظ أن اللغة العربية لم تنس القبائل الأفريقية فى غربى أفريقيا لغتها الوطنية أو تقض عليها ، بل ظلت هذه اللغات بجانب اللغة العربية : لغة الدين والثقافة والمدنية والحكومة والتجارة . بدليل أن ملوك غانة الوثنيين استخدموا تراجمة من العرب المسلمين وأن السلطان كنكن موسى مع إجادته (اللسان العربى) كما يقول العمرى ، كان يكلم المهمندار ، مرافقه فى القاهرة ، عن طريق ترجمان (٧٩) .

ويشبه هذا ما كان عليه وضع اللغة اللاتينية عند الملوك الجرمان والشماليين وشعوبهم ، فهم يتكلمون بلغاتهم الأصلية : الفرنجية أو النورماية أو الوندالية أو القوطية أو السكسونية ، بجانب اللغة اللاتينية ، ولكن العبادة والحكومة والثقافة والآداب والقوانين ، فباللغة اللاتينية .

وهناك خصائص فى نطق الحروف العربية بين مسلمى السودان الأوسط والغربى ، من هذه الخصائص :

الحروف : ت ، ش ، ص ، تنطق مثل س (S) ، فكلمة « شيخ » مثلا ، صارت « سيكو » Seku ، وكلمة « شريعة » أضحت « ساريا » عند الماندنجو . على أن حرفى « ث » ، « ش » ينطقان أحيانا مثل حرف « ت » كما فى كلمة « ثوم » فهذه تنطق « أتوم » Attum ، وكلمة « شاى » تنطق « أتاى » Attai

الحروف : خ ، غ ، ق تنطق مثل الحرف « ك » K أو g (hard) كما فى كلمة « القرآن » فهذه تنطق « الكران » عند الولوف و « الكرانو » عند المالنك « والكرانا » عند الديولا . و « خليل » يصبح « كاليلو » والقاضى « كالى » أو « كاتى » عند الديولا ، والقمح « يصبح » الكما Alkama و « القفطان » يصبح « الجفتان » Algaftam . وينطق حرف « ق » أحيانا مثل « ت » كما فى

كلمة « القبلة » ، فهذه تنطق « التيبلا » Al - Tyibla ، وكلمة « الغنيمة » تنطق « الجنيما » Alganima .

وينطق حرف « ج » مثل « د » كما فى كلمة « جنهم » التى صارت « ديانامان » عند البامبارا ، و « دياندامان » عند الديولا . وتنطق كلمة « الفجر » « فاديا » عند الولوف ، وكلمة « فرجية » « تنطق فرندى » Farandy ، وهكذا

وينطق الحرف « ض » مثل حرف « ل » ، كما فى كلمة « « الوضوء » عند الهوسا ، فهذه تنطق « اللوا » Allowa

وينطق الحرف « ز » مثل « د » كما فى كلمة « الميزان » ، فهذه تنطق «الميديان » Almydyan.

وحرف « ط » مثل « ت » كما فى كلمة « البطيخ » فهذه تنطق « البتا » Albata و « ينطق حرف» « ر » أحيانا مثل حرف « ل » ، كما فى كلمة « الربح » فهذه تنطق « الباها » Albaha . وأحيانا ينطق حرف «ف» مثل حرف « ب » كما فى كلمة» لفت » فهذه تنطق « لبتى » Lebti وهكذا .

والملاحظ أن فروق النطق فى الألفاظ العربية هذه ليست عامة بين جميع قبائل السودان الأوسط والغربى، فهناك اختلافات محلية ، كما هو الشأن فى الفروق المحلية القائمة فى اللغة اللاتينية فى أوربا الوسيطة ، بل فى أية لغة ، فمثلا ، بينما تنطق بعض قبائل الماندنجو حرف « ص » مثل « س » ينطق بعض قبائل الهوسا ، هذا الحرف مثل « ز » [٨٠] .

وأما طريقة الكتابة ، فهى طريقة المغاربة وأهل فاس بصفة خاصة ، يقول القلقشندى : « وكتابتهم بالخط العربى على طريقة المغاربة » [٨١] . ووضحت هذه الطريقة فى النصوص العربية المصورة والكتب المنشورة ، ومن خصائص هذه الكتابة ، أن نقطة حرف الفاء توضع أسفل الحرف هكذا « ڢ » كما يستبدل بنقطتى حرف القاف ، نقطة واحدة وتوضع فوق الحرف هكذا « ڧ » ، وهذا بجانب رسم الحروف الذى يختلف قليلا عن الرسم المعروف فى بعض مقاطعه ، ويقرب مما نعرفه بالخط الكوفى .

هذا وقد تركت اللغة العربية أثرها فى اللغات المحلية لدرجة كبيرة ، وظهر هذا الأثر واضحا فى لغة الهوسا وصنغى أكثر من غيرهما من اللغات المحلية، كما

أن أثر التعريب فى المدن الإسلامية فى واداى وبرنو وصنغى ، أوضح منه فى المدن الإسلامية الأخرى فى بلاد السودان الأوسط والغربى .

يقول ديشان Deschamps :

« لم تكتف قبائل الممالك الأفريقية بدخولها فى الإسلام ، بل طبعت بطابع عربى ، بسبب انتشار اللغة العربية فى تلك البلاد »[٨٢] . ويوجد فى لغة الهوسا كثير من الكلمات ذات الأصول العربية ، بل إن الحروف العربية استخدمت فى كتابة لغة الهوسا منذ زمن مبكر ، واحتفظت لغة الهوسا بقيمتها وأهميتها حتى اشتهرت بأنها اللغه السائده « Lingua Franca » للتجارة بين المناطق الشمالية فى غانة فى الغرب إلى الكمرون فى الشرق ، حيث صار الإلمام بها أمرا ضروريا لجميع القبائل ؛ ويقال إن للغة الهوسا أصولا ترجع إلى لغة البربر واللغة القبطية[٨٣]. كذلك تكتب اللغه الفولانية بالحروف العربية .

وإذا كانت اللغة العربية قد تركت آثارها فى لغات بلاد أوربا الجنوبية ، وحتى الشمالية ، كما فى اللغة الإيطالية والفرنسية والإسبانية والبرتغالية ، والإنجليزية ، بل إن لغة جزيرة مالطة أصولها عربية[٨٤] ، إذا كان هذا واضحا فى تلك البلاد على قصر أمد الإسلام واللغة العربية بها من الناحية الزمنية ، فلاشك أن هذا الأثر أوضح وأبرز فى اللغات الزنجية المحلية التى ظلت شعوبها متمسكة بالدين الإسلامى ومظاهر الحضارة العربية الإسلامية حتى اليوم.

ولا يزال إلى اليوم آلاف من الكلمات العربية المستخدمة فى بلاد غرب أفريقيا ، فى شتى مظاهر الحياة : فى الحياة الدينية والثقافية والاقتصادية ، وفى الحرب والسياسية ونظم الحكم ، وحتى فى أسماء النباتات والمدن والحيوان والاعلام ، وعلى سبيل المثال : نجد فى الحياة الدينية كلمات عربية مثل :

الله : صارت ياللا أو يالف عندالولوف والصنغى والفولانيين والبامبارا والديولا والصوصو والخاسونك .

الحمد لله : صارت هاند اللايا فى السنغال

إمام : اليمام أو أليمامى فى شتى بلاد غرب أفريقيا .

بيت الله : بيتل فى السنغال .

وفى مجال التعلم :

استخدمت كلمة « قرأ » « يقرأ » وما يشتق منها فى الدلالة على معنى : التعليم أو العلم وعلى معنى عالم أو أستاذ أوطالب علم أو مدرسة ، وتنطق كارا وكارها عند المـــاندنج وكارادا عند المالنك وكارانى عند الديولا .

وفى أسماء الأعلام :

النبي محمد : أمادو أو دودو

أحمد : أمادو

محمود : مامودو

محمد : مامادو

الأمين : لامين

الحسين : أوسينو

أبو بكر : بوكار أو بوبكر أو باكارو

ابراهيم : براهيما أو بوهاريما

عائشة : إيساتو

حفصة : أفسا

فاطمة : فاتيماتو أو فاتيماتا أو فاتو

بنت : منت وهكذا

ومن أسماء المدن ، نجد أن كثيرا من أسماء المدن العربية الإسلامية قد أطلق على مدن فى غربى أفريقية ، مثل : مصر صارت « ماسيرا » فى غينية ، والطائف صارت « تايفا » فى غينية ، والقيروان أصبحت كيروان فى السنغال . وهكذا (٨٥).

ويقترن العهد الزاهر للغة العربية والعلوم العربية الإسلامية فى غربى افريقية بعهود الإمبراطوريات الأفريقية ، فقد كانت اللغة العربية هى اللغة الرسمية السائدة واستخدمت فى شتى الأغراض وأوفت بها .

كذلك استخدمت اللغة العربية في مجال الحكم والإدارة والقضاء ، ثم هى لغة المكاتبات الرسمية بين هذه الدول وبين العالم الإسلامى الخارجى ، ووجد فى الدواوين المصر يةزمن المماليك صيغ عربية خاصة لمخاطبة ملوك تلك البلاد .

فمثلا كانت افتتاحيات المكاتبة لملك التكرور ، وهو صاحب مالى وكذلك للمايات فى برنو على نسق واحد :

« أدام الله نصر المقر العالى ، السلطان الكبير العالم المجاهد المؤيد الأوحد عز الإسلام شرف ملوك الأنام سيف الخلافة ظهير الإمامة » . (٨٦) ومن هذه التعبيرات تتضح مدى الرابطة والعلاقة ، فضلا عن تعمق العقيدة الإسلامية فى بلاد غربى أفريقيا .

وبالمثل كانت المكاتبات الصادرة من ملوك نجرتيا باللغة العربية ، وتدلنا على مدى تقدم الأسلوب العربى . فمثلا جاء فى الرسالة التى بعث بها الماى عثمان ملك برنو (ت ١٤٢٥) ، إلى برقوق سلطان المماليك فى مصر ، يشكو فيها من اعتداءات قبيلة جذام العربية :

بعد البسملة والتصلية والحمد لله . . .

«من المتوكل على الله تعالى الملك الأجل سيف الإسلام وربيع الأيتام الملك المقدام المستنصر بالله . . . الملك الغشمشم (من الجرأة والشجاعة) إلى ملك المصر الجليل أرض الله المباركة ، أم الدنيا ، سلام عليكم أعطر من المسك الأذفر وأعذب من ماء الغمام واليم ... » (٨٧) . ثم إن القوانين والمراسيم التى تصدرها الحكومة الإسلامية فى نجرتيا لرعاياها ، كانت كلها تصدر باللغة العربية ، كدعوة لبعض الرعايا للانخراط فى الجيش ، بصدد حرب ، أو مراسيم لتعيين القضاء والأئمة والعلماء فى مناصبهم ، وهناك مرسوم بشأن دخول الإسلام أصدره الملك أوم (١٠٨٦) فى برنو ، وهكذا .

وحتى فى المراسلات الخاصة الداخلية ، فمثلا كتب أحمدو (أو أمادو) وهو ابن الحاج عمر التكرورى سلطان سوكوتو (فى القرن ١٩) رسالة إلى صديق يعزيه فى وفاة ولده ، وهذه مصورة فى كتاب أبطال السودان : Pioniersde Soudan ، ويتضح فى هذه الرسالة مدى قوة الأسلوب العربى وبلاغته ، ومما جاء فيها بعد البسملة :

« عبد ربه الحق البر أمير المؤمنين أحمد بن عمر بن سعيد أسعدهم الله فى الدارين، منا إلى محبنا وخاصة الخاصة من أصحاب أبى بكر بن الحاج محمود، سلام عليكم ورحمة الله وبركاته، موجبه أنا قد سمعنا بوفاة ثمرة فؤادك ومهجة قلبك الكبير ،فاسترجعنا وفزعنا إلى الله تعالى ودعوناه باسمه القريب المجيب أن يتلقاه بفضله ورحمته .. فاذا أتاك كتابنا هذا فاعلم بأن له ما أخذ وله ما أعطى .. فاذا فهمت ذلك فاعلم بأن الرجل إنما يبتلى على قدر دينه» (٨٨) .

وكذلك فى شواهد القبور ، كانت اللغة العربية هى السائدة ، وقد عثر على عدد كبير من المقابر فى أطلال مدينة كومبى صالح عاصمة إمبراطورية غانة الإسلامية ، منها : شاهد قبر لسيدة مكتوب عليه :

« اللهم ارحم فاطمة الطاهرة بنت سيدنا محمد ابن سيد موسى » ، كما عثر فى مدينة سانى (١٩٣٩ م) قرب جاو عاصمة إمبراطورية صنغى ، على عدد من شواهد القبور الملكية يرجع تاريخها إلى النصف الأول من القرن الثانى عشر الميلادى (٨٩) .

وفى مجال التعليم والحركة التلمية ، وهو أخصب الميادين إنتاجا فى المكتبة العربية ، كان أساس التعليم العربى الإسلامى حفظ القرآن وتفسيره ودراسة اللغة العربية والعلوم الإسلامية . وأشهر مراكز الدراسات العربية الإسلامية تمبكتو زمن مالى وصنغى وبها جامعة سنكرى ، وجنى وجاو ووالاتة ونيمه وكومبى صالح وسوكوتو وكانو وكاتسنا ودوارو وزاغه وكابرا وغيرها .

ومن الكتب التى اشتهرت عندهم فى التفسير : تفسير الجلالين، ربما لاختصاره وللمكانة المرموقة التى احتلها أحد الجلالين فى نجرتيا وهو عبد الرحمن أبو بكر السيوطى (ت ٩١١ هـ – ١٥٠٥ م) ، حتى قيل إن أمير المؤمنين أسكيا الحاج سلطان صنغى (ت ١٥٢٩) كان كثير التشاور مع السيوطى فى مصر وكان قد التقى به فى مصر خلال حجه ، كذلك لابد من دراسة السيرة النبوية ، ولمن يريد أن يكون معلما ، عليه أن يلم بالتاريخ الإسلامى العام بجانب بعض الدراسات اللغوية والأدبية من شعر ونثر ، ومن الكتب الأدبية التى أقبلوا عليها : مقامات

الحريرى ، كذلك درّست ، ودرست أمهات الكتب فى العلوم الإسلامية المختلفة وضمتها مكتباتهم ، كما كانت فى تمبكتو سوق رائجة للكتب، ومن هذه المصنفات على سبيل المثال :

أصول السبكى – الفية العراقى – صحيح البخارى – صحيح مسلم – مدخل ابن الحاج – الخزرجية فى العروض – مختصر خليل – الموطأ – شفاء عياض [٩٠] .

وقد شجع الملوك على تعلم العربية والعلوم الإسلامية ، ومن الملوك من أجاد العربية وكان من العلماء فضلا عن الجانب السياسى مثل كنكن موسى (ت ١٣٣٧ م) وأسكيا داوود (ت ٩٩١ هـ – ١٥٨٣) آخر ملوك صنغى إذ كان حافظا للقرآن وله خزائن كتب ونساخ ينسخون ،وكان يهدى العلماء من خزائنه، واشترى نسخة من القاموس فى تبنكت بثمانين مثقالا من الذهب وأعطاها إلى الفع محمود كعت صاحب كتاب الفتاش

أما التراث العربى الذى كتبه وصنفه العلماء والملوك الإفريقيون فى غربى أفرقيا، فقد غطى فنون المعرفة المختلفة : من تاريخ وآداب إلى علوم لغوية وفقهية وحديث، وهذه تعد بالآلاف إن لم يكن بعشرات الألوف، غير أن الذى وصلنا منه قليل ، وهذا القدر على قلته يعد بالمئات إن لم يكن بالألوف ، ولا يزال بحاجة إلى بحث وتحقيق ونشر .

تعرض هذا التراث العربى الأفريقى الضخم إلى أكثر من كارثة ، فخلال حركة القضاء على تجارة الرق من القرن ١٧ إلى ١٩ ،دمر الكثير من هذا التراث العربى وما أفلت منه تعرض لحركة تدمير أخرى ، ولكنها جزئية ، والمسئول عنها بعض الأفريقيين ، إذ أدى الغزو الفولانى لبلاد الهوسا زمن السلطان محمد بللو بن عثمان دان فردى (القرن ١٩) إلى تدمير معظم وثائق ومؤلفات دول الهوسا ، وسرعان ما أدرك السلطان بللو قيمة هذه الوثائق والمؤلفات ،فأقبل على دراسة ما بقى منها واعتمد عليها فى إصدار كتاب عن تاريخ الهوسا من وجهة نظر الفولانيين . أما الكارثة الثالثة التى حلت بالمخطوطات العربية فى تلك البقعة من أفريقية ، فجاءت

خلال حركات الكفاح للتحرر الوطنى ضد الإستعمار الأوربى ، وهو الإستعمار الذى دمر المدن الإسلاميةالزاهرة فى غربى أفريقيا .

وقد عثر على الكثير من القلة التى نجت من التدمير من المخطوطات العربية ، منها ما عثر عليه الرحالة الألمانى بارث Barth خلال رحلته (١٨٤٩ — ١٨٥٥)، فقد عثر على مخطوطة فى برنوبها أسماء ملوك برنو القدماء ومخطوطة بها أسماء ملوك كاتسنا من الهوسا ، كما عثر على كتاب تاريخ السودان لعبد الرحمن السعدى المتوفى بعد عام ١٦٥٥ م ، كذلك عثر على مخطوطة عربية عن تاريخ مملكة صنغى وأخرى عن تاريخ برنو وغيرها عن تاريخ كانو من دول الهوسا ،وقد نشرها [٩١]

وجمع الدكتور ولموت بليدن W. Blyden المسيحى الليبيرى عدداً من المخطوطات العربية خلال رحلته التى بدأها عام ١٨٥٦ وسافر فيها إلى الشرق لإتقان اللغة العربية ، وعلق على ما عثر عليه فى بلاده بأن المخطوطات التى وجدها ببلاد الماندنجو أحسن خطاً وموضوعاً من تلك التى رآها فى منطقة غمبيا [٩٢] .

وعثرت شركة النيجر الإنجليزية على مخطوطة عربية فى كانو (من دول الهوسا)، وترجمت إلى الإنجليزية ترجمة رديئة وبها عهود ٤٢ ملكا من ملوك كانو فى إيجاز ، وإلى هذه الشركة يرجع الدور الأكبر الذى أدى إلى امتداد الإستعمار الإنجليزى إلى إمارات الفولانيين الإسلامية فى حوض النيجر [٩٣] .

وعثر روبنسون الإنجليزى Robinson على مخطوطة عربية فى زاريا من بلاد الهوسا ، وله كتاب عن آداب الهوسا أصدره عام ١٨٩٦ وضمنه أشعاراً لعثمان دان فودى الفولانى .

وقد جمع الفرنسيون عدداً كبيراً من المخطوطات العربية ونقلوها إلى فرنسا وإلى داكار عاصمة السنغال ، ويوجد بقسم الوثائق بجامعة داكار عدد كبير من المخطوطات العربية يربو عددها على ٤٠٠ [٩٤] .

وترجم عدد كبير من هذه المخطوطات العربية إلى اللغات الأوربية المختلفة ولا سيما الفرنسية والإنجليزية ، ترجمها الكتاب والضباط والمكتشفون والحكام ، من هـذه الترجمات ما قام به سير رتشموند بالمر palmer حاكم نيجريا

زمن الإستعمار، إذ ترجم فى كتابه المعروف باسم Sudanese Memoirs ، ويتكون من ثلاثة أجزاء : ٢٢ مخطوطة عربية، نشره فى لاجوس عام ١٩٢٨ ، وتتعلق هذه المخطوطات بتاريخ السودان الأوسط والغربى منها : حروب كانم لأحمد بن فرتوا مؤرخ بلاط برنو وأنساب البولالا وأخبار الصو ودخول الإسلام فى برنو وتواريخ دول الهوسا مثل كاتسنا وكانو ودوارو الخ .

وفى كتابه المعروف باسم The Bornu Sahara & Sudan الذى نشره فى لاجوس عام ١٩٣٦ ، ترجم كثيراً من المخطوطات العربية ملخصة منها (ديوان مايات برنو) وبعض المراسيم العربية التى كان يصدرها المايات ومعاهدات بين برنو وسلطنة أهير البربرية الخ ...

كذلك ترجم دولا فوس الفرنسى Delafosse عدداً من المخطوطات ، منها تاريخ مملكة واجادوا (ضمن غانة) والصراع بين الصوصو والمندنجو وتاريخ مملكة البامبارا وتاريخ عمر التكرورى وابنه أمادو ، وجاءت ترجماته وتعليقاته وبحوثه مرجعاً هاماً لمن نقلوا عنه أمثال مونتى Monteil ولابورى Labouret الفرنسيان وغيرهما ، ومن أمثال قادة الفكر العربى الإسلامى من الوطنيين الأفريقيين ، وما خلفوا للمكتبة العربية : الفع محمود كعت الوعكرى (فى أعالى النيجر) وهو معاصر لأسكيا الحاج أعظم ملوك صنغى وكتابه (تاريخ الفتاش فى أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس وذكر وقائع التكرور وعظائم الامرو وتفريق أنساب العبيدمنالأحرار) ويتضن وصفاً دقيقاً لأمبراطورية صنغى زمن الأساكى،وأكمله حفيده إلى عام ١٦٠٠ وقام غيره بالتذييل عليه إلى عام ١٦٦٠ م ، نشره هوداس ودولافوس عام ١٩١٣ م وترجماه إلى الفرنيسة .

ومن علماء القرن ١٧ ،عبد الرحمن السعدى صاحب كتاب تاريخ السودان، وهو من أسرة سودانية أرستقراطية توفى بعد عام ١٦٥٥م وفصل فى حوادث الفتح المراكشى لصنغى كما ترجم لسلاطين صنغى وباشوات السودان .

وفى القرن التاسع عشر نجد مثلا : عثمان دان فودبى الفولانى (ت ١٨١٧)،

ومن مؤلفاته : القول المختصر فى لمهدى المنتظر — وثيقة أهل السودان ومن شاء من الإخوان (وقد عثر عليهما بالمر) .

السلطان محمد بللو بن عثمان دان فردى الفولانى الأديب الشاعر ،ومن مؤلفاته الإعلام فما يجب علىالإمام — إنفاق الميسور فى التاريخ ، والأخير ترجم منه بالمر كثيراً من النصوص .

الحاج عمر التكرورى (١٨٣٣) سلطان التكارره ويسمى نفسه : « قطب الأقطاب وخاتم الأليا‌ء » ، ومن مؤلفاته : رماح حزب الشيطان وقصيدة فى مدح السيد محمد أمين الكانمى ، وكان شعر الحاج عمر يتغنى به من فوتا فى سيراليون إلى كانو فى بلاد الهوسا .

أحمدو أو أمادوبن الحاج عمر (أشرت إلى رسالته كنموذج للأسلوب العربى راجع صحياه ٧٥ فيما سبق) .

الشيخ محمد أمين الكانمى (١٨٣٥) فى كانم وبرنو ، من تراثه : قصيدة فى نصيحة الحكام .

يوسف بن عبد القادر من برنو (ت ١٨٥٠) له منظومة فى قواعد الإعراب وقصيدة فى مدح النبى .

ومن علماء القرن العشرين : موسى كمارا من السنغال (ت ١٩٣٠ م) ومن مؤلفاته : زهور البساتين فى تاريخ السوادين ، وغير هؤلاء كثير لم يحصروا بعد ولن يحصوا عدداً . يتضح مما سبق أن اللغة العربية كانت اللغة الدولية فى العصور الوسطى فى جميع البلاد الإسلامية ، فهى لغة الدين والثقافة والتجار ةثم هى لغة الحكومة والإدارة والقضاء ، كما أصبحت لغة تخاطب فى كثير من بلاد نجرتيا مع وجود اللغات المحلية . ثم هى من بعد لغة المراسلات الدولية والوثائق والمعاهدات .

واللغة العربية بهذا الوضع ، نهضت بالدور الذى نهضت به اللغة اللاتينية فى أوربا الوسيطة ،فقد كانت اللاتينية لغة الإتصال والتفاهم بين الدول الأوربية ثم هى لغة الحكومة والإدارة والكنيسة ورجال الدين ، وكذلك فى القضاء ، وهى لغة التعليم المشتركة فى شتى بقاع أوربا ، ولذلك لم تكن هناك عراقيل دون تنقلات الأساتذة والطلاب بين جامعات أوربا الناشئة أو بين المدارس الديرية أوالكتدرائيه، فمثلا لم

تكن هناك عقبة لغوية يوم انسلخت جامعة أكسفورد عن جامعة باريس أم جامعات الشمال فى القرن الثانى عشر الميلادى . وحين نبتت جامعة كمبردج من كسفورد .

وكما أن اللغة العربية لم تقض على اللغات المحلية فى غربى أفريقيا وإنما أثرت فيها أثراً كبيراً ، كذلك لم تقض اللغة اللاتينية على اللغات الجرمانية أو النورمانية فى أوربا ، فكان الجرمان أو النورمان يتخاطبون فيما بينهم بلغاتهم الخاصة : الفرنسية أو السكسونية أو القوطية أو الوندالية أو البرجندية أو النورمانية أو غيرها . ولكن العبادة والإدارة والثقافة والقانون والآداب . فكانت جميعها باللاتينية ، فمثلا من القوانين الجرمانية المكتوبة باللغة اللاتينية : قانون الفرنجة البحريين Lex Salica وقانون الفرنجة البريين Lex Ripuaria والقانون السكسونى Lex Saxonum ، وكذلك القانون اللومباردى والقانون النورمانى فى إنجلترا وصقلية ؛ ورغم أن القوط كانت لهم من دون سائر القبائل الجرمانية لغة مكتوبة وأبجدية قوطية معروفة وأن الإنجيل ترجم إلى اللغة القوطية (فى القرن الرابع الميلادى) ، فانهم استخدموا اللغة اللاتينية حتى فى ألقاب الملوك ؛ وكما أجاد الكثير من أمراء وسادات غربى أفريقيا المسلمين اللغة العربية فضلا عن العلوم الإسلامية العربية ، كذلك كان الشأن بالنسبة لسادة الجرمان أمثال سيسبوت القوطى فى القرن الرابع الميلادى ، وشارلمان الفرنجى فى القرن التاسع الميلادى ، علماً بأن الأول كان مجودا فى اللاتينية الكلاسيكية ووضع كتاباً عن سيرة القديس ديدئى Didier أسقف فينا ، وأن الثانى كان أمياً (٩٥) .

أما وجه التفوق الذى ظفرت به اللغة العربية على قرينتها اللاتينية ، فينحصر فى أن الأولى اكتسبت صفة القداسة فى غربى أفريقيا لأنها لغة القرآن والصلاة والعلوم الإسلامية ؛ فمثلا نشر كراوثر Crowther أسقف النيجر رسالة فى عام ١٨٧٠ فى مجلة Christian Observer ، بصدد الإذن الذى ظفر به من أحد الملوك فى منطقة النيجر للسماح بقيام بعثة تبشيرية للعمل فى بلاده ، وذكر فى هذه الرسالة أن الإذن الملكى بعد أن سجل بالإنجليزية تناوله السلطان وسلمه إلى أحد علمائه لترجمته إلى اللغة العربية (٩٦) .

وأما اللاتينية فلم تكتسب مكانتها المرموقة إلا لأنها لغة الحضارة الرومانية العريقة على حين أن لغة العقيدة المسيحية الأصلية لغة سامية (٩٧) .

ومما زاد فى مكانة اللغة العربية وتفوقها على اللاتينية، أن القرآن والعلوم الإسلامية فضلا عن الصلاة ، ظلت تتلى باللغة العربية حتى العصر الحاضر رغم طغيان لغة المستعمر فى غربى أفريقيا على ما عداها من اللغات، فمثلا لا تزال المدارس الإسلامية، وهى التى وصفها الفرنسيون بالمدارس القرآنية ، تدرس باللغة العربية فى السنغال وغينيا وسيرالون وليبريا وساحل العاج وغانة وفولتا العليا وداهومى ونيجريا وجمهوريتى النيجر وتشاد فضلا عن مالى الإسلامية .

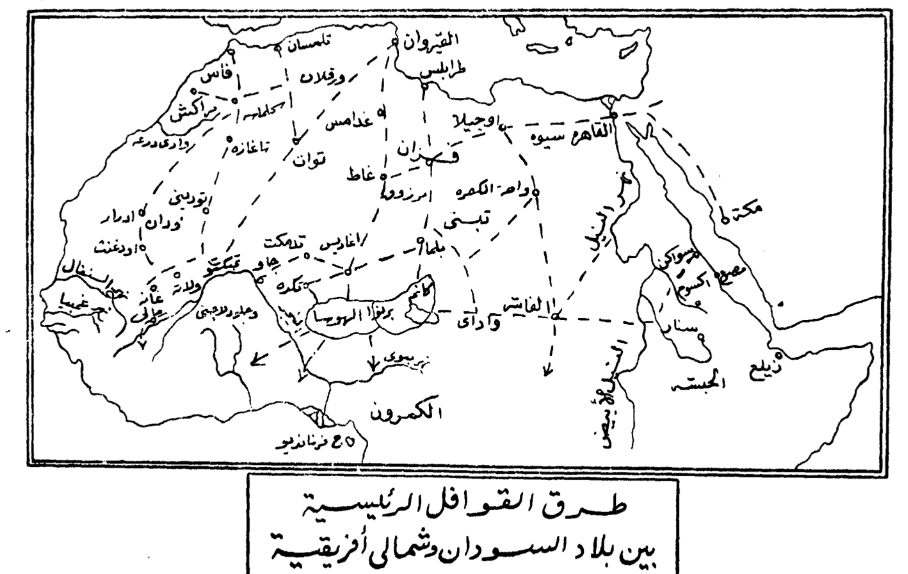
على أن هذا الوضع ليس قاصراً على بلاد غربى أفريقيا، بل هو القائم فعلا حتى اليوم بين جميع المسلمين من شتى الأجناس فى مختلف بقاع العالم مهما اختلفت لغاتهم المحلية ، فلا يزال القرآن يتلى باللغة العربية ولا زالت الصلاة تؤدى بالعربية من أندونيسيا والفلبين فى أقصى الشرق إلى مسلمى الأمريكتين فى أقصى الغرب .

ومن أجل هذا ، يرى بعض المثقفين من المسيحيين الأفريقيين فى القرن التاسع عشر ، أن ترجمة القرآن إلى اللغات الأخرى ،سوف تفقده جمال الأسلوب العربى وعذوبته وفخامته وإعجازه اللغوى ، ولعل هذا هو الذى حمل أئمة الإسلام فى العصر الحاضر على قصر الترجمة على معانيه . وليست على ألفاظه .

وأما اللغة اللاتينية فهى دخيلة على لغة العقيدة المسيحية الأصلية ، بل إن العقيدة المسيحية كانت تمارس بالأغريقية واللاتينية زمن ازدهار اللغة اللاتينية، أى أن العقيدة المسيحية تؤدى بغير لغتها الأصلية ، وسرعان ما فقدت اللاتينية مكانتها بل ووجودها أمام ظهور اللغات القومية الأوربية الحديثة منذ القرن الثالث عشر الميلادى تقريباً، فقد حلت هذه اللغات محل اللاتينية فى شئون العبادة والثقافة والحكومة وجميع مظاهر الحياة وأصبحت اللاتينية اليوم فى عداد اللغات الميته ، مما لم يحدث للعربية .

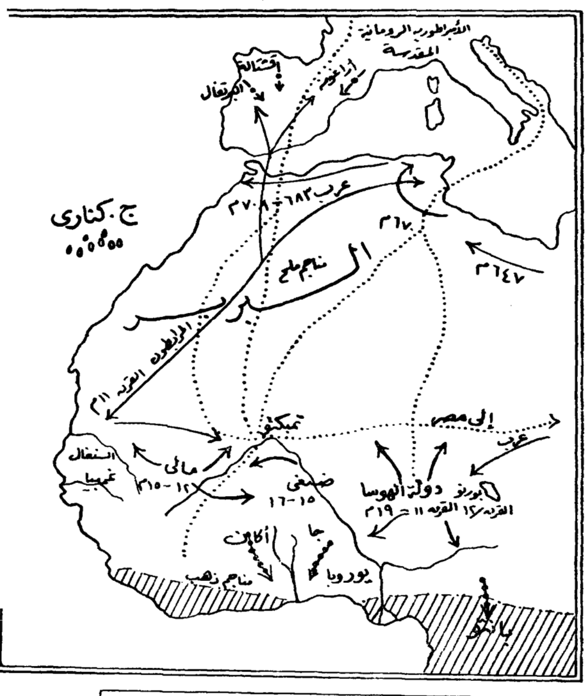
وأخيراً إن المساحة المكانية التى سادت فيها اللغة العربية وحضارتها ، تفوق تلك التى سادتها الحضارة اللاتينية رغم انبساط السيادة الرومانية عليها لبضعة قرون ، فمثلا لم تشمل الحضارة اللاتينية بلغتها جميع أجزاء غاله الرومانية ، بل لم تمس الحضارة اللاتينية بريطانيا الرومانية إلا مساً خفيفاً عابراً رغم سيادة الرومان السياسية فى بريطانيا مدة لا تقل عن أربعة قرون .

خريطة رقم ١



طرق القوافل الرئيسية
بين بلاد السودان وشمالى أفريقية

خريطة رقم ٢

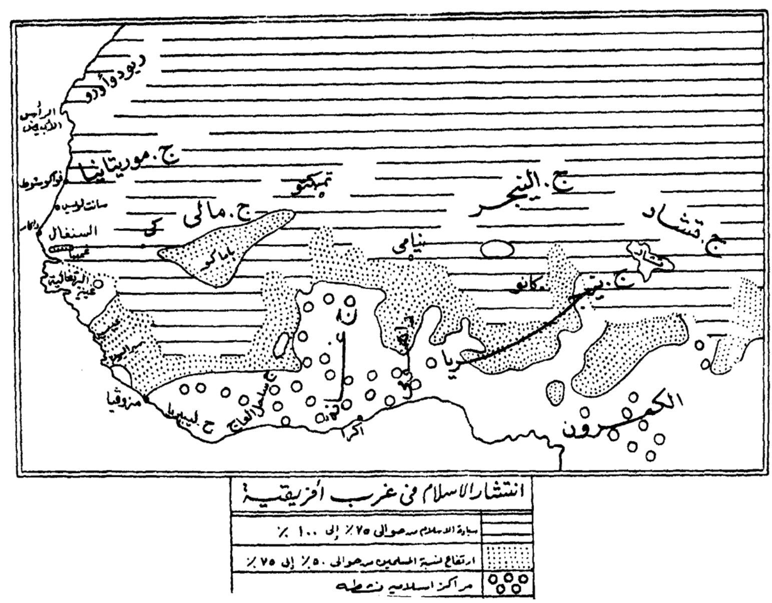


حركة الدعوة الاسلامية منذ القرن السابع الى القرن التاسع عشر	
اتجاهات حركة الدعوة الاسلامية	⟶
حركات مسيحية مضادة (ارغونة ـ قشتالة ـ البرتغال)	—•—→
تحركات الوثنيين (بانتو ـ جا ـ أكان)	••••••→
قوافل	====→
غابات استوائية	//////

خريطة رقم ٣

═══	السوننك
·····	الديولا (من مجموعة الماندنج)
▭▭▭	الجلف
‒ ‒ ‒	الفولانيون

خريطة رقم ٤


ريودواورو
الرأس الأبيض
ج. موريتانيا
نواكشوط
سانت لويس
داكار
السنغال
غمبيا
غينيا البرتغالية
ج. مالي
باماكو
تمبكتو
ج. النيجر
نيامي
ج. تشاد
كانو
ج. نيجيريا
الكمرون
ج. ليبيريا
منروفيا
ساحل العاج
أكرا
انتشار الاسلام في غرب أفريقية
سيادة الاسلام بحوالى ٧٥٪ إلى ١٠٠٪
ارتفاع نسبة المسلمين بحوالى ٥٠٪ إلى ٧٥٪
مراكز اسلامية نشطة

الحواشي والمراجع

(١) يوسف كرم : تاريخ الفلسفة الاوربية فى العصر الوسيط (مصر ١٩٤٦) ص ١٢٠ – ١٢٣ .

(٢) المرجع السابق ص ١٢٧ – ١٢٩ .

(٣) محمد سعيد اسماعيل : المسلمون فى الاتحاد السوفيتى والصين الشعبية (مصر ١٣٨٠ هـ ، ١٩٦٠ م) جـ ١ ص ١٠ – ١٢ .

(٤) ابو الفدا (اسماعيل صاحب حماه ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣٢ م) : كتاب تقويم البلدان (ترجمه ونشره ش . سولفى Ch. Solvet الجزائر ١٨٣٩) ص ١٥١ – ١٥٤ ؛ الغرناطى (ابو حامد محمد بن عبد الرحيم الاندلسى ت ١١٧٠ م) – نشره ج. فرار G. Ferrard – باريس ١٩٢٥) ص ٤١ ؛ انظر كذلك :

Dudly Stamp Africa, A Study in Tropical Development, (Lond., 1952), p. 220; Pedler, F.J., West Africa (Straid. Eng., 1959), p. 14

(٥) De La Roncier, Ch., La Découverte de l'Afrique au Moyen. Age (Le Caire, 1925), T.I p. 72; T. II, p. 125; Okafor. A., Hist. of West Africa (In the New West Africa, Lond., 1953), p.24; Blyden, W., christianity, Islam and the Negro Race (Lond., 1881), P. 350; Johnston , H.H., A Hist of the Colonization of Africa by Allien Races, Cambr. 1913, p. 49; Church, R. J. H. West Africa, Lond., 1961, pp. XXIII-XXIV

(٦) Goiully, A., L'Ilslam Dans L'Afrique Occidentale Française, Paris, 1952., p.45.

(٧) Davidson, B.' Old Afria Rediscovered, Lond., 1959 p. 91; Bovill, E.W., The Golden Trade of the Moos, Lond., 1961, pp. 42, 52-54; Hogben, S.T., The Muhammadan Emirates of Nigeria, Lond., 1930, pp. 4, 26, Shinnie. M. Ancient African Kingdoms, Lond., 1965, pp. 66-68; L. lugard, F.L. Shaw, A Ttopical Dependency, Lond.' 1905, pp. 86-88; Johnston, op. cit. p.48; Hodgkin,I T, Islam & National Movement in West Africa. (The Third Conference on African Hist. & Archeology, Lond., 1961); Ado Boahen, (Univ. Coll. of Ghana. (The Carrvan Trade in th the 19 thCentury (The Third Conference ..., Lond., 1961); Ivor Wilks (univ. Coll of Ghana), A Medieval Trade Route from the Niger to the Gulf of Guinea (the Third Conference ..., Lond; 1961).

(٨) ديشان (Deschamps) : الديانات فى افريقيا السوداء (ترجمة احمد صادق حمدى – مصر ١٩٥٦) ص ١٣٢ .

(٩) Gouilly, Op. cit., p. 45; L. lugard, op. cit., p.262; Blyden, op. cit., p. 5.350 ; Wiedner, D.L., A Hist. of the Gold Coast, Lond, 1948, p. 27.

(١٠) البكرى (أبو عبد الله بن عبد العزيز ت ١٠٩٤ م) المغرب فى ذكرى بلاد افريقيا والمغرب (وهو جزء من كتاب المسالك والممالك) ــ نشر راندون Randon ــ الجزائر ١٨٥٧ ص ١٧٤ ــ ١٧٥ .

(١١) المصدر السابق ص ١٧٩ .

(١٢) Gouilly, op. cit. p. 46; L. lugard, op. cit. pp. 83.-43

(١٣) القلقشندى (ابو العباس أحمد بن على ت ٨٢١ هـ/١٤١٨ م) صبح الأعشى فى صناعة الانشا (طبعة دار الكتب المصرية) جـ ٥ ص ٢٨٤ .

(١٤) De La Roncière, op. cit., T. I. , p. 103.

(١٥) Palmer, R. The Bornu Sahara & Sudan, Lond., 1936, pp. 6-7, 149.

(١٦) ياقوت (أبو عبد الله ياقوت الحموى الرومى ت ١٢٢٩ م) . معجم البلدان (مصر ١٩٠٦) جـ ٧ ص ٢١٠ .

(١٧) Fage, J. An Introduction to the Hist, of West Africa. Cambr. 1959, p. 21.

(١٨) البكرى ص ١٥٩ .

(١٩) ابن حوقل (أبو القاسم النصيبى ت ٩٦٨ م) .
كتاب صورة الأرض (ليدن ١٩٣٨) ــ القسم الأول ص ٩٨ ــ ١٠١ .
البكرى ص ١١٩ ، تقويم البلدان ص ٢٧٢ ، Bovill, op. cit pp. 69-70; L. lugard, op. cit., p. 90; Cooley, W.D., The Negroland of the Arabs, Lond. 1941 pp, S. 5, 47.

(٢٠) L. lugard, op. cit., p. 107.

(٢١) البكرى ص ١٥٩ ، L. lugard, op. cit., p. 92 ;

(٢٢) Bovill, op. cit., p. 101; Fage, op. cit. p. 27 ; Le Chatelier, A. L'Islam Dans L'Afrique Occidentale, Paris. 1943, p. 128;
السعدى (عبد الرحمن بن عبد الله بن عمران توفى بعد عام ١٦٥٥ م) .
تاريخ السودان ــ حققه ونشره هوداس وبنوا Houdas & Benoist
باريس ١٨٩٨ ، ص ٢ ــ ٤ .

(٢٣) Bovill, op. cit. p. 100.

(٢٤) البكرى ص ١٧٢ ؛ الادريسى (أبو عبد الله محمد بن الشريف الادريسى ، ولد فى سوتا عام ١١٠٠ م) .
كتاب نزهة المشتاق فى ذكر الأمصار والأقطار والبلدان والجزر والمداين والآفاق (طبعة حجر) .
قطعة منه : صفة المغرب وارض السودان ومصر والأندلس ــ (ليدن ١٨٦٦) = ص ٣ ، Fage, op. cit., p. 147 Le Chatelier, op. cit., p. 80; Cooley, op. cit.p. 79.

(٢٥) الترجمة العربية كنبر عن السعدى ص ١٢ — ١٣ ،

Marty, p. Etudes sur L'Islam et les Tribus du Soudan‘ Paris, 1920, pp. 136-137.

(٢٦) جنكى بمعنى حاكم جنى .

(٢٧) السـعدى ص ١٣ .

(٢٨) Blyden, op. cit. pp. 6, 23; Hogben op. cit., p. 25; Thomps on, V. & Adloff, R. French West Africa, Lond., 1958; p. 571; Fage, An Atlas of African Hist., Cambr., 1958 pp. 17-18.

(٢٩) Bovill, op. cit., p.102; Hogben, p. 5; L. lugard, pp. 83-84.

(٣٠) الاصطخرى (أبو اسـحاق ابراهيم بن محمـد الفارسى الاصـطخرى المعروف بالكرخى — توفى فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى) .
المسـالك والممـالك — تحقيـق جابر الحسـينى — مصر ١٣٨١ هـ / ١٩٦١ م ص ٣٤ — ٣٥ .

(٣١) عن تاريخ المرابطين وحركتهم ، راجع : أبو العباس الناصرى : الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى — الدار البيضاء ١٩٥٤ . جـ ٢ ص ٢٠ — ٢١ ، ابن الخطيب (أبو عبد الله محمد بن عبد الله ت ٧٦٦ هـ) : الحلل الموشـية فى ذكر الأخبار المراكشية — تونس ١٣٢٧ هـ . ص ٦ — ١١ ؛

De La Roncière, I, pp. 84, 86, 134; Bovill, pp. 84-85 ; L. lugard, p 92; Fage, An Introuction ..., p. 22; Shinnie, p. 50; De Pedrals, D.P., Manuel Scientifique de l'Afrique Noire, Paris, 1949, p. 147; Largeau, V. Le Sahara Algerienne, Paris, 1881, pp. 109-123; Rinn, L. Marabouts et Khouan, Alger, 1884, p. 14.

(٣٢) De la Roncière, I, p. 103.

(٣٣) Trimingham, J.S., Islam in West Africa, Oxf., 1959, pp. 13-14.

(٣٤) السعدى ص ٧٤ ، كعت (محمود كعت بن الحاج المتوكل كعت الكرمنى دارا التنبكتى مسكنا الوعكرى أصلا) .

تاريخ الفتاش فى أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس وذكر وقائع التكرور وعظائم الأمور وتفريق أنساب العبيد من الأحرار .(بدأ تأليفه عام ٩٢٥ هـ/١٥١٩م) نشره دلافوس وهوداس Delafosee and Houdas، باريس ١٩١٣ . ص ٤٥—٤٦ نزهة المشـتاق ص ٦ ، صـبح الأعشى جـ ٥ ص ٢٩٣ ، ابن الورى (زين الدين أبو حفص عمر ت ٧٤٩ هـ ١٣٤٨ م : تاريخه —نشره : س . هيلاندر S. Hylander لندن ١٨٢٣ ، ص ١٦٠ ،) .

Le Chatelier‘ p. 120; Trimingham, op. cit. p. 15; Gouilly, pp. 48-55; Marty, p. Etudes Sur L'Islam et les Tribus Maures, Paris, 1921, pp. 1-3; Hoghen, pp. 28-29, 53 ; Davidson, p. 88; Bovill, p. 86, L. iugard, pp. 99, 110; Oliver R., and Fage, J., Ashort Hist. of Africa, Lond., 1962, pp. 11-15 Delafosse, M., Traditions Historiques et Légendaires du Soudan Occidentale, Paris, 1913, pp. 6-18;

(٣٥) Runciman, S., A Hist. of the crusades, cambr., 1954, Vol. II, pp. 156-158; La Monte, J. L., Feudal Monarchy in the Latin Kingdom of Jerusalem, cambr Mass., 1932, pp. 29, 215-225; Richard, J., Le Royaume Latin du Jerusalem, Paris, 1953, pp. 104-112.

(٣٦) البكرى ص ١٧٨ .

(٣٧) البكرى ص ٧٨ ، راجع : Gouily, op. cit. pp. 54-56

(٣٨) الفتاش ص ١٢ ، ١٦ — ١٧ ، ٥٣ ، ٦٨ ، ٧٦ ، السعدى ص ٧٣ : ٧٧ — ٧٨ ، L. lugard, p. 194; Davidson, pp. 97-98; Gouilly, pp. 47, 57-65; Murdock, G. P. Africa, Its Peoples & cultural Hist., N. York, 1959, p. 139.

(٣٩) L. lugard, p. 269

(٤٠) Palmer, op. cit. pp. 6-7, 14-15

(٤١) دولة البرنو الاسلامية للمؤلف (فى المطبعة) Palmer, p. 189;

(٤٢) Barth, H., Travels & Discoveries in North & Central Africa, Lond., 1875, Vol. II, p. 636; Palmer, p. 189.

(٤٣) Le Chatelier, pp. 107-120; Bovill, pp. 224-232; Trimingham, p. 11; Goudly, pp. 66-76, 86 ; Barth, II, 6. 636; Fage, an Introduction ... pp. 35, 46 ; Marty, Etudes Sur, L'Islam et les Tribus du Soudan, pp. 177-220; Burns, A., History of Nigeria, Lond., 1955, pp. 23-50; Urvoy, Y., Petit Atlas, Ethno-Demographique du Soudan, Paris, 1942, p. 29; Mèlanges Ethnologiques, Dakar, 1953, p.115;

(٤٤) ديشان ص ١٢٦ — ١٢٧ ، دولة مالى الاسلامية فى العصور الوسطى للمؤلف (فى المطبعة) ، Church, pp. 238, 295;
Fage, op. cit., p. 148, 150; Hogben, p. 64; Rouch, J., les songhay, Paris, 1954, p. 11; Fyfe, C., A Hist. cf Siera Leone, Oxf., 1962, pp. 5-6; Labouret, H., Mali (Encycl. of Islam), Vol. III, p. 242.

(٤٥) ديشان ص ١٣١ ، ١٥٢ — ١٥٣ .

(٤٦) ديشان ص ١٥٢ — ١٥٣ .

(٤٧) المقريزى (تقى الدين احمد بن على ت ٨٤٥ هـ/١٤٤١ م) .
الخطط جـ ٢ ص ٣٦٥ ، العمرى (شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله ت ٧٤٩ هـ / ١٣٤٨ م) : مسالك الابصار فى ممالك الأمصار — مخطوط ، حـ٢ق٣) ورقه ٤٩٠ — ٤٩٢ ، صبح الأعشى جـ ٥ ص ٢٨٠ — ٢٨١ ،
Palmer, p. 6; Barth, II, p. 636 Yver, G., Ghana (Encycl. of Islam), Vol. II, p. 714

(٤٨) ديشان ص ١٣٥ ، Gouilly, pp. 96-107, 116-125 ; Trimingham, pp. 92-93.

(٤٩) ديشان ص ١٤٨ — ١٥٠ ، توماس ارنولد : الدعوة الى الاسلام — ترجمة حسن ابراهيم وزملائه ص ٣٦٥ — ٣٦٩ ،
Trimingham, pp. 9 -99; Gouilly, pp. 108-115, 134-161, Carbou, H., La Region Du Tchad, Paris, 1912, Vol. II, p. 18.

(٥٠) الدعوة الى الاسلام ص ٣٧٠ — ٣٧٦ ، Triningham, pp. 100-101;
Gorer, G., Africa Dances, Lond., 1945, p. 45:

(٥١) نعيم قداح : افريقية الغربية فى ظل الاسلام — كوناكرى ١٩٦٠ ،

(٥٢) ديشان ص ١٢٩ ، Blyden , p. 202.

(٥٣) Blyden, pp. 3, 6- 12-14, 37 53-354

(٥٤) Blyden, p. 12.

(٥٥) قداح ص ١٣٥ ، Blyden, pp. 5, 18, 201.

(٥٦) Blyden, pp. 5, 26

(٥٧) بعض آية ١٤ من سورة يوسف .

(٥٨) آية ١٠ من سورة البروج .

(٥٩) Gorer, p. 44; Blyden, pp. 203-205

(٦٠) ابن بطوطة (ابو عبد الله محمد بن عبد الله اللواتى الطنجى ت ١٣٦٩م) تحفة النظار فى غرائب الامصـــار وعجائب الاســـفار — باريس ١٨٥٣ جـ ٤ ص ٤٢٢ — ٤٢٣ .

(٦١) Blden, p. 7 ; Gouilly, pp. 229-238; Trimingham, pp. 124-137.

(٦٢) ابن بطوطة جـ ٤ ص ٤٠٩ — ٤١٠ .

(٦٣) الفتاش ١١١ — ١١٣ .

(٦٤) الفتاش ص ٢٣ — ٢٤ ، ٨٨ — ٩٠ ، ١٢٠ .

(٦٥) الفتاش ص ١٠٩ .

(٦٦) دولة البرنو الاسلامية للمؤلف ، Palmer, p. 166.

(٦٧) Gouilly, pp. 291-292; Kitchen, H. (Edit.), The Educated African, Lond., 1962, pp.. 317, 326..., Talbot, p. the peoples of Southern Nigeria, Lond., 1936, p. 104

(٦٨) Blyden pp. 8, 15

(٦٩) نزهة المشتاق ص ٦ ، L. lugard, pp. 98-99. De la Roncière, I, 6. 85

(٧٠) Yver, p. 748.

(٧١) Murdock, p. 129; Shinnie, pp. 67-68; Trimingham, pp. 16-17 Temple, O. Notes on the Tribes and Provinces, Emirates & Estates of Northern Provence of Nigeria, Lages, 1922, pp. 215-216

(٧٢) معجم البلدان جـ ٧ ص ٢١٠ ، Carbou, II, 6. 2

(٧٣) Temple, pp. 22-25; Trimingham, pp. 1 -18.

(٧٤) صبح الأعشى جـ ٨ ص ١١٦ — ١١٨ .

(٧٥) Palmer, Sudanese Memoirs, Lagos, 128, Vol. I, pp. 1-2, 11 ; The Bornu Sahara ..., p. 16 .

(٧٦) Yver, p. 750.

(٧٧) قــداح ص ١٤٩ .

(٧٨) الدعوة الى الاسلام ص ٣٤٩ .

(٧٩) مســالك الأبصار جـ ٢ ق ٣ ورقة ٥٠٤ — ٥٠٥ ، صبح الأعشى جـ ٨ ص ١١٦ .

(٨٠) Blyden pp. 214-215; Trimingham, pp. 83-84;

(٨١) مسالك الأبصار جـ ٢ ق ٣ ورقة ٥٠٦ ، صبح الأعشى جـ ٥ ص ٢٩٨ .

(٨٢) ديشــان ص ١٣٢ .

(٨٣) Triningham, pp. 83-85; Nigeria (Report), p. 6

(٨٤) المسلمون فى أوروبا (للمؤلف) ص ٩٩ ، ١٠١ — ١٠٢ ، ارسلان ص ٢٨٥ — ٢٨٦ ، Scott, II, p. 76;

(٨٥) Marty, Etudes sur l'Islam et les Tribus du Soudan, pp. 77-133; Gouilly, pp. 207-220. دولة مالى الاسلامية فى العصور الوسطى للمؤلف .

(٨٦) العمرى : التعريف بالمصطلح الشريف — مصر ١٣١٢ هـ — ص ٢٨—٢٩ .

(٨٧) صبح الأعشى جـ ٨ ص ١١٦ — ١١٨ .

(٨٨) قداح ص ١٥١ — ١٥٢ : ١٥١ — ١٥٥ : Bovill, pp. 100-101.

(٨٩) الفتاش ص ١٢ — ١٦ ، L. lugard, p. 814.
امبراطورية غانة الاسلامية للمؤلف (فى المطبعة) ؛ غانة فى العصور الوسطى (المجلة التاريخية) م ١٣ سنة ١٩٦٧ ص ٢٥ — ٨٩ . Gouilly, p. 121.

(٩٠) السعدى ص ٤٣ — ٤٤ .

(٩١) L. lugard, pp. 356-365

(٩٢) Blyden, p. 211;

(٩٣) L. lugard, p. 365; Fage, pp. 161-165; Vandeleur, S., Compaining on the Upper Nile & Niger, Lond., 1899, p. 155. L. lugard, pp. 236-237.

(٩٤) أنظر كذلك :

H. F. C. Smith., 19 th Century Arabic Archives of West Africa (The Third nference, Lond., 1961); M. Hiscett, A Noteon the Arabic Mss. of the Fulani Period in Nothern Nigeria (the Third Confernce, Lond., 1961).

(٩٥) دولة القوط الغربيين للمؤلف ص ١٤٢ — ١٥٠ .

(٩٦) Blyden p. 215.

(٩٧) راجع عابدين : الأمثال فى النثر العربى القديم مع مقارنتها بنظــائرها فى الآداب الســامية الأخــرى (مصر ١٩٥٦) ص ٢٨ — ٢٩ ، نولدكه (تيودور) : اللغات السامية (ترجمة رمضان عبد التواب — مصر ١٩٦٣) ص ٣٤ — ٣٩ ، فيليب حتى : تاريخ سوريا (بيروت ١٩٥٨) جـ ١ ص ١٧٦ — ١٩٠ ، ٣٧١ .
Sanday, W.,-Art. «Bible»(Enc of Religion and Ethics, vol. II, pp. 562-573; G.B.G,, S.R.D. : Art. Old Testament » (Enc. Britannica), Vol. III, pp. 849-905; Art. «Bible» (Larousse du XXe Siècle) Vol. I, pp. 690-691; Manson, the Teaching of Jesus, Cambr., 1943, p. 150.

قصة الطوفان فى أدب بلاد الرافدين

للدكتور محمد عبد القادر محمد

قصة الطوفان معروفة لنا جميعا من القــرآن وكذلك من التوراة التى تعطى وصفا دقيقا للحادث ، وقد كان يظن حتى أواخر القرن التاسع عشر الميلادى أن التوراة هى أقدم مصدر لقصة الطوفان . ولكن اهتمام عالم العصر الحــديث بالتراث القديم والكشف عن معالم المدنيات العظيمة التى قامت فى منطقة الشرق الأوسط ثم التوصل الى قراءة النصــوص التى تركوها ، أدى الى الكشف عن حقائق علمية مستمدة من آثار تلك الشعوب القديمة . ومن أهم هذه الاكتشافات الحديثة قصة الطوفان .

وأول نسخة وصلت الينا من العالم القديم هى تلك النسخة التى عثر عليهــا فى مكتبة أشور بانيبال الشهيرة بنينوى عاصمة الأشوريين وترجع هذه النسخة الى القرن السابع قبل الميلاد ثم عثر على نسخة ثانية أقدم من السابقة بألف سنة اذ أنها كتبت فى العهــد البابلى القــديم . وهاتان النسختان مكتوبتان باللغــة السامية . والى جانب ما تقــدم ظهرت الى الوجــود بعض جذاذات ترجع الى السومريين الذين سكنوا جنوب بلاد الرافدين فى الألف الثالث قبل الميــلاد . واللغة السومرية التى استعمل الخط المسارى فى كتابتها تختلف اختلافا تاما عن شعبة اللغات السامية وان كان الساميون استعملوا نفس طريقة الكتابة السالفة وهى الكتابة بقلم معدنى على ألواح من الطين ، كمــا نقلوا الأساطير والملاحم والقصص والأدب السومرى الى اللغة الأكادية .

ومن أشهر ما نقله العرب الساميون عن السومريين قصة الطوفان هــذه ؛ وقد عثرت أول بعثة أمريكية قامت بالحــفر فى بلاد الرافدين على اللوح الطينى الذى يحتوى على القصــة السومرية للطوفان فى نيبور (نفر) . وقــد نجحت

هذه البعثة فى المدة من ١٨٨٩ الى ١٩٠٠ فى الكشف عن ٣٠٫٠٠٠ لوح ، وجذاذة ، كتبت معظمها باللغة السومرية ، ولسوء الحظ بعثرت هذه المجموعة النادرة بعد تقسيمها الى ثلاثة أقسام على متاحف مختلفة هى متاحف فيلادلفيا وأسطنبول ، وبينا فى شرق ألمانيا • ولا تزال هذه الألواح حتى الآن المصدر الرئيسى لمعلوماتنا عن الأساطير والآداب السومرية • وبالرغم من انقضاء أكثر من نصف قرن على اكتشافها لا يزال العلماء يجدون مواد غزيرة وجديدة بين سطور هذه المجموعات التى ظلت مدفونة فى المتاحف •

وترجمة النص السومرى لم تظهر الا بعد ١٤ سنة من انتهاء الحفائر فى نيبور • وكان بطل القصة فى تلك الترجمة يدعى فى النسخة السومرية ذيوسودرا وهو يقابل نوح المذكور فى كل من القرآن والتوراة ، كما ذكر فى الآداب الأكادية باسم أوتنابيشتم •

وقصة الطوفان ذكرت فى ملحمة جلجاميش كما قدمنا على اللوح رقم ١١ من سطر ١ ـ ١٩٥ • وقد كشف ضمن أرشيف بوغازكوى عاصمة الحثيين فى اسية الصغرى عن نسخة ترجع الى منتصف الألف الثامن ، كما وجدت فى نفس هذا الأرشيف ترجمة باللغة الحثية وترجمة باللغة الخورية تدل على اهتمام جميع أدباء العالم القديم بهذه القصة • ومن النصف الأول من الألف الثانى قبل الميلاد وجدت نسخة بالبابلية القديمة ثبت أنها نقلت عن أصل أقدم • وأقدم هذه القصص جميعا هى القصة السومرية التى تدل على أنه كان هناك على الأقل خمس مدن مزدهرة قبل الطوفان •

١ ـ اريدو (بوشهرين) •

٢ ـ بادتيبيرا •

٣ ـ لا راك •

٤ ـ سيبار (أبو حبة) •

٥ ـ شورباك (فارا) •

وقد دلت الحفائر فى جنوب بلاد الرافدين على حدوث طوفان فعلا بهذه المنطقة ، اذ ظهرت آثاره فى أوروجمدة نصر • وقد وجد ل • وولى الذى قام بالحفر فى هذه المناطق آثار الطمى التى حملته المياه ويبلغ سمكه ٣ متر تقريبا ، وهو يرجع الى قرب نهاية حضارة جمدة نصر أى قبيل بداية الألف الثالثة قبل الميلاد • ويعتقد وولى أن هذا الطوفان لم يعم العالم بأسره وانما كان قاصرا على الحوض الأسفل لنهرى الدجلة والفرات مغطيا مساحة تبلغ ٤٠٠ ميلا (حوالى ٦٥٠ كيلو مترا طولا) و ١٠٠ ميلا عرضا أى (١٥٠ كيلو مترا) • ولكن بالنسبة لسكان هذا الوادى كان ذلك هو العالم بأسره • والواقع ان الحضارات القديمة التى قامت فى هذا العصر السحيق كانت نادرة وقاصرة على منطقة الشرق الأوسط كما تثبت ذلك أعمال التنقيب الحديثة فى مختلف أنحاء العالم •

على أن أعمال التنقيب تثبت أيضا وجود بعض هذه البلاد مثل أريدو (بو شهرين) وسيبار (بو حبة) وشوروباك (فارا) •

وأريدو تقع على مسافة ٤٠ كيلو مترا من الناصرية وقد ذكر فى قصة الخلق عند السومريين أن البقاع كانت جميعا بحرا ثم خلقت أريدو ، فهى من أولى المدن التى ظهرت فى جنوب العراق ولذا تعد أقدس المدن السومرية القديمة بعد نفر • وجنوب بلاد الرافدين كان فى الأصل بحرا ثم تكونت الأراضى الزراعية به نتيجة للطمى الذى يأتى به نهرا الدجلة والفرات على مدار السنة ، ولذا نشأت الحضارة أولا فى شمال بلاد الرافدين قبل أن تنتقل الى الجنوب بعد تكون المنطقة الزراعية • وقد وجد بأريدو آثار تدل على أن الأقوام الذين سكنوها كان لهم مدنية متطورة ومعتقدات دينية ومعابد منظمة وأنهم شيدوا بيوتهم من اللبن ، كما عرفوا الزراعة وصناعة الفخار •

أما سيبار فقد كانت تقع على الضفة الشرقية للفرات قبل أن يبدل مجراه ، وهى أيضا مدينة سحيقة فى القدم وقد عثر فيها المنقبون على أكثر من ١٣٠،٠٠٠ لوح مكتوب حسب تقدير واليس بادج W. Budge وهذه الألواح من عصر ما بعد الطوفان عندما قامت بها مدنية عظيمة وكان بها مرصد لاله الشمس « بيار » •

وفاره ــ حسب الأسطورة ــ كانت المدينة القديمة ــ شورباك ــ حيث عاش نوح وصنع فلكه ورغم أن شورباك تقع الآن فى الصحراء على بعد حوالى خمسين كيلو مترا شمال شرقى أوروك الا أنها كانت تقوم على ضفة الفرات فى العصور القديمة قبل أن يغير مجراه ، وقد حدثت بها أعمال تنقيب عديدة أدت الى نتائج فى غاية الأهمية ، اذ ثبت وجود حضارة متقدمة بها وتعرف هــذه الحضارة عادة باسم حضارة العبيد التى تسبق الفيضان • ويقص علينا وولى الذى قام بحفر أور(*) الكلدانيين بأنه وجد أسفل طبقة المبانى السومرية طبقة طينية مليئة بقدور من الفخار الملون مختلط بها أدوات من الصوان والزجاج البركانى ، وكان يبلغ سمك هذه الطبقة حوالى ١٦ قدما (٣ متر تقريبا) أسفل المبانى الطينية التى يمكن تأريخها بحوالى ٢٧٠٠ق • م وأسفل هذه الطبقــة عاشت أور فى عصر ما قبل الطوفان • ولم تجر حتى الآن أى حفائر على نطاق واسع فى هذه المنطقة وكل ما أمكن اثباته هو وجود مدينة قبل الطوفان وقد عثر فى البيوت التى من هذا العصر على سدادات قدور كان عليها انطباعات أختام بأسماء أصحابها ، ورغم أنها لم تكن كتابة مفهومة الا أنها كانت وحدات مكتوبة ومكونة من رسومات هندسية متطورة ، وبعضها يمثل صفوف من الحيــوان سائرا فى بلاد جبلية ، وقد صورت الحيوانات بمهارة وحيوية مذهلة • وبالنظر الى استعمال الأختام فى هذا العصر فمن الممكن أن تكون الكتابة قد عرفت أيضا • ولذلك فليس من المستبعد العثور على وثائق مكتوبة من عصر ما قبل الطوفان اذا ما أجريت حفائر منظمة على نطاق واسع • وتدل النقوش الموجودة على هذه الأختام عموما مع ما تمتاز به من طبيعية التعبير فى أسلوب قوى متميز على حضارة متقدمة فعلا •

ويستنتج وولى أن سبب اختفاء هذا الفخار الملون الذى كان منتشرا فى جنوب بلاد الرافدين قبل الطوفان اختفاء تاما مرة واحدة على أن الطــوفان قد قضى قضاء تاما على سكان هذه البلاد وحتى من بقى منهم حيا فقد القدرة

(*) ملحوظة : اور : (تل المقبر) .

وقد اتضح من تحليل الغرين الذى عثر عليه فى طبقة فيضان أور أن عينــة من غرين ذات حبيبات ناعمة ، مكون من رقائق شديدة التماسك ، تبين بالتأكيد بأنه من طين قاع النهر . ولكن ينكر بعض العلماء أن هذا هو طوفان نوح

على الانتاج • فجاء شعب جديد ، هم السومريون ، الى تلك البلاد الخالية ، وأسسوا حضارة جديدة وكان فخارهم مصنوعا على دولاب الفخار بدلا من الفخار المصنوع باليد الذى كان سائدا فى عصور ما قبل الطوفان ، كما استعملوا الأدوات المعدنية بدلا من الصوان • وهذه الحضارة التى جمعت بين القديم والحديث هى التى أنجبت المدنية السومرية التى كشفت عنها المقابر الملكية فى أور • ويعتقد وولى أن بعض الخليقة حسب الدلائل الأثرية قد نجا من الموت ، وهذا ما ذكر فى الكتب السماوية عن نجاة من اتبعوا نوحا ، وهم الذين أسهموا فى تقدم الحضارة السومرية •

ومما هو جدير بالذكر أن ابن بطوطة يذكر أن « بالكوفة مسجدا صغيرا محلقا عليه أيضا بأعواد الساج ، يذكر أنه الموضع الذى فار منه التنور ايذانا بطوفان نوح عليه السلام ؛ وفى ظهره خارج المسجد بيت يزعمون أنه بيت نوح عليه السلام • وازاءه بيت يزعمون أنه متعبد ادريس عليه السلام • ويتصل بذلك فضاء متصل بالجدار القبلى يقال أنه موضع انشاء سفينة نوح عليه السلام » • كما يذكرستون لويد وهو من كبار علماء الآثار الأشورية ان بالجامع الكبير بالكوفة مقصورة فى باطن الأرض تعرف باسم السفينة حيث يعتقد المسلمون أن الفلك قد استقر بها • ويرى أن موقعها على صخرة مطلة على ساحل البحر القديم أفضل مكانا بلا شك لرسو السفينة من قمة جبل ارارات (1)• واذا نظرنا الى خريطة العراق لوجدنا أن الكوفة تتوسط المنطقة التى حدث بها الطوفان والممتدة تقريبا من أبو حبة (سيبار) فى الشمال الى بو شهرين (أريدو) فى الجنوب كما أنها قريبة نسبيا من فارة (شورباك) المذكورة فى القصة السومرية والتى كانت يوما ما على ضفة الفرات • فالقصة المتواترة فى الكوفة والتى رواها ابن بطوطة وغيره من الرحالة — وكانوا لا يعلمون عندما كتبوا بالقصص السومرى والاكدى القديم — كان لها أساس قوى من الصحة •

وقد اتخذ قدامى المؤرخين من السومريين والاكاديين هذا الحادث أساسا تاريخيا هاما • فنجد أن قوائم الملوك التى تركوها انما قسمت الى جزأين — قسم الملوك (أو الآلهة كما يطلق عليها هؤلاء المؤرخون) قبل الطوفان — وقسم

---

(1) Seton Lloyd : Foundations In The Dust. (Pelican. 1955), p. 30.

الملوك الذين حكموا بعد الطوفان . ويتضح من القائمة أن الملوك الذين حكموا قبل الطوفان كانوا يعيشون مددا خيالية ، فقد ذكر مثلا أن أحدهم حكم ٣٦٠٠٠ سنة وحكم آخر ٤٣٠٠٠ سنة مما يوحى على الأقل بأن أهل هذا العصر السابق للطوفان كانوا معمرين ، كما هو واضح من قصة نوح الذى عاش ٩٥٠ عاما ، أما الملوك الذين حكموا بعد الطوفان ، فقد حكموا مددا أقل من ذلك بكثير وان كان عدد السنين فى كل من أسرة كيش الأولى وأسرة أوروك الأولى لا يزال مبالغا فيه . فتعطى القائمة أحيانا ٩٦٠٠ سنة أو ١٢٠٠ سنة للملك الواحد ولم توضح أرقام عادية بالنسبة الينا الا ابتداء من أسرة أور الأولى حيث أصبح الملك يحكم مثلا ٤٠ سنة أو ٢٥ سنة الخ . وأول أسرة تاريخية بعد الطوفان هى أسرة أور الأولى التى تبدأ بها العصور التاريخية اذ عرفت الكتابة آنذاك فدون الملوك أخبارهم .

الطوفان من ملحمة جلجاميش [١]

٨ ذكر أوتنابيشتم له ، لجلجاميش :
٩ سأطلعك يا جلجاميش على ما خفى (من الأمر)
١٠ واعلمك بسر من أسرار الآلهة
شورباك[٣] ــ مدينة تعرفها أنت
تقع على شط الفرات[٤]
تلك مدينة قديمة قدم الآلهة التى بها
لما أوحت الى الآلهة العظام قلوبها بأحداث الطوفان
١٥ كان أنو أبوهم (حاضرا) ،
وانليل الجرىء مستشارهم .
ونينورتا رسولهم

(٢) ترجمت عن الأصل الاكدى مع الاستعانة بالتراجم الانجليزية الحديثة .
(٣) شورباك هى مدينة فارا وقد عثر بها فعلا على اثار هذا الطوفان .
(٤) باللغة الاكدية ، بوراتوا اى الفرات وهى نفس الاسم الاكدى القديم غير أن الباء فى بوراتو انقلبت فاء فى العربية الحديثة .

واينوجي مفتش الترع(٥)

ونينجيكو ـ أيا كان حاضر معهم أيضا ،

٢٠ وأعاد قولهم الى كوخ القصب(٦)

يا كوخ القصب . يا كوخ القصب يا حائط . يا حائط

يا كوخ القصب اسمع . يا حائط تأملي

يا رجل شورباك . يا ابن أوبارا ـ توتو

اقتلع بيتك ، وابن الفلك

٢٥ اترك أملاكك ، واختار روحك

اهجر متاع (الحياة) واحفظ الروح حية .

واحمل بذرة كل روح حي على الفلك

والفلك التي ستبنيها

ستكون أبعادها حسب هذا المقاس

٣٠ عرضها مثل طولها

واجعل لها سقفـا كسقف الأبسو(٧)

ففهمت ، وقلت لا يا ، ربي :

(نعم) ، يا ربي ، ان ما تأمر به

يشرفني أن أنفـذه

٣٥ ولكن ماذا أقول للمدينة ، وللناس ، وللشيوخ

ففتح أيا فاه وأجاب

قائلا لخـادمه ، لي ،

قـل لهـم هـذا :

---

(٥) هذا اللقب مفتش الترع يدل على مدى اهمية الري منذ القدم في بـلاد الرافدين .

(٦) اى مسكن أو تنابيشتم ، فبيوت ذلك الزمان كانت تبنى من القصب .

(٧) الابسو : العالم السـفلى .

علمت أن أنليل عـدو لى ،

٤٠ فلن أقيم فى مدينتكم

ولن أطأ أملاكه بقـدمى

ولذا سأنزل الى أعماق البحـر

لأعيش مـع ربى ايا

أما أنتم فسيمطركم مطرا غزيرا .

٤٥ أحسن الطير ، وأندر الأسـماك

(وستمتلىء الأرض) بالمحاصيل الوفيرة

(والموكل فى غبش الليل) بالخبء الأخضر

سيمطركم برا [٨] .

ومع أول اشـعاع من الفجـر

٥٠ تجمعت الأرض من (حولى)

النص مهشـم

٥٤ حمـل الصـغار القـار

٥٥ وأحضر الكبار كل ما احتجنا اليـه

وفى اليوم الخامس أقمت هيكلها

وكانت مساحة أرضيتها فدانا كاملا

وارتفاع كل حائط من جدرانها ١٢٠ ذراعا [٩] التكوين ٦ : ١٥

وطول كل ضلع من السطح المربع ١٢٠ ذراعا [١٠]

---

(٨) كلمة ربالاكادى كوكو ولها معنيان برا أو هلاكا ، فهنا تورية .

(٩) التكوين ٦ : ١٥ : وهـكذا تصنعه ثلاث مئة ذراع يكون طـول الفلك وخمسين ذراعا عرضه وثلاثين ذراعا ارتفاعه .

(١٠) أى ان السفينة كانت مكعبة .

وبنيت هيكل جوانبها وربطتها معا

٦٠ وجعلت فيهـا ست أسطح [١١]

قسـمتها الى سـبع طـوابق

والطابق الأرضى قسمته الى تسـعة أجزاء

ودققت سدادات المياه بهـا

وجهـزت مرادى وأعددت المؤن

٦٥ ست سار[١٢] من القار صببته فى الفرن

وثلاثة سار من الاسفلت صببته فيها أيضا

وثلاثة سار من الزيت نقله حاملو السـلال

خـلاف سار من الزيت استهلكته القلفطة .

كما خزن الملاح سارين من الزيت .

٧٠ ذبحت ثيرانا (للناس) [١٣] — التكوين ٦ :٢١

ونحرت ماشية كل يـوم

وعصير فواكه ، وخمرا حمراء وزيتا ، وخمرا أبيضا

أعطيتها للعمال (لتشرب) ، كأنها مياه النهر

ليحتفلوا ، وكأنه يوم رأس السـنة

٧٥ وفتحت ... الدهون ، لوضعها على يدى

وفى اليوم السابع كان الفلك كاملا

---

(١١) التكوين ٦ : ١٦ . وتصنع كوا للفلك وتكمله الى حد ذراع من فوق وتضع باب الفلك فى جنبه . مساكن سفلية ومتوسطة وعلوية تجعله .

(١٢) السار = ٨٠٠٠ جالون .

(١٣) التكوين : ٦ : ٢١ : وانت فخذ لنفسك من كل طعام يؤكل واجمعه عندك فيكون لك ولهـا طعـاما .

(وكان انزاله فى البحر) فى غاية الصعوبة .
مما اضطرهم لتحريك ألواح الأرضية من أعلا ومن أسفل
حتى نزل ثلثا (هيكله) (داخل الماء) .

٨٠ وما أملك حملتـــه فيـــه
ما أملك من فضـــة حملته فيه
ما أملك من ذهب حملته فيه
وما أملك من كل الكائنات الحية حملته[١٤] التكوين : ٧ : ٧ ـــ ٨
كل عائلتى وذوى قرباى أركبتهم الفلك

٨٠ حيوان الحقل ووحوش الحقل[١٥] التكوين : ٧ : ١٣ ـــ ١٦
وكل الصناع أركبتهم فيـــه .
وقد حـــدد لى شماش ميعادا معينا
عندما ينزل الموكل بالزوابع ليلا[١٦] مطرا مهلكا
ادخل الفلك واوصـــد بابه .
وجاء الميعاد المحدد

٩٠ وانزل الموكل بالزوابع بالليل مطرا يهلك

---

(١٤) التكوين ٧ : ٧ ـــ ٨ : فدخل نوح وبنوه وامراته ونـساء بنيه معه الى الفلك من وجه مياه الطوفان. ومن البهائم الطاهرة ومن البهائم التي ليست بطاهرة ومن الطيور وكل ما يدب على الأرض دخل اثنان اثنان الى نوح الى الفلك ذكرا وانثى.

(١٥) التكوين ٧ : ١٣ ـــ ١٦ : « فى ذلك اليوم عينه دخل نوح وســام وحــام ويافث بنو نوح وامراة نوح وثلث نساء بنيه معهم الى الفلك هم وكل الوحــوش كأجناسها وكل البهائم كأجناسها وكل الطيور كأجناسها كل عصــفور وكل ذى جناح . ودخلت الى نوح الى الفلك اثنين اثنين من كل جسد فيه روح حية . والداخلات دخلت ذكرا وانثى من كل ذى جسـد كما أمره الله . واغلق الرب عليه .

(١٦) بالاكادية اليلاتى .

وأخذت أنظر للعاصــفة

وكان النظر الى العاصفة يثير الرعب

فركبت الفلك وأوصدت بابه

ولسد جميع منافذ السفينة الى بوزور ــ اموری الملاح

٩٥ عهدت بالمبنى بكل ما يحويه

ومع بزوغ الفجــر

ارتفعت ســحابة سوداء من الأفق

وأرعد من داخلهــا آداد

وكان يتقدمها شولات وهانيش

١٠٠ يتحركان كنذير فوق التل والسهل •

ونزع ايراجال (١٧) الأعمدة(١٨) — التكوين : ٧ : ١٠ ــ ١٣

وجاءت نينورتا وجعلت السدود تفيض

وانوناكى حمل المشاعل

وأشعلوا الأرض نارا بوميضهم •

١٠٥ والذعر من اداد وصل عنان السماء

الذى حول النور الى ظلام

وتشققت الأرض (الواسعة) كأنها جرة •

---

(١٧) ايراجال هونرجال اله العالم السفلى .

(١٨) الأعمدة الخاصة بسد العالم .

التكوين ٧ : ١٠ ــ ١٣ : وحدث بعد السبعة الأيام أن مياه الطوفان صارت على الأرض . فى سنة ست مائة من حياة نوح فى الشهر الثانى فى اليوم الســابع عشر من الشهر فى ذلك اليوم انفجرت كل ينابيع الغمر العظيم وانفتحت طاقات السماء وكان المطر على الأرض اربعين يوما واربعين ليلة .

وهبت العاصفة الجنوبية يوما واحدا

وأخذت سرعتها تزداد (حتى) أخفت الجبال[19] التكوين : ٧ : ٢٠–٢٢

١١٠ وحلت بالبشر كأنها حرب

فلا يـرى الأخ أخـاه

ولمـا تعرف الناس من السماء

حتى الآلهة خافت من الطوفان

فتراجعت وصعدت الى سماء أنو[20]

١١٥ حيث ربضت الآلهة كالكلاب على الأسوار الخارجية

وصرخت أشـتار كأنها تلـد

وانتحبت سيدة الآلهة ذات الصوت العذب

واحسرتاه ، لقد تحولت الأيام الى طمى[21] التكوين ٧ : ٢٣

لأنى لعنت الناس فى مجلس الآلهة

١٢٠ كيف ألعن الناس فى مجلس الآلهة

داعية الى الحرب للقضاء على ناسى[22] التكوين ٨ : ٢١

---

(١٩) التكوين ٧ : ٢٠ – ٢٢ خمس عشرة ذراعا فى الارتفاع تعاظمت الميـاه فتغطت الجبال . فمات كل ذى جسد كان يدب على الأرض من الطيور والبهـائم والوحـوش وكل الزحافات التى كانت تزحف على الأرض وجميع النـاس . كل ما فى انفه نسمة روح حياة من كل ما فى اليابسة مات .

(٢٠) هى أعلى سماء فى النظوية العالمية عند الأكاديين .

(٢١) التكوين ٧ : ٢٣ فمحا الله كل قائم كان على وجـه الأرض . النـاس والبهائم والدبابات وطيور السماء فانمحـت من الأرض وتبقى نوح والذين معـه فى الفلك فقط .

(٢٢) التكوين : ٨ : ٢١ وقال الرب فى قلبه لا اعود العن الارض ايضا من اجل الانسان لأن تصور قلب الانسان شرير منذ حداثته . ولا اعود ايضا أميت كل حى كما فعلت .

بيد أني أنا التي ولدت ناسي

وهم يملأون البحر كبيض السمك •

وبكت معهـا آلهـة أنوناكي

١٢٥ وتقعـد الآلهـة ذليلـة تبكي

وشفاها تضغط على بعضها • • • ، جميعها

ست أيـام وسـبع ليـال

يهب الريح وتسحق العاصفة الجنوبية الأرض

فلمـا كان اليـوم السـابع

سكنت العاصفة الجنوبية عن الحرب

١٣٠ التي شنتها كأنها (جيش من) الخيالة

هدأ البحر ، واقطع الطوفان ، وسكنت العاصفة[٢٣] التكوين ٨ : ١-٢

ونظرت الى الجو • • • • فاذا السكون قد حل

وتحول الناس جميعا الى طين

وصارت الحقول مستوية كأنها سطح •

١٣٥ فتحت كوة • • • فسقط النور على وجهي[٢٤] التكوين ٨ : ٦

وانحنيت وجلست أبكي

وعلى وجهي سـال دمعي

وتطلعت الى الدنيا في عـرض البحـر

---

(٢٣) التكوين ٨ : ١ ــ ٢ ثم ذكر الله نوحا وكل الوحوش وكل البهائم التي معه في الفلك واجاز الله ريحا على الأرض فهدأت المياه . وانسدت ينابيع الغمر وطاقات السماء فامتنع المطر من السماء .

(٢٤) التكوين ٨ : ٦ وحدث من بعد اربعين يوما ان نوحا فتح طاقة الفلك التي كان قـد عملهـا .

في كل من الأقاليم الاثنى عشر طلع نجـع

١٤٠ وعلى (جبل) نيصير[٢٥] حطت الفلك[٢٦] — التكوين ٨ : ٤

وأمسك جبل نيصير الفلك ولم يدعها تتحرك

اليوم الأول ، اليوم الثاني ، وجبل نيصير ممسك بالفلك

اليوم الثالث ، اليوم الرابع ، وجبل نيصير ممسك بالفلك

اليوم الخامس ، اليوم السادس ، وجبل نيصير ممسك بالفلك

لا يدعهـا تتحـرك .

١٤٥ وعندما حـل اليـوم السـابع

أطلقت حمـامة

فذهبت الحمامة ثم عادت [٢٧] — التكوين ٨ : ٨ ـــ ١٠

اذ لما يكن ثمة مكان فعـادت

ثم أطلقت سـنونو

١٥٠ ذهب السـنونو ثم عاد

اذ لما يكن ثمة مكان فعـاد

ثم أطلقت غـرابا [٢٨] — التكوين٨ : ٧

فذهب الغراب ، فلمـا رأى قرار المـاء

---

(٢٥) يظن أنه جبل بئر عمـر جـدرون .

(٢٦) التكوين ٨ : ٤ واستقر الفلك في الشهر السابع في اليوم السابع عشر من الشـهر على جبـل اراراط .

(٢٧) التكوين ٨ : ٨ ـــ ١٠ : ثم أرسل الحمامة من عنده ليرى هل قلت المياه عن وجه الارض . فلم تجد الحمامة مقرا لرجلها فرجعت اليه الى الفلك . لأن مياها كانت على كل وجه الأرض . فمد يده واخذها وأدخلها عنده الى الفلك .

(٢٨) التكوين : ٨ : ٧ : وارسل الغراب فخرج مترددا حتى نشفت المياه عن الأرض .

آكل وحـام ونعب ولم يعـد

١٥٥ ثم أطلقت الجميع الى الرياح الأربع وقدمت قربانا

وارقت سكيبة على قمة الجبل(٢٩) التكوين ٨ : ١٩ — ٢٠

سبعة وسبعة قدور وضعتهـا

وحول قوائمها كومت القصب وخشب الأرز والآس .

١٦٠ فشمت الالهة الرائحة الذكية

وتزاحمت الآلهة القربان كأنها ذباب

وعندما جاءت سيدة الالهة

رفعت المجوهرات الكبيرة التى صاغها لها انو كطلبها

« أيتها الآلهة . (فكما) ان هذا اللازورد الذى فى عنقى لن أنساه

١٦٥ فهذه الأيام سأتذكرها ولن أنساها !

تقدمى أيتها الآلهة الى القـربان ،

أما انليل فلا يتقـدم الى القـربان ،

لأنه أحدث الطوفان دون روية

وقاد ناسى الى التهلـكة » .

١٧٠ الآن ، عندما وصـل انليـل

ورأى الفلك . عز ذلك على انليـل

وامتلأ غضبا على آلهة اجيجى (٣٠)

---

(٢٩) التكوين ٨ : ١٩ : ٢٠ : وكل الحيوانات كل الدبابات وكل الطيور ، كل ما يدب على الأرض كأنواعها خرجت من الفلك . وبنى نوح مذبحا للرب . وأخذ من كل البهائم الطاهرة ومن كل الطيور الطاهرة واصعد محرقات على المذبح . فتنسم الربرائحـة الرضـا .

(٣٠) الهـة السـماء .

« أيكم خرج حيا : ماكان يجب أن
ينجو شخص من الهـلاك » .
وفتح نينورتاه فاه ليتكلم : قائـلا
الى انليـل البـاسـل
١٧٥ « من ، غير ايا ، يستطيع أن يصيغ الـكلم [٣١]
فايا يعلم كل شيء » .
وفتح ايا فاه ليتكلم : قائلا
الى انليل الباسـل
« أنت يا أحكم الآلهة ، أيها البطل
كيف تحـدث الطوفان دون روية ؟
١٨٠ على الآثم وزر اثمه ، وعلى المعتدى وزر اعتدائه [٣٢]
كن حليمـا أ كن صـبورا !
وبدلا من احداثك الطوفان ،
ليت أسدا هب وخف [٣٣] من بنى الانسان !
بدلا من احداثك الطوفان ،
ليت ذئبا هب وخف من بنى الانسان !
بدلا من احداثك الطوفان
ليت مجاعة هبت لتخسف بنى الانسان !

---

(٣١) هذه اشـارة الى احدى صفات ايا .

(٣٢) هذا يذكرنا بما جاء فى القرآن الكريم « سورة الزلزلة » : فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » .

(٣٣) هذا ما حدث فى مصر عندما غضب الاله رع على بنى الانسان ، لما عصوه : فأرسل عليهم عينه فى صورة حيوان فاهلكتهم .

بدلا من احداثك الطوفان

ليت طاعونا[٣٤] هب وأهلك بنى الانسان[٣٥] حزقيال ١٤ : ١٣ — ٢١

لست أنا الذى أفشيت سر الآلهة العظيمة

بل جعلت اتراخاسيس (٣٦) يرى حلما

وجعلته يســمع سر الآلهة

والآن أنظر فى أمره !

وعلى ذلك صعد انليـــل الى الفلك

١٩٠ وأمسك بيدى وأخذنى الى الفلك

وأخذ زوجتى وجعلها تركع بجانبى

ووقف بيننا ولمس جباهنا ليباركنا :

فيما مضى كان اوتنابيشتم انسانا

أما الآن فأوتنابيشتم وزوجه صار الهين مثلنا

١٩٥ اوتنابيشتم سعيش بعيدا

---

(٣٤) حرفيا : ارا : اله الطاعون .

(٣٥) حزقيال ١٤ : ١٣ : ٢١ وكانت الى كلمة الرب قائلة :

يا ابن آدم ان اخطأت الى ارض وخانت خيانة فمددت يدى عليها وكسرت لها قوام الخبز وارسلت عليها الجوع وقطعت منها الانسان والحيوان . وكان فيهـا هؤلاء الرجال الثلاثة نوح ودانيال وايوب فانهم انما يخلصون أنفسهم ببرهم يقول السيد الرب . ان عبرت فى الأرض وحوشا رديئة فاثكلوها وصارت خرابا بلا عابر بسبب الوحوش وفى وسطها هؤلاء الرجال الثلاثة فحى أنا يقول السيد الرب انهم لا يخلصون بنين ولا بنات . هم وحدهم يخلصون والأرض تصير خربة . أو أن جلبت سيفا على تلك الارض وقلت يا سيف اعبر فى الأرض وقطعت منها الانســان والحيــوان . وفى وسطها هؤلاء الرجال الثلاثة فحى أنا يقول الســيد الرب انهم لا يخلصون بنين ولا بنات بل هم وحــدهم يخلصون . أو ان أرسلت وباء على تلك الأرض وسكبت غضبى عليها بالدم لأقطع منها الانسان والحيــوان . وفى وسطها نوح ودانيال وايوب فحى أنا يقول الرب انهم لا يخلصون ابنا ولا ابنة انما يخلصون انفســهم ببرهم .

(٣٦) أى احكم الحكماء ، وهذه احدى سمات أو تنابيشتم .

عنـــد فم الأنهـــار . »

١٩٦ وعليه أخذونى واسكنونى بعيدا

عنـــد فم الأنهـــار . (٣٧)

الأسطورة السومرية للطوفان (٣٨)

(٣٧ سطرا تقريبا مهشمة من الأول)

« ناسى ، فى هلاكها ، سوف ...... أنا (٣٩)

الى نينتو (٤٠) سأعيد ...... مخلوقاتى

سأعيد الناس الى مساكنهم

أما المدن ، حقا ، فسيبنون لأنفسهم أماكن للشرائع

الالهية ، وسأجعل ظلالهم فى ســـلام

أما بيوتنا (٤١) ، فسيضعون لبنها فى أماكن طاهرة

وأماكن قراراتنا حقا سيبنونها فى أماكن طاهرة

هو وجه .... الخاص بالحـــرم

أكمل الطقوس ، (و) الشرائع الالهية المبجـــلة

على الأرض هو ..... ، وضع .... هنـــاك

وبعد أن خلق آنو ، انليل ، انكى ، نينهور ساج

---

(٣٧) فى الأساطير القديمة لم يكن يسمح لمن اختلط بالالهة بأن يتصل بالناس مرة أخرى والا هلك وقد حدث ذلك ايضا عند الحثيين فى قصة « ذبح التنين » .

(٣٨) مترجمة عن الانجليزية : S. N. Kramer : The Deluge وكرامر من أعظم علماء اللغة السومرية وهى اقدم لغة ظهرت ببلاد العراق حتى الآن .

(٣٩) من المحتمل ان اكثر من اله كان يتحدث . وترجمة النص على اساس أن الاله المتحدث (أو الالهة المشتركة فى الحديث) تعمل على انقاذ البشر من الهلاك . وان كان هذا غير مؤكد .

(٤٠) نينتو الهة سومرية تمثل الأمومة وتعرف ايضـــا بالاسمين نينهور ساج ونينمـــاه .

(٤١) قد تكون « الخاصة بمنازل الشرائع الالهية » .

(الناس) ذوى الرؤوس الســوداء [٤٢]
وازدهر الزرع فى الأرض ،
والحيوانات ومخلوقات الســهول ذوات الأربــع
أخرجت بحــكمة الى الوجــود
(حوالى ٣٧ سطرا مهشمة)
وبعد أن آنزلت ••••• الملكية من الســماء
وبعد أن أنزل تيارا المعظم وعرش الملك من السماء [٤٣]
[٤٤] هو الذى أكمل الطقوس والشرائع الالهية المعظمة
أسس المدن الخمس •••••••• فى أماكنها الطاهرة
ونادى أسماءها ، وجعلها مراكز للعبادة
وكانت أولى هذه المدن ، أريدو ، فأعطاها الى نوديمو [٤٥] القائد
والثانية باد تيبيرا ، اعطاها الى • • • •
والثالثة ، لا راك ، أعطاها الى أندو بيلهور ساج
والرابعة ، سيبار ، أعطاها للبطل أوتو[٤٦]
والخامسة ، شوروباك ، أعطاها الى سود [٤٧]

---

(٤٢) الكلمة « ذوو الرؤوس السوداء » تشير عادة الى سكان سومر وبابل ، ولكن فى هذا النص ربما تشير الى البشر جميعــا .

(٤٣) اشارة صريحة الى ان الملك الأول قد عاش فى السماء قبل نزوله الى الأرض ، وهذا يتفق مع قصص القرآن الذى ذكر ان آدم وحواء قد ســكنا الجنة قبل طردهما منها ونزولهما الى الأرض . وان كان النص السومرى لم يذكر لنــا أســباب الطــرد .

(٤٤) الضمير لا يوضــح شخصية الاله أو الالهــة . وربما كان المقصــود آنو ــ انليــل .

(٤٥) نوديمود هو اســم اله المــاء انكى .

(٤٦) اله الشمس : وهو اله كل من سيبار ولارسا .

(٤٧) الهة شوروباك وقد وحدها علماء الدين البابليون مع الالهة نينليل زوج انليــل .

وحين نادى أسماء هذه المدن ، وجعلها مراكز للعبـادة

أحضر (٤٨)

وأسس تطهير الأنهار الصـغيرة (٤٩)

(حوالى ٣٧ سطرا مهشمة)

الطوفان .....

هكذا حدث لهـا ...

ثم بكت نينتو مثل ....

وآنانا الطاهرة أقامت مأتما لناسـها (٥٠)

آنو ، انليل ، انكى ، ونينهور ساج ..... ،

آلهة السماء والأرض نطقوا اسم (٥١) آنو (و) انليل

ثم قام زيو سودرا (٥٢) ، الملك ، الباشيشو ....

وبنى .... ضخما (٥٣)

مطيعا ، متواضعا ، فى احترام (هو) ...... ،

حاضرا كل يوم ، دائما (هو) ...... ،

محضرا كل أنواع الأحلام ، (هو) ..... ،

ناطقا أسمى السماء (و) الأرض (هو) .... ،

..... الآلهة حائط ..... ،

زيوسودرا ، واقفا الى جانبها ، سـمع :

---

(٤٨) ربمـا المقصـود المـاء والمطـر .

(٤٩) تبين لنا من هذه العبارة اهتمام أهل العراق منذ العصـور السحيقة بتطهير التـرع ، لأنهـا بـلد زراعى .

(٥٠) قد يشير الضمير الى ناس الأرض او البلاد .

(٥١) « سحرهم انو وانليل » .

(٥٢) نـوح القـرآن .

(٥٣) قد يكون المقصود هنا هو بناء الفلك .

« قف بجوار الحائط عن شـمالى ، (٥٤)
بجوار الحائط سأقول لك كلمة ، (خذ كلمتى) ،
(اعط) اذنك الى تعليماتى .
بـ .... نا سيكتسح طوفان مراكز العبادة .
ليقضى على بذرة البشر .... ،
هذا قرار ، كلمة (مجلس الآلهة)
بناء على الكلمة التى أمر بها آنو (و) انليل ..... ،
ملكها وحكمها سـينتهى (٥٥) ١٦٠
(حوالى ٤٠ سطرا مهشمة)
جميع الزوابع ، فى غاية من القوة ، هاجمت (كقوة) واحدة ٢٠١
وفى نفس الوقت ، اكتسح الطوفان مراكز العبادة
وبعد ذلك ، لمدة سبع أيام ، وسبع ليال ،
اكتسح الطوفان الأرض ،
تقاذفت الزوابع السفينة الضخمة فوق الأنهار الكبيرة
ثم أتى اوتو الذى يضىء السماء والأرض .
وفتح زيوسودرا نافذة بالفلك الضخم ،
فأدخل البطل أوتو أشعته الى داخل الفلك الضخم
زيو سودرا الملك
سـجد أمام أوتو ،

---

(٥٤) اسم الاله المتكلم لم يذكر ، ولكنه بلا شك ، انكى .
(٥٥) المقصود : ملك بنى الانسان على الأرض .

ذبح الملك ثورا ، وذبح شــاة

(حوالى ٣٩ سطرا مهشمة)

تنطق أنت « نسمة السماء » ، « نسمة الأرض » ، حقــا

تبسط نفسها عند ....ك ٢٥١

آنو (و) انليل نطقا « نسمة السماء » ، « نسمة الأرض »

بــ ..... هم فبسطت نفســها

الزرع الذى ينبت من الأرض ، ازدهر

زيو سودرا ، الملك

ســجد أمام آنو (و) انليل

آنو (و) انليل رضيا عن زيو سودرا

حياة مثل حياة الاله اسبغاها عليه

نســمة أزلية مثل نسمة الاله أنزلاها له .

ثم ، زيو سودرا ، الملك

الذى حافظ على اسم الزرع وبذرة البشر ٢٦٠

فى أرض (٥٦) التعدية (٥٧) ، أرض دلمون ، حيث تشرق الشمس

جعلاه يعيش .(٥٨)

(بقية اللوحة حوالى ٣٩ سطرا مهشمة)

---

(٥٦) الكلمة السومرية التى استعملت مرتين فى هذا السطر يمكن ترجمتها ايضا بمعنى جبل : او أرض جبلية .

(٥٧) ربما قصد عبور الشمس بمجرد ظهورها فى المشرق ، والكلمة السومرية تعنى أيضاحكم .

(٥٨) فى الغالب انو (و) انليــل .

قصة هلاك البشر
فى الأدب المصرى القديم

كما غضب الله على بنى الانسان فى بلاد الرافدين وعاقبهم بالطوفان ، غضب أيضا على أهل مصر عندما عصوا أوامره وكفروا به ؛ وأهلكهم عقابا لهم على عدم طاعته ، ولكن القصة المصرية تختلف كل الاختلاف عن القصة السومرية ـ الاكادية • ففى مصر لم ترد أى اشارة الى الطوفان اطلاقا ، بل عاقب الله بنى الانسان بأن أرسل عليهم وحشا اباد منهم خلقا كثيرا ، ثم أخذته الرحمة فأنجى الباقين ، على عكس القصة السومرية ـ الاكادية التى لم يعف فيها الاله عن بنى الانسان الا بعد وساطة الآلهة الأخرى الأقل شأنا •

وقد وجدت القصة المصرية بأكملها فى مقبرتين من الأسرة التاسعة عشر ، هما مقبرة سيتى الأول . ومقبرة رمسيس الثانى • وفى مقبرتين من الأسرة العشرين ، مقبرة رمسيس الثالث ومقبرة رمسيس السادس ، ولم يعثر على نصوص هذه القصة قبل ذلك ، ولكن يبدو أنها كانت معروفة منذ الأسرة الثامنة عشر على الأقل نظرا لما فى النص من أخطاء • ثم ان المقصورة الخشبية الكبرى المغشاة بالذهب التى وجدت فى مقبرة توت عنخ آمون والمحفوظة بالمتحف المصرى، تشتمل على الجزء الأخير فقط من النص وهو لا يدور حول قصة هلاك البشر ، انما يخص بعض الطقوس الدينية التى ذكرت فى نهاية القصة •

وقد قام شارلز مايستر حديثا بنقل نصوص هذه القصة ونشرها فى

Charles Maystre : Le Livre De La Vache Du Ciel. BIFAO vol. XL. (1941), Cairo.

وقد جمع نصوص القصة المدونة فى المقابر الآتية :

١ ـ توت عنخ آمون ـ المقصورة الخشبية الكبرى •

٢ ـ مقبرة سيتى الأول ـ على جدران غرفة صغيرة متفرعة من غرفة الدفن على اليمين •

٣ ـ مقبرة رمسيس الثانى ـ على جدران غرفة صغيرة متفرعة من غرفة الدفن على اليمين •

٤ ــ مقبرة رمسيس الثالث ــ على جدران غرفة صغيرة متفرعة من غرفة الدفن على اليمين •

٥ ــ مقبرة رمسيس السادس ــ على جدران غرفة صغيرة فى نهاية الممر الثـــانى •

ولكن النص الخاص بقصـــة عقاب البشر لم يعثر عليه الا فى مقابر ســـيتى الأول ورمسيس الثانى ورمسيس الثالث •

وقد قام مايستر بنقل النصوص ومقابلة بعضها بالبعض الآخر حتى يمكن ملء الفجوات وتصحيح الأخطاء الموجودة فى كل منها • وقد ترجمت القصـــة عدة مرات الى الانجليزية والألمانية •

وتبـــدأ القصـــة كالآتى :

حدث أن رع الذى خلق ذاته ، بعد ما صار ملكا على الآلهة والناس أجمعين ، أن أخذ الناس يتآمرون على رع ويقولون : الآن جلالته ــ له الحياة والصـــحة والسعادة ــ شيخ (شابهت) عظامه الفضه ، و (شابه) لحمه الذهب ، و (شابه) شعره اللازورد الحقيقى • و (مالبث) أن فطن جلالته بما يبيته له النـــاس من أمر • فقال جلالته ــ له الحياة والصحة والسعادة ــ لحاشيته (حرفيا : لهؤلاء الذين فى ركابه) : ادع لى عينى (١) ، وشو وتفنوت وجب ونوت وكل الآباء والأمهات التى كانت معى حينما كنت فى نون (٢) وكذلك الاله نون ، وعليه أن يحضر حاشيته معه • وأحضرهم فى هدوء ، حتى لا يرى الناس (شيئا) ولا تفزع قلوبهم (حرفيا : تهرب قلوبهم) • تعال معهم الى القصر الكبير حتى يخبـــرونا بأحوالهم منذ جئت من نون الى المـــكان الذى خلـــقت فيه نفسى • (وتلبية لرغبة الاله) جىء بتلك الآلهة الى حضرته واجتمعت حوله ، ولامست جباههم الأرض فى حضرة جلالته • فقال جلالته كلاما فى حضرة الوالد الأكبر

---

(١) كما هو واضح من القصة ، عين اله الشمس جزء مستقل عن جســـده ولذلك قصة ، وتظهر هنا أولا فى صورة الالهة حاتحور ثم اتخذت بعد ذلك صورة الالهة سخمة ، الهة الحرب ، بعد فتكها بالبشر .

(٢) نون ــ هى المياه الأزلية التى ظهر منها الاله وبدأ الخلق .

الذى خلق البشر ، ملك النـاس(٣) ثم قالوا لجلالته : « تكلم حتى نسـمع (ماتقول) » . فقال رع مخاطبا نون .. أنت يا أكبر الآلهة الذى خلقت أنا منه : وأنتم يا أيتها الآلهة أجدادى ، أنظروا الى هؤلاء الناس الذين خلقوا من عينى (٤) . لقد ثاروا على . خبرونى ماذا ستفعلون بهم . انظروا ! فأنا أبحث (الموضوع) « أنا لن أذبحهم حتى أسمع ما تقولون فى هذا الشأن » . وأجاب جلالة الاله نون ، يا بنى ، رع ، أنت يا أيها الاله الذى فاق من أنجبه عظمة،وفاق من خلقوه قدرة(٥) ، أيها الجالس على عرشك ، ان الخوف منك لعظيم لو أنك فقط وجهت « عينيك » على من كفروا بك فقال جلالة رع : « أنظروا كيف يولون الأدبار فى البادية وقلوبهم وجلة ممـا قد أقوله لهم » . ثم قالوا (أى الآلهة) لجلالته : « دع عينك تذهب لتسحق أولئك الذين كفروا بك . ولمـا كانت العين ليست ذات دراية فى هذه المهمة لتسحقهم لك ، فلتنزل فى (صورة) حاتحور(٦) . فجاءت هذه الآلهة ، وذبحت الناس فى البادية . (وطابت نفس

---

(٣) المقصـود الاله نون .

(٤) خلق البشر من الدموع التى سـالت من عين الاله الخالق كما جاء ذلك فى قصة الوحش ابو فيس .

(٥) يتضح من هذا النص ، أن مؤلف هذه القصة يدعى ان رع لم يخلق نفسه : انما خلقه أبوه نون . وهذا يتنافى مع ما جاء فى أول القصة من أن رع هـو الذى خلق نفسه . كما جب ان نتذكر أن هذه القصة كتبت فى أغلب الظن بطيبة مقر الاله آمون — ورغم أنه اتحد مع رع وصار دائما يدعى آمون — رع ، الا أن طيبة لم تكن المقر الرسمى لعبادة هذا الاله . وان كان ظهور رع من المياه الأزليـة قد ذكر ايضا فى نصوص الأهرام من الدولة القديمة ، تعزيمة ٥٤٢ . وان كانت نصوص الأهرام قد صورت اتوم على أنه خالق التاسوع ، تعازيم ١٢٤٨ — ١٥٢١ — ١٦٥٢ — ١٦٥٥ ، أما تعزيمة (١٩٠٦ — د) فتشير الى أن رع هو رئيس التاسوع اى خالق العالم . ولم يكن نون المذكور فى هذا النص هو الذى أنجب رع وحده ، انما ثمة آلهة أخرى خلقت رع أيضا كما هو واضح من عبارة « وفاق من خلقوه قدرة » ويرى العلماء مثل زيته ان بتاح كان ابا لرع حسب تعاليم منف ؛ كما كان جب ايضا ابا لرع حسب قصة قديمة . ومن هذا يتضح تضارب العقائد المصرية حـول الاله الخـالق .

(٦) يفهم من هذا النص أن العين فى صورتها العادية ليست قادرة عـلى اهـلاك البشر ولذا تقمصت صورة الالهة حاتحور .

اله الشمس بهذا العقاب وبعد ما عادت الآلهة) قال لها جلالة هذا الاله : « مرحبا بك يا حاتحور ، التى قمت لى بالعمل الذى بعثت من أجله . فقالت تلك الآلهة : » أقسم بحياتك ، لقد انتصرت على الناس ، والسعادة (تملأ) قلبى « فقال جلالة رع : » سأنتصر عليهم كملك ، ولكن (كفى) ، لا تخفى منهم (أكثر من ذلك) (٧) .

وهكذا ظهرت سخمة (٨) الى الوجود ، مزيج الليل (٩) ، لتخوض فى دمائهم (بادئة) من نن ـ نسوت(١٠) . (اذ أرادت سخمة أن تستمر فى القضاء على الناس قضاءا تاما ، غير أن عوامل الرحمة والشفقة حركت قلب رع نحو العباد ، فأخذ يفكر فى وسيلة تمكنه من ايقاف تلك المذبحة البشرية الرهيبة ، وهداه تفكيره الى ارسال الرسل على جناح السرعة الى مدينة الفنتين) فقال رع : « آتونى برسل سرعان عجالى تجرى كطيف الجسد . » وقد أحضر هؤلاء الرسل فى الحال . فقال جلالته هذا الاله : اذهبوا الى ابو(١١)،واحضروا كمية كبيرة من المغرة الحمراء . وقد أحضرت له هذه المغرة الحمراء . ثم ان جلالة هذا الملك أعطاها الى ... ذى الضفيرة الجانبية الذى فى يونو (١٢) ، ليطحن هذه المغرة الحمراء (وأخذ الجوارى فى العمل دون توقف وظلوا طول الليل سهارى) تدشدشن الشعير (لعمل) الجعة . ثم أضيفت المغرة الحمراء

---

(٧) فى الغالب «م» هنا ليست حرف «فى» انما « الناهية » . كما يتفق مع الحوادث التالية . وان كان البعض يترجمها : سأنتصر عليهم كملك بانقاصهم (أى بانقاص عددهم) ولكن هذا لا يتفق مع الحوادث التالية . وربما قصد الاله رع هذا الغموض خوفا من عينه التى اصبحت وحشا شرسا .

(٨) سخمة اى المنتصرة .

(٩) مزيج الليل : هذه العبارة ليست لها معنى فى هذا المكان وربما نقلت خطأ من السطر التالى .

(١٠) نن ـ نسوت : اهناسية المدينة ـ هر قليوبوليس .

(١١) ابو : الفنتين ـ أسوان .

(١٢) يونو : عين شمس ـ هليوبوليس .

الى هذا المزيج ، فكانت كأنها دم الناس . ثم عبئت (حرفيا : عملت) فى سبعة آلاف قدر . (أنجزتها قبل طلوع الشمس ، وظهر التعب والارهاق عليهن ، وتأثرت عيونهن بالسهر الطويل فتكحلن .) ثم جاء جلالة ملك الوجه القبلى وملك الوجه البحرى « رع » (تصحبه) تلك الآلهة ليروا قدور البيرة هذه . ولما كان فجر اليوم الذى ستذبح فيه الآلهة البشر فى وقت ابحارهم قال رع : كم هى (١٣) بديعة ، ساحمى الناس بها . « ثم قال رع : احملوها الى المكان الذى قالت أنها ستذبح الناس فيه . وهب جلالة ملك الوجه القبلى وملك الوجه البحرى « رع » فى الهزيع الأخير من الليل لاراقة هذا المزيج المنوم . فامتلأت الحقول بهذا السائل الى ارتفاع ثلاث قبضات (١٤) بسلطان هذا الاله . فلما ذهبت الآلهة فى الصباح الباكر وجدتها تفيض (بتلك الجعة) ، وكان وجهها (يضىء) جمالا فيها ، فشربت وكانت لذيذة على قلبها ، فسكرت ولم تتعرف على بنى الانسان .

(وبذلك سلم البشر من الفناء التام بفضل اله الشمس الذى غفر للعباد ذنوبهم . على أنه سئم المعيشة على الأرض ، فصعد مرة ثانية الى السماء على ظهر البقرة السماوية . وترك الأرض بعده للاله تحوت اله الحكمة ليدبر شئونها .)

---

(١٣) قدور البيرة .

(١٤) حوالى ٢٢ سم .

نصان جـــــديدان

من وثيقة الأمير صرغتمش

للدكتـور عبـد اللطيف ابراهيم على

أستاذ الوثائق المساعد بكلية الآداب ـ جامعة القاهرة

وبعد ـ فهذه دراسة لاحدى وثائق الوقف العربية فى العصور الوسطى المحفوظة بالأرشيف التاريخى لوزارة الأوقاف بالقاهرة ، وهى وثيقة الأمير صرغتمش بن عبد الله الناصرى من عصر المماليك البحرية فى مصر .

وقد رأينا نشر وتحقيق بعض أجزاء منها ـ وهما نصان جـديدان ـ وفاء بما وعدنا من قبل فى بحث سابق منذ أكثر من عشر سنوات[1] .

وهذان النصان تقوم اليوم بنشرهما لأول مرة ، لما لهما من أهمية كبيرة فى دراسة التاريخ الحضارى لحقبة حافلة من عصر المماليك .

وليست قيمة هذه الوثيقة التاريخية فى صدورها عن الفاعل القانونى أو المتصرف الواقف الأمير صرغتمش ـ وهو يعتبر بحق من الشخصيات الكبرى فى الدولة المملوكية الأولى ـ ولكن لأنها تقدم لنا معلومات جديدة وقيمة للغاية من الناحية المعمارية عن المدرسة الصرغتمشية ، وهى الكلية الجامعية فى مصطلح العصر الحديث ، وعن الحياة التعليمية وأرباب الوظائف المختلفة فيها ، وغير هذا وذاك من الحقائق التاريخية الهامة .



---

١ ـ عبد اللطيف ابراهيم : وثيقة الأمير آخور كبير قراقجا الحسنى (مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة مج ١٨ جـ ٢ ديسمبر ١٩٥٦) ص ٢٣٠ ـ الوثائق فى خدمة الآثار (كتاب المؤتمر الثانى للآثار فى البلاد العربية ١٩٥٧) ص ٢٤٩ حاشية ٢ .

وهذه الوثيقة صورة صحيحة لها قيمة الأصل(١) من حجة وقف الأمير صرغتمش ، وهى وثيقة دبلوماتية متكاملة الأركان من الناحية القانونية ، قمت بنسخها — هى وغيرها من الوثائق التاريخية المحفوظة فى أرشيفات القاهرة منذ مدة طويلة .

والوثيقة مصدر أصيل صادق، اذ يصف لنا النص الأول المدرسة الصرغتمشية عند انشائها ، وهو وصف لم يرد له مثيل — من حيث الدقة والتفصيل — فى أى مصدر من المصادر التاريخية الروائية المعاصرة ، هذا فضلا عما يقدمه لنا من مصطلحات أثرية فنية مختلفة(٢) ، وهو بذلك يفتح لنا ميدانا جديدا فى الدراسات الأثرية الاسلامية — وهو ميدان علم المصطلحات الفنية(٣) Terminology الذى لا زالت البحوث فيه فى بدايتها . بينما يقدم لنا النص الثانى معلومات قيمة عن الحياة الدينية والتعليمية فى المدرسة الصرغتمشية مما يعتبر مادة دسمة للدارسين للتاريخ الاجتماعى والاقتصادى فضلا عن تاريخ النظم والمؤسسات فى العصور الوسطى — أعنى فى مصر الاسلامية زمن المماليك البحرية .

* * *

أما المتصرف القانونى فى هذه الوثيقة فهو الأمير سيف الدين صرغتمش ابن عبد الله الناصرى ، وأصله من مماليك السلطان الملك الناصر محمد ابن المنصور قلاوون الصالحى ، جلبه الخواجا الصواف تاجر المماليك سنة ٧٣٧ هـ ، فاشتراه الناصر محمد بمبلغ كبير حتى قيل « لم يسمح بمثل ذلك فى ثمن مملوك » (٤) .

---

(١) بحثنا وثيقة الأمير آخور كبير قراقجا الحسنى ص ١٨٨ حاشية ١ .

(٢) بحثنا الوثائق فى خدمة الآثار ص ٢٠٨ — ٢٠٩ .

(٣) كان المرحوم الدكتور L. A. Mayer قد وعد عند نشره لجزء من وثيقة السلطان قايتباى رقم ٨٨٦ بأرشيف وزارة الأوقاف ، بالعمل على نشر معجم للمصطلحات الفنية الواردة فيها ، الا أن شيئا منه لم يظهر حتى وفاته .

Mayer, L. A., The buildings of Qaytbay as described in his endowment deed, London 1938.

(٤) المقريزى : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار جـ ٢ ص ٤٠٥ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ١٠ ص ٢٨٣ ، المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى (مخطوط بدار الكتب المصرية) جـ ٢ ص ٢١٤ ، العسقلانى : الدور =

تدرج صرغتمش فى سلم الوظائف المملوكية بعد أن عين جمدارا ؛ وان كان قد ظل خاملا لفترة لا نعرف عنه فيها شيئا يذكر ، الى أن قامت فتنة صاخبة فى سنة ٧٤٢هـ بين الأمير قوصون نائب السلطنة فى عهد الأشرف علاء الدين كجك ، وبين المماليك السلطانية ومنهم صرغتمش وخداشية شيخون وايتمش .

ولما ظهر صرغتمش ـ بعد اختفاءه مدة ـ سلم للأمير الطنبغا الماردانى ، كما سلم غيره الى شخصيات كبرى من أمراء المماليك(١) ، ولما أراد آقسنقر أن يمشى صرغتمش فى خدمته ـ وكان جميلا مليح الصورة ـ امتنع وقال لبعض الأمراء « ان لم يتركنى قتلت نفسى » !!! ثم ترقى بعد ذلك الى أن تأمر طبلخاناه ثم تقدمه فى سنة ٧٤٩ هـ ، ولكن السلطان الناصر حسن عزله فى سنة ٧٥١ هـ من وظيفة الجمدارية التى كان قد وصل اليها فى عهد والده السلطان محمد ابن قلاوون ، لأنه كان من جملة حاشية الأمير شيخون(٢) .

ولكنه ما لبث أن أخلع عليه فى صفر سنة ٧٥٢هـ واستقر رأس نوبة كبير (رأس نوبة الأمراء الجمدارية الملكية الناصرية) على ما كان عليه أولا ، بعناية الأمير طاز ووساطة الأمير مغلطاى وبذلك صارت له سلطة كبيرة .

* * *

ولقد لعب صرغتمش دورا هاما فى نهاية سلطنة الناصر حسن الأولى ، اذ بعث به كبار الأمراء ومعه الأمير قطلوبغا الذهبى وغيره فى يوم الأحد ٢٧ جمادى الآخرة سنة ٧٥٢هـ للقبض على السلطان حسن ، فطلعوا الى القلعة وقبضوا

= الكامنة جـ ٢ ص ٢٠٦ ، ويقول المقريزى فى كتابه السلوك جـ ٢ ص ٥٣٦ « وبالغ السلطان الناصر أخيرا فى مشترى المماليك ، فاشترى صرغتمش بخمسة وثمانين الف درهم سوى تشريف أستاذه وغير ما كتب له من المسامحة ، وهى مبلغ من المال يعينه السلطان لأمير من الأمراء المقطعين فوق اقطاعه ويأخذه الأمير مسانهة أو مشاهرة » المقريزى : السلوك جـ ٢ ص ١٩ حاشية ٥ .

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ١٠ ص ٢٥ ، ٣٠ ، العسقلانى : الدرر الكامنة جـ ٢ ص ٢٠٦ .

(٢) ابن تغرى بردى : المصدر السابق جـ ١٠ ص ٢٢١ ، العسقلانى : نفس المصدر السابق والجزء والصفحة .

عليه من بين حريمه اللاتى صرخن صراخا عظيما ، وصاحت الست حدق (١) فى وجه الأمير صرغتمش نفسه وسبته سبا فاحشا ، وقد أخرج السلطان حسن وطلع به الى رواق فوق الايوان حيث حبس ووكل به من يحفظه ، وعاد صرغتمش الى الأمراء الذين اتفقوا على تولية أخيه الملك صالح بن محمد بن قلاوون (٢) .

ولما كان صرغتمش من جملة حاشية الأمير شيخون ، فقد قام بدور كبير مع الأمير طاز لاعادة شيخون الى القاهرة ، وعزل منكلى بغا الرجل الفتنى ، وأسهم صرغتمش فى عدة معارك من أجل ذلك ، وأبدى فيها مهارة فائقة فى القتال ، اذ هزم كلا من مغلطاى بن عبد الله الناصرى ومنكلى بغا اللذين فرا هاربين (٣). ولكنه تمكن من القبض عليهما بعد ذلك وحبسهما فى خزانة شمايل ، ثم توجه الى قبة النصر حيث أخبر السلطان صالح بن محمد بفراغه من أمرهما ، فسر السلطان لذلك سرورا عظيما ، وكتب باحضار الأمير شيخون من الاسكندرية ، وكان صرغتمش قد كتب اليه كتابا فى السر يقول له فيه « اقبل الى القاهرة فأنا وطاز معك » (٤) .

وقد استقبل كل من صرغتمش وطاز الأمير شيخون عند عودته الى القاهرة استقبالا حافلا ، ونزل كل منهم الى اصطبله ، وبعثوا الى الأمراء القادمين من سجن الاسكندرية والكرك بالهدايا القيمة (٥) .

* * *

(١) هى ست حدق القهرمانية الناصرية التى كان لها نفوذ كبير على نساء الناصر محمد بن قلاوون ، وكان يقال لها ست مسكة ، وقد توفيت وهى بكر عذراء وكان موجودها شيئا كثيرا .

المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ١١٦ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٩ ص ١٩٦ حاشية ٣ ، جـ ١٠ ص ٢٣١ — ٢٣٢ . العسقلانى : الدرر الكامنة جـ ٢ ص ٧ رقم ١٤٨٣ .

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ١٠ ص ٢٣٠ — ٢٣١ .

(٣) نفس المصدر السابق والجزء ص ٢٥٦ — ٢٥٨ .

(٤) نفس المصدر السابق والجزء ص ٢٥٩ — ٢٦٠ .

(٥) نفس المصدر السابق والجزء ص ٢٦٢ .

ومما لا شك فيه أن الأمير صرغتمش قد بلغ بعد هذه الأحداث الكبار شأوا عظيما ، وعندئذ شرع فى عمارة اسطبل الأمير بدريجك بجوار بئر الوطاويط قريبا من الجامع الطولونى ليكون سكنا له (١) ، وقد حمل الناس اليه شيئا كثيرا من الآلآت لعمارته .

وبعد ذلك خلع السلطان صالح بن محمد بن قلاوون على الأمير صرغتمش واستقر به رأس نوبة كبير ، وذلك باختيار الأمير شيخون وسعيه ، وجعل اليه التصرف فى أمور الدولة كلها من ولاية وعزل وحكم ما عدا مال الخاص الذى كان للأمير شيخون التحدث فيه ، وعندئذ قصد النـاس باب الأمير صرغتمش لقضاء حوائجهم ، فكثرت مهابته ، ووصل به الأمر الى معارضة الأمراء فى جميع أفعالهم ، وبذلك صار فى رتبة الأمير شيخون على حد قول المؤرخ الأشـهر أبو المحاسن يوسف بن تغرى بردى .

وكان لا يعمل شىء الا بأمره واشارته ، وان حدث وقام غيره بعمل ما غضب وأبطل ما فعله وأخرق بصاحبه ، وهكذا طال صرغتمش وتعاظم وترفع على الناس ، فحقد عليه بعض الأمراء وتنكروا له ، وكثرت الأراجيف بوقوع فتنة ، واعادة الملك الناصر حسن الى السلطنة والقبض على الأمير شيخون ، الا أن الأمير صرغتمش تبرأ مما رمى به ، وفى هذه الأثناء حدث بينه وبين الأمير طاز سوء تفس ولكن الأمير شيخون أصلح ذات بينهما (٢) .

وفى عاشر جمادى الآخرة سنة ٧٥٣ هـ خلع السلطان صالح بن محمد على الأمير شيخون العمرى واستقر رأس نوبه كبير عوضا عن الأمير صرغتمش لأمر اقتضى ذلك (٣) .

ومهما يكن من أمر ، فقد لعب صرغتمش دورا عظيما فى حماية حلف المماليك الذى كان ينتمى اليـه وعلى رأسه الأمير طاز وشيخون وغيرهما ضـد الأمير بيبغا أرس نائب حلب الذى كان يسعى للسلطنة ، وقام بحركة عصيان فى بـلاد

---

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ١٠ ص ٢٦٧ حاشية ١ ، ٢ ، المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٧٤ ، ١٣٥ .

(٢) ابن تغرى بردى : نفس المصدر السابق والجزء ص ٢٦٨ .

(٣) نفس المصدر السابق والجزء ص ٢٦٩ .

الشام ، وأراد غزو مصر للقضاء على غرمائه وأعدائه ، وحينئذ تقدم شـيخون وطاز وارغون شاه الى دمشق بينما تأخر صرغتمش عنهم قليلا صحبة السلطان صالح فى مدينة غزة لكى يدبر أمر العسـكر للقتـال ، ثم تبعهم وبصـحبته السلطان الى دمشق ، فدخلها فى يوم الخميس مستهل شهر رمضان سنة ٧٥٣ هـ وعندئذ ترك بيبغا أرس مدينة دمشق الى حلب ، وتوالت الحوادث بعد ذلك وأدت الى هزيمته ففر لاجئا الى قراجا بن ذلغادر ، وانتهى به المصير قتيـلا فى قلعة حلب (١) .

وبعد ذلك عاد الأمير صرغتمش صحبة السلطان الى القاهرة فى يوم الثلاثاء ٢٥ شوال سنة ٧٥٣ هـ (٢) .

وفى سنة ٧٥٤ هـ اشترك صرغتمش مع السلطان صالح وكبار أمراء المماليك فى هدم الفتنة التى قامت بها بعض قبائل العربان فى صعيد مصر وانتهت بهزيمة هؤلاء المفسدين والعصاة الذين نهبوا الغلال ، وقتلوا عمال الدولة (٣) .

* * *

ويظهر أن الأمير صرغتمش كان معتزا بنفسه ، عنيدا وعنيفا ، فقد قبض على الوزير علم الدين بن ابراهيم الشهير بابن زنبور المصرى القبطى لخطـأ تافه وبسيط حدث عند تفرقة التشاريف على أمراء المماليك فى القلعة ، كما قبض على حاشيته وأتباعه ، وبعث بمماليكه الى دوره التى بالصناعة بمصر القديمة حيث أوقعوا الحوطة على حريمه ، وختموا بيوته وبيوت أصـهاره ، وكتب صرغتمش الى ولاة الأعمال بالوجهين القبلى والبحرى بالحوطة على ماله وزراعته وماله من النقود والدواليب وغيرها ، كما وضع يده على موجوده من الأموال ذهبا وفضة وتحفا وثيابا .

---

(١) ابـن ايـاس : بدائـع الزهـور فى وقائـع الدهـور جـ ١ ص ١٩٦ ، ابن تغرى بردى : نفس المصدر السابق والجزء ص ٢٧٦ ، ٢٩٣ ، ٢٩٤ .

(٢) ابن تغرى بردى : نفس المصدر السابق والجزء ص ٢٧٧ .

(٣) ابن اياس : نفس المصدر السابق والجزء ص ٢٠٠ .

وبعد ذلك طلع صرغتمش الى القلعة حيث طلب السلطان جميع الكتاب وعرضهم ، وعين موفق الدين هبة الله بن ابراهيم للوزارة ، وبدر الدين كاتب يلبغا لنظر الخاص ، وعين غيرهم — ممن يطمئن الأمير صرغتمش اليهم — فى وظائف هامة ورئيسية مثل نظر الجيش ونظر الدولة وشد الدواوين ، وهنا أقبل الناس الى باب الأمير صرغتمش للسعى فى الوظائف ، فولى كثيرا منهم فى وظائف سنية (١) .

ولم يكتف صرغتمش بذلك بل أمر بضرب ابن زنبور وهو عريانا ، وضرب زوجته وابنه الصغير . وباع سائر مافى حواصله من أصناف ، هذا غير ما نقله من موجوده من ذهب وجواهر وأوان وقماش وبسط وملابس وكتب وأثاث الى حارة زويلة ليكون ذخيرة للسلطان (٢) ، وقد حدث كل ذلك لابن زنبور المصرى بالرغم من أنه كان فى أوج عظمته وبعد أن جمع من الوظائف أخطرها مثل الوزارة ونظر الجيش والخاص ، حتى كثر حساده وسعوا فيه عند الأمير صرغتمش وأغروه به ، وأشاعوا عنه أنه باق على دين النصرانية ، فما كان من صرغتمش الا أن فعل به ما فعل — اهانة وحبسا وتعذيبا — حتى أخرجه الى قوص فى صعيد مصر طريدا حيث مات بها (٣) ، وهذا كله يوضح لنا مقدار ما كان يتمتع به صرغتمش من سلطة طاغية لا حد لها .

* * *

وفى سنة ٧٥٥ هـ وقعت الفتنة بين الأمير صرغتمش وطاز — رغم محاولات الصلح التى قام بها الأمير شيخون العمرى — فقد كان كل منهما يتربص بصاحبه ويريد هلاكه ، وكان الطامعون فى السلطة من أتباع الأمير طاز واخوته يحرضونه على صرغتمش ، واتفقوا معه على أن يخرج للصيد فى البحيرة ، وركبوا على الأمير

---

(١) العسقلانى : الدرر الكامنة جـ ٢ ص ٢٠٦ ، ابن تغرى بردى : نفس المصدر السابق والجزء ص ٢٧٨ — ٢٨٠ .

(٢) المقريزى : السلوك جـ ٢ ص ٨٨٠ ، ويتضح لنا أن ثروة ابن زنبور هذه — وغيرها من ثروات أمراء المماليك — قد بلغت مبلغا هائلا مما يوجب التفات الباحثين فى التاريخ الاجتماعى والاقتصادى لمصر ابان عصر المماليك بعامة .

(٣) ابن تغرى بردى : نفس المصدر والجزء ص ٢٨١ — ٢٨٤ ، ٢٩٩ .

صرغتمش وقاتلوه ، ولكن شيخون أمر مماليكه السبعمائة بمساعدة صرغتمش ، الذى هزمهم وقبض عليهم وعلى غيراهم من كبار المماليك من عصبة الأمير طاز ، وهرب من بقى منهم بعد أن تفرقوا شذر مذر (١) .

ولما كان السلطان الملك الصالح بن محمد بن قلاوون يميل الى الأمير طاز ، فقد طالب صرغتمش وأنصاره بخلعه من السلطنة المملوكية واعادة الناصر حسن اليها ، ولكن الأمير شيخون اعترض على ذلك ، فما زالوا به حتى وافق على خلعه فى يوم الاثنين ثانى شوال سنة ٧٥٥ هـ وحبس بالقلعة الى أن توفى فى ذى الحجة سنة ٧٦١ هـ .

ومهما يكن من أمر ، فقد كانت الغلبة فى عهد السلطان صالح لكل من الأمراء الكبار طاز وشيخون وصرغتمش ، فهم أهل الحل والعقد فى المملكة واليهم أمورها جميعا (٢) .

وهكذا اتفق الأمير صرغتمش وشيخون وأنصارهما على خلع الملك الصالح وسلطنة الناصر حسن للمرة الثانية ، بعد أن اجتمعوا به وشرطوا عليه شروطا قبلها ، فبايعوه بالسلطنة فى حضرة الخليفة من آل عباس ، وقضاة القضاة الأربعة فى يوم الاثنين ثانى شوال سنة ٧٥٥ هـ ، وأخرج الأمير طاز ليتولى نيابه حلب كذلك ، فسافر اليها فى يوم الجمعة سادس شوال ، وبذلك خلا الجو للأمير صرغتمش الذى قرره السلطان حسن فى وظيفة أمير رأس نوبة النوب على عادته كما يقول ابن اياس (٣) ، بينما صار الأمير شيخون اتابكا للعساكر المنصورة ، ولكن المنية عاجلته بعد أن وثب عليه أحد المماليك السلطانية وهو قطلوخجا السلحدار وضربه بالسيف — وهو فى حضرة السلطان — ثلاث ضربات أودت بحياته فى أواخر سنة ٧٥٨ هـ (٤) .

واذا كان اختفاء الأمير شيخون من على مسرح السياسة المملوكية فى أوائل النصف الثانى من القرن الثامن الهجرى ، قد خفف عن السلطان حسن بن قلاوون

---

(١) نفس المصدر السابق والجزء ص ٢٨٦ .
(٢) نفس المصدر السابق والجزء ص ٢٨٧ .
(٣) ابن اياس : بدائع الزهور جـ ١ ص ٢٠٢ .
(٤) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ١٠ ص ٣٠٢ — ٣٠٥ ، ٣٢٤ .

ثقيل وطأته ، الا أن ذلك كان بمعناه انفراد الأمير صرغتمش بتدبير أمور الدولة المملوكية ،فقد عظم أمره جدا واستطال فى الدولة ، فأخذ وأعطى وزادت حرمته، وأثرى ثراء فاحشا وكثرت أمواله ، وعمل بعد ذلك على التخلص من منافسيه ، فأوحى الى السلطان حسن بالقبض على الأمير طاز نائب المملكة الحلبية فى سنة ٧٥٨ هـ حيث حبس فى الاسكندرية ، فقد كانت هناك عداوة قديمة بين الأمير صرغتمش وطاز كما سبق أن أشرنا (١) .

وهكذا أصبح الأمير صرغتمش هو الشخصية الأولى فى المجتمع المملوكى الى جانب السلطان ، فقد رفعت اليه فى سنة ٧٥٩ هـ قوائم من ديوان الاحباس فيها عدة حصص جارية على منافع الكنائس والأديرة ، وكان قدرها خمسة وعشرين ألف فدان ، فلما علم بذلك ذهب الى القلعة وشاور السلطان الذى رسم له بأن يخرج ذلك من أيدى النصارى ، وكتبت بذلك مربعات جيشية ، وأنعم بها على الأمراء زيادة على اقطاعاتهم ، وبطل ما كان بيد النصارى من تلك الرزق الاحباسية ، كما عمل الأمير صرغتمش على ابطال العادات التى كان يقوم بها الناس فى عيد الشهيد عند زيادة النيل وكذلك أمر بهدم احدى كنائسهم فى شبرا (٢) .

وفى عهد السلطان حسن جعل النظر على البيمارستان المنصورى قلاوون للأمير صرغتمش (٣) ، الذى تولى وظيفة النظر كذلك على الجامع الطولونى (٤) .

* * *

وفى يوم الخميس ٢٠ رمضان سنة ٧٥٩ هـ قبض السلطان حسن على الأمير صرغتمش (٥) بعد أن تآمر عليه مع كل من الأمير طيبغا الطويل ويلبغا العمرى

---

(١) ابن اياس : بدائع الزهور جـ ١ ص ٢٠٥ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ١٠ ص ٣٠٧ : المنهل الصافى (مخطوط) جـ ٢ ص ٢١٤ .

(٢) ابن اياس : نفس المصدر السابق ج ١ ص ٢٠٦ ، ٢٠٧ .

(٣) ابن حجلة المغربى : سكردان السلطان ص ٣٧ — ٣٨ .

(٤) ابن دقماق : الانتصار بواسطة عقد الامصار جـ ٤ ص ١٢٢ .

(٥) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ١٠ ص ٣٠٨ بينما ذكر ابن اياس فى بدائع الزهور جـ ١ ص ٢٠٧ ان ذلك كان فى يوم الاثنين ١١ رمضان سنة ٧٦١هـ.

وغيرهما ، وأمسك معه كذلك جمعا من الأمراء الصغار والكبار من أصحاب النفوذ والسلطة من حلف صرغتمش ، ويقال ان سبب ذلك أن الأمير صرغتمش كان قد عظم أمره جدا بعد موت شيخون ، واستبد بأمور الدولة وتدبير الملك ، بل يقال انه أشار بضرب فلوس جدد ــ ومن المعروف أن سك العملة من شارات الملك والسلطان ــ فثقل أمر ذلك على الناس وتضرر منه السوقة والعامة وغلت سائر البضائع (١) ، بل أشيع انه يريد الوثوب على السلطان نفسه ، والجلوس مكانه فى دست السلطنة المملوكية ، فلما بلغ السلطان ذلك اتفق مع جماعة من الأمراء على التخلص منه ، فقبض عليه عند دخوله على السلطان كما قبضوا على أنصاره(٢) من امراء الطبلخانات والعشرات ، وحبسوهم بقلعة الجبل .

ولما بلغ ذلك مماليك صرغتمش وحواشيه ، ركبوا بالسلاح وطلعوا الى الرميلة تحت القلعة ــ وكانوا نحوا من ثمانمائة مملوك على رأسهم أحمد بن حمص أخضر ــ حيث نزل اليهم المماليك السلطانية من طباق القلعة ورموهم بالنشاب وشتتوا شملهم ، ثم نهبت دار الأمير صرغتمش عند بئر الوطاويط ، كما نهبت دكاكين الصليبة الطولونية بواسطة الزعر والحرافيش ، وقبض على جماعة من الأعجام الصوفية بمدرسته لأنهم كانوا قد ساعدوا الطائفة الصرغتمشية ، كما قبض على شاهد ديوانه ضياء الدين بن الخطيب الذى أهين وعذب ، كما نهبت بسط المدرسة الصرغتمشية وقناديلها ، وحوائج الأعجام الصوفية وأمتعتهم (٣) . ويظهر أن الأمير صرغتمش كان يعظم العجم ويؤثرهم ، وكانت رؤوسهم به مرتفعة على حد قول العسقلانى (٤) ، وكان يقرب منه علماء فارس ويجلهم اجلالا زائدا ، ويظهر أن عددا منهم قام بالتدريس فى المدرسة الصرغتمشية .

---

(١) ابن اياس : نفس المصدر جـ ١ ص ٢٠٦ .

(٢) ابن اياس : بدائع الزهور جـ ١ ص ٢٠٨ ، ابن تغرى بردى : المنهل الصافى (مخطوط) جـ ٢ ص ٢١٤ ب .

(٣) انظر المصادر فى الحاشية السابقة .

(٤) العسقلانى : الدرر الكامنة جـ ٢ ص ٢٠٧ .

وهكذا أزاح السلطان حسن بن قلاوون من أمامه ذلك الأمير القوى صرغتمش ، وصار سلطان مصر بلا منازع ، وصفا له الوقت فأخذ وأعطى كما يقول المؤرخ الشهير أبو المحاسن بن تغرى بردى ، ولكنه لم يلبث أن وقع تحت وطأة الأمير يلبغا العمرى (١) .

وقد أسرع السلطان باخراج صرغتمش وأنصاره فى القيود من القاهرة وأرسلهم الى الاسكندرية حيث سجنوا بها (٢) ، ولكن الأمير صرغتمش كتب الى السلطان حسن كتابا يتخضع اليه فيه وجاء فى أوله :

قلبى يحدثنى بأنك متلفى   روحى فداك عرفت أم لم تعرف (٣)

ولكن السلطان لم يلتفت الى كتابه ، ويقال انه أمر بخنقه فى ذى الحجة سنة ٧٥٩ هـ ثم نقل جثمانه الى القاهرة حيث دفن فى قبة المدرسة التى بناها .

* * *

وبعد ــ فلقد كان الأمير صرغتمش عظيما فى نفسه ، وعظيما فى الدولة ، كما كان فى سعة من المال شجاعا ، وكان له دراية بعلوم الفقه والعربية ، يكتب جيدا ويقرأ تجويدا ، ويحب العلماء وأرباب الفضائل ويكثر من الجلوس معهم .

وهو صاحب المدرسة الصرغتمشية بخط الصليبة الطولونية ، وكان له بر وصدقات كثيرة ، ومآثر عديدة غيرها ، منها أنه عمر بمكة المكرمة ميضاءة بين رباط الخليفة والبيمارستان المستنصرى ، وعمر كذلك عدة أماكن بالمسجد

---

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ١٠ ص ٣١١ ، ابن اياس : نفس المصدر جـ ١ ص ٢٠٨ .

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ١٠ ص ٣٠٨ ــ ٣١٠ ، المنهل الصافى جـ ٢ ص ٢١٤ ب ، ابن اياس : نفس المصدر جـ ١ ص ٢٠٨ ، العسقلانى : نفس المصدر ج ٢ ص ٢٠٧ .

Max Van Berchem : C. I. A. Egypté T. I, pp. 240-242.

(٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ١٠ ص ٣٢٨ ، ديوان عمرو بن الفارض ص ٨٨ (ط . الحسينية ١٣٥٢ هـ) .

الحرام بمكة ، وجدد المشعر الحرام بها (١) ، كما بنى فى سنة ٧٥٣ هـ زاوية الشريف مهدى بجوار زاوية الشيخ تقى الدين العجمى تحت قلعة الجبل (٢) .

ومهما يكن من أمر ، فان الأمير صرغتمش كان يشارك فى كثير من الفضائل ويتعصب لمذهب الامام الأعظم أبى حنيفة النعمان بن ثابت الكوفى رضى الله عنه ، حتى صارت مدرسته تنسب الى أبى حنيفة النعمان وفقهه (٣) .

ومن المعروف أن صرغتمش كان مليح الصورة جميلا ، ولكن كان فيه ظلم وعسف مع جبروت (٤) ، ومن أولاد صرغتمش الأمير صارم الدين ابراهيم الذى توفى فى سنة ٧٧٠ هـ فى عهد الاشرف شعبان بن حسين ، وكان من أمراء الطبلخانات . وكان له وجاهة فى الدولة وفيه شجاعة واقدام ، وقد دفن فى مدرسة أبيه (٥) .ومن أحفاد الأمير صرغتمش الملك المظفر أبو السعادات أحمد بن المؤيد شيخ المحمودى ، فهو جده لأمه خوند سعادات (٦) .

* * *

وبعد ــ فالأمير صرغتمش هو صاحب هذه الوثيقة التى بين أيدينا ، والتى رأينا نشر نصين أساسين منها ، لما لهما من أهمية كبيرة للمشتغلين بالآثار وتاريخ الحضارة الاسلامية فى العصور الوسطى على سواء .

---

(١) ابن تغرى بردى : المنهل الصافى (مخطوط) ج ٢ ص ٢١٤ ب .

(٢) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٤٣٢ .

(٣) العسقلانى : الدرر الكامنة ج ٢ ص ٢٠٧ ، ابن حجلة المغربى : سكردان السلطان ص ٣٧ ــ ٣٨ ، وقد ورد فى الوثيقة ص ٢٦ ما يشير الى ذلك صراحة ، اذ شرط الواقف ان يكون الشيخ المدرس بها أفقه الحنفية بالديار المصرية ، ومعه ثلاثة معيدين وستون طالبا والجميع على المذهب الحنفى .

(٤) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ١٠ ص ٣٢٨ ، حاشية ٢ ، المنهل الصافى جـ ٢ ص ٢١٤ ب ، ابن اياس : بدائع الزهور جـ ١ ص ٢٠٨ .

(٥) ابن تغرى بردى : النجوم الزهرة ج ١١ ص ١٠٦ .

(٦) ابن اياس : نفس المصدر جـ ٢ ص ١٠ .

أما النص الأول : فهو يغطى الصفحات الأولى من الوثيقة (ص ١ ــ ٧) وقد ورد فيه البروتوكول الافتتاحى من بسملة وتوابعها ، واسم الفاعل القانونى وهو المتصرف الواقف الأمير صرغتمش مع التعريف به (ألقابه ووظيفته) والدعاء له ، والاشهاد على نفسه بأنه تصرف بالوقف فى حال صحته وسلامته بما هو جار فى يده وملكه وتصرفه واختصاصه وحيازته[1] .

وأهم من ذلك كله الوصف المعمارى المفصل والدقيق للمدرسة الصرغتمشية[2] عند انشائها فى سنة ٧٥٧ هـ ، وهذا النص ــ كما يتضح للقارىء ــ يفيض بالمصطلحات الفنية والمعمارية التى استعملت فى مصر ابان ذلك العصر الاسلامى الزاهر .

والنص الثانى : يغطى الصفحات ٢٣ ــ ٤٢ وهو جزء أساسى من نص الوثيقة يوضح وظيفة هذه المدرسة المملوكية ، وما بها من ايوانات للدروس والصلاة ، وبيوت للسكنى ، وجاء فى هذا النص ذكر الفسقية والميضاءة ، والمدفن والمأذنة ومكتب السبيل[3] .

وتحدثنا الوثيقة فى هذا الجزء كذلك عن ايجار الأعيان المحبوسة ومدة ذلك ، والمصارف المختلفة لريع الأوقاف ، ومرتبات أرباب الوظائف الكبرى والصغرى وغيرهم من القائمين بالأعمال فى هذه المؤسسة الدينية التعليمية ، ومنهم المدرس والمعيدين والطلبة ، والامام وشيخ الحديث وطلبته ، وخازن الكتب ، والأيتام ومؤدبهم وعريفهم ، والناظر على الوقف والشاهد والكاتب ، والقراء والموذنيين ، والفراشين والبوابين وغيرهم ، هذا بالاضافة الى ثمن البخور والزيت ، والقناديل والحصر ، والفاكهة والحلوى فى عيد الفطر ، والأضاحى فى عيد النحر[4] .

* * *

(١) الوثيقة ص ١ .
(٢) الوثيقة ص ٢ ــ ٧ .
(٣) الوثيقة ص ٢٣ ــ ٢٥ .
(٤) الوثيقة ص ٢٦ ــ ٣٧ .

فهرست الوثيقة :

مكان الوثيقة : الأرشيف التاريخى بوزارة الأوقاف بالقاهرة •

رقم الوثيقة : ٣١٩٥

شكل الوثيقة : مجلد Condex Form

أبعاد الجلدة: : ٢٨ × ٥ر١٨ سم

أبعاد الصفحة : ٢٧ × ١٨ سم

مادة الكتابة : ورق

عدد الصفحات : ٥١ صفحة

عدد السطور فى الصفحة : ١٥ سطرا

نوع التصرف : خاص

موضوع التصرف : وقف

تاريخ التصرف : ٢٧ رمضان ٧٥٧ هـ ــ ص ٤٢

المتصرف فيه : عقارات ــ مبانى وأراضى بمصر والشام وهى :

١ ــ ربع وحوانيت وبئر وساقية بجوار المدرسة الصرغتمشية من الجهة الشرقية ــ ص ٧ ــ ٨ •

٢ ــ أراضى بناحية منية حلفا بخط بحر أبى المنجا من ضواحى القاهرة (٥٢٩ فدانا) ــ ص ٩ •

٣ ــ أراض بناحية قليوب (٢٦٨ فدانا) ــ ص ١٢ ــ ١٣ •

٤ ــ أراض بقرية تل حديا من الأعمال الحلبية (٦٠ فدانا اسلامية) ص ١٣ ــ ١٤ •

٥ ــ أراض بناحية النحريرية من الأعمال الغربية (٦٠ فدانا وحبتان بالقصبة السندفاوية) ــ ص ١٧ •

٦ ــ ثمانيــة أسهم شــائعة من القــرية المعــروفة بداديح من الأعمــال الحلبية ــ ص ١٨ ــ ١٩ .

المتصرف : الواقف الأمير سيف الدين صرغتمش بن عبد الله الناصرى راس الأمراء الجمدارية الملكية الناصرية ــ ص ١ .

التوثيقــات الشرعية : اثنى عشرة توثيقا أمام القضــاة من ذوى المذاهب الأربعة فى تواريخ مختلفة وهى :

١ ــ أسجال حكمى فى ٥ شــوال ســنة ٧٥٧ هـ أمام القــاضى الموثق جمال الدين أبى محمد عبد الله بن علاء الدين على بن فخر الدين أبى عمرو عثمانى الماردينى الحنفى الناظر فى الحكم العزيز بالديار المصرية ــ ص ٤٥ .

٢ ــ أسجال تنفيذى فى يوم الأربعاء ١٧ صفر ٧٥٨ هـ امام القاضى الموثق عز الدين أبو عمرو عبد العزيز بن بدر الدين محمد بن برهان الدين ابراهيم بن جماعة الكنانى الشافعى ــ ص ٤٥ .

٣ ــ أسجال تنفيذى فى سلخ صفر سنة ٧٥٨ هـ امام القــاضى الموثق تاج الدين أبو عبد الله محمد السعدى المالكى ــ ص ٤٥ .

٤ ــ أسجال تنفيذى فى ٤ ربيع الأول سنة ٧٥٨ هـ امام القــاضى الموثق موفق الدين المقدسى الحنبلى ــ ص ٤٥ .

٥ ــ أسجال تنفيذى فى ٢٩ صفر ٧٨٥ هـ امام القاضى الموثق أبى عبد الله محمد الخزرجى الأنصارى الشافعى ــ ص ٤٥ .

٦ ــ أسجال تنفيذى فى يوم الثلاثاء ٩ شوال ٨٠٨ هـ امام القاضى الموثق جمال الدين الزبيرى النفيسى المالكى ــ ص ٤٥ ــ ٤٦ .

٧ ــ أسجال تنفيذى فى ٩ جمادى الآخــرة ٨٢٥ هـ امام القاضى الموثق شمس الدين الطآى البساطى المالكى ــ ص ٤٦ .

٨ ـ أسجال تنفيذى فى يوم الأحد ٩ جمادى الآخرة ٨٢٥ هـ امام القاضى الموثق أبى الحسن على المغلى الحنبلى ـ ص ٤٦ .

٩ ـ أسجال تنفيذى فى يوم الخميس ١٣ جمادى الآخـرة ٨٢٥ هـ امام القاضى الموثق ولى الدين أبى زرعة أحمد بن أبى الفضل عبد الرحيم بن أبى عبد الله الحسين ابن العراقى الشافعى ـ ص ٤٦ .

١٠ ـ أسجال تنفيذى فى يوم الأربعاء ٣ محرم ٨٣٠ هـ امام القاضى الموثق أبى الفضل أحمـد بن نور الدين أبى الحسـن على العسقلانى الشافعى ـ ص ٤٦ .

١١ ـ أسجال تنفيذى فى يوم الخميس ٤ محرم ٨٤٠ هـ امام القاضى الموثق أبى العباس أحمد البغدادى الحنبلى ـ ص ٤٦ ، ٤٧ .

١٢ ـ أسجال تنفيذى فى يوم السبت ٦ محرم ٨٤٠ هـ امام قاضى القضاة بدر الدين أبى محمد محمود العينى الحنفى ـ ص ٤٧ .

* * *

وهذه الوثيقة صورة أو نسخة من وثيقة وقف الأمير صرغتمش ، وهى على شكل كتاب مجلد codex Form عدد صفحاته احدى وخمسون صـفحة ، وهى مكتوبة بالحبر الأسود على ورق يضرب لونه الى الاصفرار ، ونجد على الهامش العلوى لكل صفحة خاتم « وزارة الأوقاف ـ الدفترخانة » وهو خاتم مستدير بجوار الأرقام المسلسلة لصفحات الوثيقة . كما يوجد على الصفحات الزوجية الأرقام (من ص ٢ ـ ٤٨) خاتم صغير بيضاوى الشكل للقاضى الذى نسخت هذه الصورة فى عهده وكذلك على الصفحتين رقم ٤٧ ، ٤٩ ـ وهـو خاتم القاضى الموثق الشيخ الامام العالم العلامة العمدة شرف الدين أبو زكريا يحيى بن يونس القرافى المالكى خليفـة الحكم العزيز بالديار المصرية وقاضى محكمة السادة المالكية بالمحكمة الصالحية النجمية بالقاهرة المحروسة(١) .

---

(١) الوثيقة ص ٤٧ ، ٤٩ ، ٥٠ .

والكتابة على الختم محفورة فهى غائرة ، وقد جاء فيها اسم القاضى تحت عبارة دعائية فى سطرين : « الواثق بالملك الكافى »

« يحيى بن يونس القرافى »

ومن المعروف أن القاضى يحيى القرافى قد شغل وظيفة نائب القاضى التركى مولانا عبد الله بن عبد الله الشهير ببرويز الرومى الحنفى (١) الناظر فى الأحكام الشرعية بالديار المصرية ، وكذلك قاضى القضاة مولانا أفندى محمد شاه (٢) بمحكمة الصالحية النجمية .

ويظهر أن الشيخ القرافى المالكى قد تصدر لوظيفة التوثيق والحكم بالنيابة عن القاضى العثمانى فى محكمة السادة المالكية بأحد ايوانات المدرسة الصالحية النجمية بالقاهرة مدة طويلة فى العهد العثمانى ، فقد كان يشغلها على الأقل منذ ١٧ جمادى الأولى سنة ٩٥٤ هـ (٣) .

ومهما يكن من أمر ، فهو من أسرة فقهية شروطية ، شغل بعض أبنائها وظيفة العدالة ونيابة الحكم أو القضاء فى أواخر عصر المماليك الجراكسة وأوائل العصر العثمانى فى مصر .

* * *

والراجح عندنا أن هذه الصورة قد نقلت من الوثيقة الاصلية ــ التى لم نعثر عليها فى محفوظات القاهرة والمؤرخة فى ٢٧ رمضان ٧٥٧ هـ والتى كانت على هيئة ملف (Roll Form) ــ فى ٢٤ رجب سنة ٩٧٤ هـ فى عهد القاضى

---

(١) الوثيقة ص ٤٧ ــ ٤٨ ــ انظر وثيقة الأمير أحمد بن يحيى بن يوسف الشهير بالحمزاوى من أعيان الأمراء المتفرقة بالديار المصرية ، رقم ٥٦٦ ضمن مجموعة الوثائق المكتشفة اخيرا بأرشيف وزارة الأوقاف ، وثيقة السيفى جانى بك نائب جده رقم ١٢٢ مسلسل ٢٠ محفظة بأرشيف محكمة الأحوال الشخصية بالقاهرة .

(٢) الوثيقة ص ٥٠ .

(٣) وثيقة السلطان خليل بن قلاوون محكمة ٣١٦ محفظة ٤٧ سطر ٩ ــ ١٠ .

يحيى بن يونس القرافى المالكى ومن ثم فان هذه الصورة صحيحة (copie authentique) ومطابقة للنص الاصلى ، بدليل ما ورد عليها من علامات الاثبات المختلفة من أختام وتوقيعات بخط القاضى الموثق وذلك بعد أن ثبت لديه ما تضمنه الأصل المنقول منه ذلك المثال أو تلك الصورة بطريق السماع والخبر الشائع المتواتر ، وكتب بأدنى باطن الاصل المذكور بعد العلامة والختم الكريمين ما صورته أو نصه :

« الحمد لله وحده جرى ذلك

كتبه يحيى بن يونس القرافى المالكى

نقلت خطى الى هذه النسخة

فى أواخر الحجة سنة ٩٧٤ هـ » (١)

ومهما يكن من أمر ، فقد ثبت لدى القاضى أبو زكريا بن يونس القرافى المالكى — وباذن قاضى القضاة مولانا برويز الرومى الحنفى الناظر فى الأحكام الشرعية بالديار المصرية — وذلك بعد طلب من الزينى أبو البقا المحضر بالباب العالى وبشهادة كل من الشهود العدول : (٢)

١ — زين الدين محمود بن محى الدين عبد القادر بن شمس الدين محمد الديسطى

٢ — شرف الدين يحيى بن شهاب الدين أحمد بن نور الدين على السعدى الحنفى .

٣ — شرف الدين يحيى بن على بن عبد الله .

---

(١) الوثيقة ص ٤٧ ، ٤٩ — اى ان القاضى الموثق الشيخ القرافى المالكى قد وضع تأشيرته هذه بعد حوالى خمسة شهور تقريبا من صدور الأمر أو الاذن بنسخ الوثيقة .

(٢) الوثيقة ص ٤٨ .

٤ ـ بدر الدين حسن بن شهاب الدين أحمد بن بدر الدين حسن النحريرى الحنفى

ثبت لدى الشيخ القرافى المالكى ما يلى :

أولا : جريان الجهات الموقوفة والمعينة بكتاب الوقف فى وقف صرغتمش وصرفها فيما عين بكتاب الوقف المذكور بالسماع الفاشى بالاستفاضة والخبر الشائع والنقل الصحيح المتواتر من مدة تزيد على عشرين سنة ، وأن الجهات المذكورة لم تزل محوزة بحوز الأحباس محترمة بحرمتها . واضعين الأيدى لجهة الوقف على ذلك (١) .

ولما ثبت لديه ذلك ثبوتا صحيحا شرعيا ، حكم بموجب ذلك وأشهد على نفسه بذلك فى ٢٤ ذى القعدة سنة ٩٦٤ هـ (٢) .

ثانيا : ما نسب لقاضى القضاة مولانا أفندى محمد شاه الناظر سابقا فى الأحكام الشرعية بالديار المصرية من الاذن الصادر منه فى ١٧ محرم سنة ٩٧٤هـ فى كتابة هذه الصورة أو النسخة أو المثال ومقابلته على الأصل المنقول منه بشهادة شهيدية ثبوتا صحيحا شرعيا تاما معتبرا مرضيا وأشهد على نفسه بذلك فى ٢٤ رجب سنة ٩٧٤ هـ (٣) .

* * *

والوثيقة بحالة جيدة وهى مكتوبة بخط واضح مقروء ، ونجـد فى كل صفحة من صفحاتها خمسة عشر سطرا ، وتتراوح عدد الكلمات فى كل سـطر ما بين ١٠ ــ ١٢ كلمة ، كما نجد بنهاية الصفحات الفردية الأرقام من أسفلها روابط النص (catch words) ، كما يوجد على الهامشين الأيمن والأيسر لبعض

---

(١) الوثيقة ص ٤٩ .

(٢) الوثيقة ص ٤٩ .

(٣) الوثيقة ص ٥٠ .

صفحات الوثيقة عناوين موجزة أو رءوس موضوعات لما هو وارد فى المتن تفصيلا [1] .

كما يوجد على صفحة العنوان لهذه الوثيقة النص التالى :

« هذه صورة كتاب الوقف المنسوب الى الجناب الأميرى الكبيرى

صاحب الخيرات والمبرات صرغتمش الناصرى تقبل الله أعماله

نسخت عن أصلها بمعرفة الفقير الى رحمة الملك الأعظم محمد بن صرم (؟) المولى بالقاهرة المعزية المحمية » [2] .

وقد أثبتت بعد ذلك فى أوائل الثلاثينيات من هذا القرن العبارة التالية :

« هذه الحجة اشتريت من السيد محمد أمين الخانجى المكتبى بمبلغ ٣٠٠ ثلثماية قرش » ١٩٣٠/١١/٢٤ .

ونحن لا نعرف كيف وصلت هذه الوثيقة الهامة الى هذا الكتبى ، ولكن الشيء الذى يذكر بالفضل لوزارة الأوقاف وتشكر عليه ، هو حرصها على اقتناء الوثيقة عن طريق الشراء وضمها الى مجموعة وثائقها التاريخية النادرة والقيمة فى آن واحد .

---

(١) الوثيقة ص ٧ ، ٩ ، ١٢ — ١٣ ، ١٧ — ١٨ ، ٢٦ — ٣٧ .

(٢) نجد بعد هذه العبارة خاتم بيضى الشكل مكتوب فى مركزه « عز من قنع وذل من طمع » .

النص الأول

بسم الله الرحمن الرحيم الحمـــد لله وحده وصلـــواته على سيدنا محمـــد نبيه وآله وصحبه وسلامه [١]ﻫ هذا كتاب وقف صحيح شرعى وحبس صريح دايم مرعى لا ينتسخ حكمه ولا يندرس رسمه ولا ينقطع ثوابه وأجره ولا يضيع عند الله الكريم جزآؤه وبره اكتتبه المقر الشريف[٢] العالى المولوى الأميرى الكبيرى العضدى الذخرى النصيرى المجاهدى المرابطى الغوثى الغياثى الكهفى المقربى المؤتمنى الملاذى السيفى عز الاسلام والمسلمين ركن الغزاة والمجاهدين ملجأ القاصدين ممهد الممالك عضد الدول ظهير السلاطين كهف الفقرا والمساكين[٣] صرغتمش[٤] الناصرى رأس نوبة الأمرا الجمدارية[٥] الملكية الناصرية تقبل منه أعماله وبلغه من خيرى الدارين آماله وأشهد على نفسه الكريمة وهو فى حال صحته وسلامته[٦] أنه وقف وحبس وسبل وابد وحرم وتصدق بجميع ما هو له وفى يده وملكه وتصرفه واختصاصه وحيـــازته [٧] فمن ذلك جميع المكان المستجد الانشا والعمارة وما هو من حقوقه أرضا وبنآ المعروف بانشآيه وعمارته وذلك بظاهر القاهرة المحروسة خارج بابى زويله[٨] بخط الكبش وبير الوطاويط على يمنه السالك من الكبش وتربتى المقر العالى السيفى سلار والمقر العالى العلمى سنجر الجاولى طالباً بير الوطاويط (ص ٢) والصليبه وسوق الخيل وغير ذلك وعلى يسره السالك من الأماكن المذكورة طالباً التربتين المذكورتين والكبش وغير ذلك يشتمل ذلك جميعه على بابين احدهما كبير مربع[٩] بعتبة سفلى صوانا وعليها من الحجر المطبق[١٠] يعلوها صدر[١١] بحجر الما به شباك يعلوه مقرنص[١٢] بالحجر مذهب وبيمنه الباب ويسرته طراز[١٣] مذهب والباب المذكور يغلق عليه زوج أبواب من الخشب الجوز بكل من جانبيه مسطبه بالحجر المطبق وفيما بين المسطبتين المذكورتين ساحة مفروشة بالرخام الملون[١٤] يتوصل إلى ذلك

من سلمين حجرا [١٤] بالطريق يدخل من الباب المذكور إلى دهليز مفروش الأرض بالرخام الملون [١٤] وهو معقود [١٥] بالحجر بصدرة مصطبه مفروشه بالبلاط وواجهتها بالرخام وبالدهليز المذكور أربعة ابواب (ختم) احدها معقود [١٦] على يمنه الداخل عليه زوج ابواب يدخل منه إلى سلم لطيف يصعد من عليه إلى مكان برسم مكتب السبيل به خزانة وشباك مطل على الطريق وهو معقود بالحجر والباب الثانى يقابله يغلق عليه زوج ابواب يدخل منه الى بيت معقود والباب الثالث عليه زوج ابواب يدخل منه الى مجاز به سلم يصعد من عليه إلى ثلاث بيوت يحوى كل منها مرافق وحقوقا وبالمجاز المذكور باب معقود يغلق عليه فرده باب يدخل منه (ص٣) الى الميضاه الآتى ذكرها فيه والباب الرابع معقود بغير باب عليه يدخل منه الى سلم لطيف مرخم يصعد من عليه الى مجاز به سلم مبنى بالحجر يصعد من عليه الى أربع بيوت يغلق على كل منها زوج أبواب مسقفه نقيا ويصعد من السلم المذكور الى خمس بيوت على كل منها زوج أبواب مسقفه نقيا وجميع ذلك مفروش الأرض بالبلاط الكدان مسبل الجدر [١٧] بالبياض ثم يتوصل من السلم المذكور الى السطح العالى على ذلك وبه ميدنه [١٨] مبنيه بالحجر النحت ثم يتوصل من المجاز المذكور الى باب عليه زوج أبواب يدخل منه الى صحن [١٩] المكان المذكور المشتمل على اربع اواوين متقابلات أحدها وهو القبلى [٢٠] بصدره محراب [٢١] مرخم مذهب بكل من جانبيه عمود رخام يعلوه صدر مرخم مذهب ويعلو الايوان المذكور قبه [٢٢] مدهونه مذهبه وبه سدلتان [٢٣] يمنه ويسرة مسقفتان مصوقتان [٢٤] بالذهب وبه رخام قايم الى الانبداريه [٢٥] بواجهته قوصره [٢٦] معقوده والايوان الثانى يقابله بسقف بسط مدهون بسراويلات [٢٧] مدهونه مذهبه وبه رخام قايم الى الانبداريه وبه شباك مطل على الطريق المسلوك وبه باب عليه زوج أبواب يدخل منه الى مكان مفروش الأرض بالرخام الملون [٢٨] (ص ٤) به رخام قايم الى الانبداريه يعلوه قبه [٢٩] مبنيه بالطوب والجبس وبالجهة البحرية منه مدفن [٣٠] وبه شبابيك مطلات على الطريق المسلوك وبالقبه المذكورة طاقات زجاج والايوان الثالث بالجهة الشرقية وهو بسقف شامى [٣١] مدهون به رخام قايم الى الانبدارية والايوان الغربى كذلك

والاواوين المذكورة مفروشة الأرض بالبلاط الكدان بواجهتها اتروفيات [٣٢]
وكراسى رخام وبصحن المكان المذكور فسقية [٣٣] من الحجر المطبق برسم
خزن المـآ يتوصل المآ اليها من البير والساقية الآتى ذكرهما فيه وبصحن المكان
المذكور ستة عشر بابا يغلق على كل منها زوج ابواب خشب جوز أحدها
باب (ختم) الدخول والباب الثانى يجاور الايوان الشرقى من الجهة القبلية عليه
زوج أبواب يدخل منه الى مجاز بهبيت أزيار كبير يعرف بالمزملة [٣٤] وبالمجاز
المذكور باب عليه فرده باب يدخل منه الى بيت به شباك [٣٥] مطل على
الدهليز الأول المذكور فيه وهو معقود ثم يتوصل من المجاز المذكور الى بيت
كبير مسقف نقيا يعلوه شباك والباب الثالث يجاور الباب الثانى المذكور فيه من
الجهة القبلية عليه زوج أبواب يدخل منه إلى بيت يعرف بخزانة الكتب [٣٦]
والباب الرابع يجاور الباب الثالث المذكور فيه (ص ٥) من الجهة القبلية يدخل
منه إلى مجاز به باب عليه فرده باب يدخل منه إلى بيت لطيف وبه باب آخر عليه
فردة باب يدخل منه إلى بيت يعرف بحاصل القناديل [٣٧] وبالمجاز المذكور سلم
يصعد من عليه إلى ثمانية وعشرين بيتا مسقفة نقيا يغلق على كل منها باب وذات
المرحاضين والمرافق والحقوق وبالمجاز المذكور باب آخر عليه زوج أبواب يدخل
منه إلى بيت مسقف نقيا والباب الخامس يجاور الباب الرابع المذكور وهو بلصق
كتف الايوان القبلى المذكور يغلق عليه زوج أبواب يعرف بسكن الخادم وثلاثة
أبواب يدخل من كل منها إلى بيت معقود على كل منها زوج أبواب وأما الثمانية
بيوت الباقية فانها فى الجهة الغربية من المكان المذكور يغلق على كل منها زوج
أبواب فأحدها بجوار كتف الايوان البحرى من الجهة الغربية يدخل منه إلى بيت
يعرف بسكن الخادم أيضا والثانى يجاوره يدخل منه إلى دهليز به بيت معقود عليه
زوج أبواب وبالدهليز المذكور سلم يصعد من عليه إلى أربع بيوت مسقفه نقيا
على كل منها باب ثم يتوصل من السلم المذكور إلى سبع بيوت مطلات على صحن
المكان المذكور وعلى الطريق على كل منها باب ومنها بابان يدخل من كل منهما
إلى بيت بشباك مطل على الطريق المتوصل منها إلى الجامع (ص ٦) الطولونى
ومنها بابان يدخل من كل منهما إلى بيت معقود عليه زوج أبواب والبابان الباقيان
أحدهما على كتف الايوان القبلى من الجهة الغربية عليه زوج أبواب يدخل منه إلى

بيت معقود والباب الآخر عليه زوج أبواب يدخل منه إلى مجاز به ثلاث
بيوت على كل منها فرده باب وبالمجاز المذكور سلم يصعد من عليه إلى ستة عشر
بيتا مسقفة نقيا على كل منها باب وذات الاسطحه العاليه على ذلك والمرافق
والحقوق والباب الثانى من بابى هذا المكان معقود عليه زوج أبواب يدخل منه إلى
سلم يصعد من عليه إلى مجاز معقود مفروش الأرض بالبلاط الكدان يتوصل منه
إلى الميضاه المذكورة المشتملة على عشرين بيتا بكل منها حوض (ختم) برسم المآ
على كل منها باب منها اثنان محمان وبوسطها فسقية من الحجر المطبق يتوصل المآ
اليها من البئر والساقية الآتى ذكرهما فيه وذات المرافق والحقوق ويحيط بذلك كله
حدود أربعة الحد القبلى ينتهى إلى جدار الجامع الطولونى والبحرى إلى الطريق
المسلوك منها إلى الكبش والصليبه وغير ذلك وفيه البابان والشبابيك والطاقات
والحد الشرقى ينتهى إلى الربع والحوانيت (ص ٧) الآتى ذكرهما فيه وإلى
المسجد [٣٨] المستجد الانشآ الذى هناك والحد الغربى ينتهى إلى الطريق المسلوك
منها إلى سلالم باب الجامع الطولونى وفيه شبابيك من حقوق ذلك ومن ذلك جميع
الربع والحوانيت وما هو من حقوق ذلك والبئر والساقية وما هو من حقوقها
الكامل ذلك كله أرضا وبنآ وذلك بالخط المذكور فيه بجوار المدرسة المذكورة
من الجهة الشرقية يشتمل ذلك على ثمان حوانيت شارعه بالطريق المسلوك مبنية
بالحجر الفص النحيت [٣٩] كل منها بمسطبه[٤٠] وداخل معقوده بالطوب والجبس
عليها دراريب [٤١] . . . .

. . . .

. . . .

النص الثانى

ص (٢٣) . . . .

. . . .

وقفا صحيحا شرعيا وحبسا صريحا دآيما مرعيا لا يباع أصل ذلك ولا يوهب ولا يرهن ولا يملك ولا يورث ولا يستبدل به ولا يناقل به ولا يحل عقد من عقوده قآيما على أصوله محفوظاً على شروطه لا ينتقل إلى ملك أحد من ساير الناس أجمعين كلما مر عليه زمن أكده وكلما أتى عليه أوان سدده وأطده فهو مدفوع عنه بقوة الله محرما بحرمات الله تعالى مبتغا فيه مرضات الله يستمر دآيما إلى أن يرث الله تعالى الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين على وجوه البر والقربات ومصارف الأجر والمثوبات على ما يأتى ذكره مبينا وشرحه مفصلا معينا فأما المكان المبدأ بذكره الذى بخط الكبش المشتمل على الأواوين الأربعة والبيوت وما هو من حقوق ذلك فان الواقف المسمى فيه احسن الله إليه وقف ذلك مدرسة برسم الأشتغال بالعلم الشريف ونشره وافادته وإحياء ذكره وتعليمه وتفهيمه وتقام فيه الصلوات وتصلى فيه الجماعات (ص ٢٤) ويقرأ فيها كتاب الله الكريم ويذكر فيها اسمه العظيم ويتلى فيها حديث النبى عليه أفضل الصلاة والتسلم وأذن للمسلمين فى الدخول إليها والصلاة فيها (٤٢) وأما البيوت السفلية والعلوية التى بالمدرسة المذكورة فان الواقف المسمى أحسن الله إليه وقف ذلك برسم سكن الفقهآ وأرباب الوظايف بالمدرسة المذكورة ويجعل فى بعض ذلك ما يكون بالمدرسة المذكورة حاصلا من

القناديل والزيت والحصر والبسط وغير ذلك كل ذلك على الوجه الذى يراه الناظر فى ذلك . وأما الفسقية التى بصحن المدرسة المذكورة فوقفها لخزن المآ الواصل إليها من البئر والساقية المذكورتين اعلاه لينتفع بذلك أرباب الوظآيف بالمدرسة المذكورة من الفقهآ وغيرهم ومن يرد اليها فى وضوءيهم وانتفاع مثلهم بمثل ذلك على العادة فى مثله وأما المدفن (ختم) الذى بالقبه المذكورة فانه أرصده لدفنه خاصة [٤٣] ودفن من ينتقل إلى الله تعالى من أولاده وذريته وعقبه ونسله يجرى ذلك على الدوام والاستمرار . وأما الميدنة المذكورة فوقفها لان يعلن فيها بالآذان والتسبيح والتذكار على العادة فى مثل ذلك . وأما المكان الذى بدهليز هذه المدرسة المذكورة الذى ذكر أنه برسم مكتب السبيل [٤٤] فان الواقف المسمى أحسن الله تعالى إليه وقف ذلك (ص ٢٥) على ن يستقر فيه الايتام ومؤدبهم للقرآة على الوجه الآتى ذكره فيه وأما الميضاة المذكورة فوقفها لأن ينتفع بها أرباب الوظآيف بالمدرسة المذكورة من الفقهآ وغيرهم والواردون اليها انتفاع مثلهم بمثل ذلك على العادة فى مثله . وأما البئر والساقية فانه وقف ذلك على أن يجرى المآ منه إلى الفسقيتين المذكورتين وما هو من حقوق ذلك من حوض وغيره على العادة فى مثل ذلك . وشرط الواقف المسمى أحسن الله اليه أن يفرش من داخل باب صحن المدرسة المذكورة حصير [٤٥] ليمنع الداخل اليها من المشى على الرخام بنعله وأن لا يمكن أحد من الاستنجآ حول الفسقيه المذكورة ولا من الوضوء داخل الفسقية المذكورة بل يغترف منها ويتوضأ خارجها ولا يلقى فيها شىء من المستقذرات مثل البصاق وغيره لتكون سالمة من الادناس محفوظة من الاقذار والأرجاس باقية على حكم النظافة والتطهير سالمة من شوايب التكدير . وأما باقى الموقوف المذكور فيه فان الواقف المذكور أدام الله نعمته وقف ذلك على الوجه الذى يشرح فيه وهو أن الناظر [٤٦] فى هذا

الوقف والمتولى عليه يؤجر[٤٧] ذلك وما شا منه لمدة ثلاث سنين كوامل فما دونها باجرة المثل (ص ٢٦) فما فوقها ولا يزيد على المدة المذكورة ولا يدخل عقدا على عقد حتى تنقضى مدة العقد الاول ويستغل ريع ذلك بوجه الاستغلال الشرعى ويبدأ من ذلك بعمارة ما يحتاج إلى عمارته[٤٨] بالموقوف المذكور فيه وإصلاحه وما فيه دوام منفعته وما فضل بعد ذلك يصرف فيما يذكر فيه وهو أن الناظر فى هذا الوقف يرتب شخصا من الفقهآ الحنفية تكون فيه أهلية الاشتغال بمذهبه ويكون افقه الحنفية بالديار المصرية على أنه (ختم) يكون مدرسا[٤٩] بالمدرسة المذكورة ويرتب معه من الفقهآ الحنفية ثلاث معيدين[٥٠] يكون فى كل منهم أهلية الاشتغال بمذهبه ويرتب الناظر معهم من الطلبة الحنيفة الغربا ستين نفسا على أن المدرس المذكور يجلس بالايوان القبلى المذكور والمعيدون والطلبة حوله ويقرءون ما تيسر لهم قرآته من القرآن العظيم من ربعه[٥١] شريفه يطاف عليهم بأجزآيها ويدعون عقيب ذلك للواقف المذكور ولذريته ولجميع المسلمين ثم يقرأ المعيدون المذكورون على المدرس المذكور ثلاث دروس من الفقه على مذهب الإمام أبى حنيفه رضى الله تعالى عنه فكل معيد يقرأ درسا واحدا من كتاب يعينه له المدرس المذكور فى الفقه على مذهب الإمام أبى حنيفة رضى الله تعالى عنه (ص ٢٧) فكل معيد يقرأ درسا واحدا يقرأ المعيدون المذكورون مما يعينه لهم المدرس المذكور واحدا بعد واحد والطلبة يسمعون ذلك ويبحث من فيه أهلية البحث من الطلبة المذكورين ويبين المدرس المذكور للطلبة المذكورين ما يشكل عليهم من ذلك من كشف غامض أو حل مشكل وكل واحد من المعيدين المذكورين يحضر قبل المدرس أو يتأخر بعده ويشغل من يحضر اليه من الطلبة المذكورين فى العلوم الشرعية خاصة ويبين لهم ما يشكل عليهم فيما يشتغلون فيه عليه من العلوم الشرعية خاصة من حل مشكل

المصارف

الشيخ المدرس بالمدرسة المذكورة

ذكر المعيدين والطلبة

وكشف غامض وما عسر عليهم فهمه ويحثهم على الاشتغال ويسلك معهم مسلك الافادة والتعليم ويكون حضورهم للدرس فى أربعة أيام (٥٢) وهى السبت والأحد والثلاثا والاربعا من كل أسبوع ووقت جلوسهم فى كل يوم من الايام المذكورة فيما بين طلوع الشمس إلى الزوال ويلازمون الدرس فى الايام المذكورة على الدوام والاستمرار خلا شهر رجب وشهر شعبان وشهر رمضان والعشرين من شوال من كل سنة فانهم يبطلون (٥٣) حضور الدرس فى هذه المدة ثم يشرعون فى حضور الدرس ويحضرون فى الحادى والعشرين من شوال إلى سلخ ذى القعدة ويبطلون الدرس من مستهل ذى الحجة إلى آخر الخامس عشر منه ثم يحضرون للدرس (٢٨) فى سادس عشر ذى الحجة ويبطلون يوم تاسوعآ ويوم عاشورآ من كل سنه يجرى ذلك كذلك فى كل سنة ومن انقطع منهم ثلاثة أيام من كل أسبوع بغير عذر قطع ونزل مكانه . وشرط الواقف المذكور أن الطلبة المذكورين يبيتون (٥٤) بالمدرسة المذكورة ويفسح لستة أنفس منهم (يعينهم المدرس المذكور) * فى المبيت خارج المدرسة المذكورة ومتى شغرت وظيفة أحد من الستة المذكورين رتب الناظر عوضه فى الوظيفة المذكورة ويشترط عليه المبيت فى المدرسة المذكورة يجرى ذلك فى حق الستة المذكورين فيه ومن قصد من أرباب الوظايف بالمدرسة المذكورة السفر إلى الحجاز (٥٥) الشريف فان كان سفره لادآء حجه الاسلام فيمكن من ذلك ويجرى عليه معلومه الى حين عوده فيستقر فى وظيفته على عادته (ختم) وان كان حج تطوع فيمكن من ذلك ويقطع معلومه ولا يصرف اليه شىء منه فاذا حضر استقر فى وظيفته وأجرى عليه معلومه على عادته يجرى ذلك كذلك . ويصرف (٥٦) الى المدرس المذكور عند قيامه بالوظيفة المذكورة فى كل شهر ثلثمايه درهم نقره (٥٧)

أيام المساحة المشروطة

شرط الواقف فيمن اراد السفر الى الحجاز من ارباب الوظائف

معلوم المدرس

* ما بين الحاصرتين سقطة من الناسخ أوردها على الهامش وبعدها لفظ « صح » ـ أنظر لوحات الوثائق ـ اللوحة رقم ٧

ومن الزيت الطيب[٥٨] خمسة أرطال ومن الصابون خمسة أرطال ويصرف له أيضا فى شهر رمضان من كل سنة خمسة أرطال سكر كل ذلك بالرطل المصرى[٥٩] . ويصرف (ص ٢٩) لكل معيد من المعيدين المذكورين فى كل شهر سبعون درهما نقره ورطلان ونصف رطل زيت طيب ورطلان صابون وفى شهر رمضان من كل سنة ثلاثة أرطال سكر . ويصرف لكل واحد من الطلبة المذكورين فى كل شهر خمسة وخمسون درهما نقره وزيت طيب رطلان ونصف وصابون رطلان وفى شهر رمضان من كل سنة رطلان سكر . ويكون من جملة الطلبة المذكورين شخصان نقيبين عليهم يضبطان عليهم الغيبة ويحضران الربعة الشريفة ويفرقانها ويعيدانها الى مكانها بعد فراغ القرآة منها يصرف لكل واحد منهما خمسة دراهم نقره فى كل شهر ليكمل لكل منهما بذلك ستون درهما نقره فى كل شهر . ويرتب الناظر فى هذا الوقف اماما [٦٠] حنفى المذهب من أهل الخير والصلاح يؤم بالمسلمين بالمدرسة المذكورة فى الصلوات الخمس وقت صلاة الحنفية ويصلى بهم قيام شهر رمضان [٦١] والصلوات المشروع لها الجماعة يصرف اليه فى كل شهر سبعون درهما نقره . ويرتب الناظر فى هذا الوقف شخصا من المحدثين [٦٢] يكون فيه اهلية الاشتغال بالحديث النبوى ويرتب معه خمسة عشر نفسا من المشتغلين بالحديث النبوى على أن الشيخ المذكور ينتصب بالمدرسة (ص ٣٠) المذكورة [فى الأيام المذكورة أعلاه وبشغل الطلبة المذكورين بالحديث النبوى ويبين لهم ما يحتاجون إلى بيانه فى ذلك على العادة ويدعون عقيب فراغهم للواقف المذكور ولذريته ولجميع المسلمين ويكون جلوسهم فيما بين صلاة الظهر التى يصلوها بالجامع الطولونى [٦٣] وإلى صلاة العصر . يصرف إلى الشيخ المذكور (فى كل شهر من النقرة مايه درهم واحدة نصفها خمسون درهما نقره ولكل واحد من الطلبة المذكورين)* فى

معلوم المعيدين

معاليم الطلبة

نقيبى الدرس من جملة الطلبة

الامام بالمدرسة المذكورة

شيخ الحديث الشريف

* ما بين الحاصرتين سقطة من الناسخ أوردها على الهامش وبعدها لفظ « صح » ـ أنظر لوحات الوثائق ـ اللوحة رقم ٨

كل شهر خمسة وعشرون درهما نقره . ويرتب الناظر فى هذا
الوقف من المقريين (٦٤) الحافظين لكتاب الله تعالى ثمانية وأربعين
نفسا على أنهم يقرؤن بالقبه التى بها المدفن المذكور أعلاه ان دفن
الواقف المذكور بها أو لم يدفن (٦٥) فى كل يوم وليلة ما يذكر فيه
فنهم ثمانية وعشرون نفسا يقرؤن القرآن العظيم (ختم) من بعد
صلاة المغرب إلى مضى أربع عشرة ساعة يقرأ كل أربعة منهم
نوبه واحدة مدة ساعتين ويهدون ثواب ذلك للواقف المذكور
ولذريته ويدعون له ولذريته ولجميع المسلمين يتداولون ذلك أربعة
بعد أربعة فاذا فرغ الثمانية والعشرون نفسا المذكورين قرآتهم
بعد مضى الأربع عشرة ساعة المذكورة قرأ القرآء الباقون وهم
عشرون نفسا عقيبهم كل أربعة مدة ساعتين على الوجه المشروح
فيه ويهدون نواب ذلك للواقف المذكور ولذريته ويدعون له
ولذريته ولجميع المسلمين بحيث تكون القرأة مستمرة ليلا ونهارا
على الدوام والاستمرار (ص ٣١) يصرف إلى القرآ المذكورين
ليلا فى كل شهر سبعمايه درهم نقرة وأربعة وثمانون درهما نقرة
بالسوية بينهم لكل واحد منهم ثمانية وعشرون درهما نقره فى كل
شهر . ويصرف إلى العشرين الباقين أربع مائة درهم نقره فى كل
شهر بالسوية بينهم لكل واحد منهم عشرون درهما نقرة . ويرتب
الناظر فى هذا الوقف رجلين مؤذنين (٦٦) من المؤذنين الحسنى الأصوات
يعلنان بالأذان والتسبيح والتذكار بالميذنة المذكورة على العادة
ويسلمان على النبي صلى الله عليه وسلم ليالى الجمع ويبلغان التكبير
خلف الامام تكبير الحنفية (٦٧) يرتبهما الناظر لذلك بالنوبة على
حسب ما يراه ويصرف لكل واحد منهما فى كل شهر ثلاثون درهما
نقره . ويرتب الناظر فى هذا الوقف أربعة أنفس يكونون فراشين
بالمدرسة المذكورة يفعلون ما يفعله أمثالهم فى مثل ذلك ويرتبهم
الناظر فى ذلك بالنوبة على حسب ما يراه من التناوب ويصرف

السادة القرا بالقبة داخل المدرسة

ذكر المؤذنين

ذكر الفراشين

إليهم فى كل شهر ماية درهم واحدة نقرة وعشرون درهما نقره
بالسوية بينهم لكل واحد منهم ثلاثون درهما نقرة ويزاد أحدهم
ممن يراه الناظر منهم فى كل شهر عشرة دراهم نقرة على أنه يستق
المآ بالمزملة المذكورة على العادة فى مثل ذلك . ويرتب الناظر أيضا

ذكر القيمين

شخصين يكونان قيمين بالمدرسة المذكورة يتوليان وقود [٦٨] ما بها
وبالميضاه (ص ٣٢) من القناديل وطفيها ومسحها ويفعلان ما يفعله
أمثالهما فى مثل ذلك يصرف إليهما فى كل شهر من النقرة ستون
درهما نقره بالسوية بينهما لكل واحد منهما ثلاثون درهما نقره .

ذكر البوابين

ويرتب الناظر فى هذا الوقف شخصين يكونان بوابين [٦٩] بالمدرسة
المذكورة وما هو من حقوقها يلازمان أبوابها ويمنعان من يدخل
إليها من أرباب التهم يصرف إليهما فى كل شهر ستون درهما نقره
بالسوية بينهما لكل واحد منهما ثلاثون درهما نقره . ويرتب الناظر

ذكر خادمى الميضاه

فى هذا الوقف شخصين برسم خدمة الميضاه المذكورة على أنهما
يقومان بكنسها وغسلها ومسحها وتفقد بيوتها ويفعلان ما يفعله
أمثالهما فى مثل ذلك يصرف إليهما فى كل شهر ستون درهما نقره
(ختم) بالسوية بينهما لكل واحد منهما ثلاثون درهما نقره .

ثمن البخور

ويصرف الناظر فى كل شهر عشرة دراهم نقرة ثمن بخور يبخر به
بالقبة المذكورة والمدرسة المذكورة . ويصرف أيضا ثمن ما يحتاج

ثمن الزيت والقناديل والحصر وغير ذلك

إليه من الزيت الطيب برسم الوقود بالمدرسة المذكورة وبالميضاة
وما هو من حقوق ذلك وثمن قناديل وسلاسل وحصر وبسط وشمع [٧٠]
يوقد وقت صلاة التراويح بالمدرسة المذكورة على ما يراه الناظر
فى ذلك ويزاد للزيت المذكور فى نصف شهر شعبان وشهر

ذكر الخادمين

رمضان من كل سنة على حسب ما يراه الناظر فى ذلك . ويرتب
الناظر خادمين زمامين [٧١] بالمدرسة (ص ٣٣) المذكورة يقيمان
بها دايما بالبيتين المذكورين أعلاه على أنهما يتفقدان المدرسة

المذكورة وبيوتها وما هو من حقوقها والقبة المذكورة أعلاه
ويترقبان حضور القرا المذكورين ويحثانهم على الحضور والقرآه
والملازمة ويضبطان عليهم الغيبة ويصرف لهما فى كل شهر ماية
وأربعون درهما نقرة بالسوية بينهما لكل واحد منهما سبعون درهما
نقرة . ويصرف الناظر للمدرس المذكور أعلاه فى كل سنة فى وقت
أوان البطيخ والعنب اثنى عشر درهما نقرة ولكل معيد ستة دراهم
نقره ولكل طالب من الطلبة المذكورين أعلاه ثلاثة دراهم نقرة .
ويصرف الناظر من ريع الوقف المذكور فيه فى كلفه نقل ماء عذب
من النيل المبارك[٧٢] فى كل يوم إلى المزملة المذكورة برسم شرب
المقيمين بالمدرسة المذكورة والواردين إليها من ثمن جمال ينقلون
عليها المآ وأجرة عمالين عليها وثمن عدة برسمها وعلفها على حسب
ما يراه الناظر فى ذلك . ويصرف ثمن ما يحتاج إليه من سفنج وعبى
برسم مسح الرخام والبلاط بالمدرسة والميضاة وما هو من حقوق
ذلك وتنظيفه وثمن ما يحتاج إليه من المكانس والأزيار والكيزان
والأباريق [٧٣]. ويرتب الناظر فى هذا الوقف شخصا حنفى المذهب
ثقة أمينا دينا يكون خازنا للكتب [٧٤] الختمات الربعات وغير
ذلك بالمدرسة المذكورة (ص ٣٤) يصرف إليه فى كل شهر خمسون
درهما نقرة وإن بدا من الخازن المذكور تقصير أو خيانة فى الكتب
استبدل الناظر غيره . ويرتب الناظر فى هذا الوقف شخصا يكون
سواقا بالساقية المذكورة يتولى ادارتها وخدمة الأبقار برسم الإدارة
واجرآ المآء منها إلى المدرسة والميضاه المذكورتين وما هو من حقوق
ذلك ويفعل ما يفعله أمثاله فى مثل ذلك يصرف إليه فى كل شهر
أربعون درهما نقره . ويصرف ثمن ما يحتاج إليه من البقر برسم
ادارة الساقية المذكورة وثمن علف برسمها وثمن قواديس وطوانس
واكلالات ومسمار وأجرة نجار وثمن خشب ودهن وغير ذلك مما
تحتاج إليه الساقية المذكورة . ويرتب الناظر فى هذا الوقف (ختم)
من الأيتام [٧٥] الفقراء الذين لم يبلغوا الحلم أربعين نفسا ويرتب لهم

ثمن بطيخ وعنب فى كل سنة للمدرس والمعيدين والطلبة

المآ العذب

ثمن سفنج وعبى وغير ذلك

خازن الكتب

ثمن ابقار برسم ادارة الساقية وتوابع ذلك

الايتام ومودبهم وعريفهم

مودبا (٧٦) من أهل الخير والصلاح على أن المودب المذكور يجلس هو والأيتام المذكورون فيه بالمكان الذى هو بدهليز المدرسة المذكورة المشار إلى ذكره أعلاه فى كل يوم خلا الثلاثا والجمعة وأيام البطالة (٧٧) الجارى بها العادة فى المكاتب بالقاهرة المحروسة ويقرىء الأيتام ما يطيقون (٧٨) قراته من القرآن العظيم ويعلمهم ما يحتملون تعلمه (٧٨) من الخط العربى (٧٩) والاستخراج فى كل يوم على العادة فى مثل ذلك ويصرف إلى المودب المذكور فى كل شهر أربعون درهما نقره ومن الخبز الطيب العلامة (٨٠) أربعة أرطال با لمصرى فى كل يوم (ص ٣٥) ويصرف لكل واحد من الأيتام المذكورين فيه فى كل يوم رطلان خبزا وسدس درهم نقره ويكسى (٨١) كل من الأيتام المذكورين فى فصل الصيف قميصا ولباسا وقبعا ونعلا فى رجليه وفى الشتا مثل ذلك ويزاد فى الشتا جبه محشوه بالقطن ويرتب الناظر شخصا يكون عريفا (٨٢) لهم مساعدا للمؤدب المذكور يصرف إليه فى كل شهر خمسة عشر درهما نقره وفى كل يوم رطلان خبزا

ثمن حلوى برسم الايتام وغير ذلك

ويصرف أيضا برسم الأيتام ومؤدبهم والعريف ثمن حلوى فى نصف شهر شعبان وفى أول شهر رجب من كل سنة ماية درهم واحدة وخمسين درهما نقرة فى كل وقت منهما خمسة وسبعين درهما نقره ويصرف ثمن ما يحتاج إليه الأيتام المذكورين من أقلام ومداد وألواح ودوى (٨٣) وحصر يجلسون عليها ويصرف فى عيد الفطر (٨٤) من كل سنة مايتا درهم نقرة يشترى بها كعكا وتمرا وبندقا وخشكنانا ويفرق ذلك على الأيتام ومؤدبهم والعريف على ما يراه الناظر فى ذلك . ويصرف فى عيد الأضحى (٨٥) من كل سنة ثمن راسين

الاضحية

من البقر يذبح ذلك ويفرق على المعيدين والفقهآ وأرباب الوظايف بالمدرسة المذكورة على ما يراه الناظر فى ذلك ويصرف للمدرس المذكور فى عيد الأضحى من كل سنة ثمن أضحية ستون درهما نقره ويصرف أيضا ثمن أضحية برسم الأيتام ومودبهم (ص ٣٦)

وعريفهم فى عيد الأضحى من كل سنة ماية درهم واحدة وخمسون
درهما نقره يذبح ذلك ويفرق عليهم على ما يراه الناظر فى ذلك.

ثمن تشريفين أحدهما للمدرس والثانى للامام

ويصرف أيضا فى شهر رمضان من كل سنة ثمن تشريفين ليلة الختم
بالمدرسة المذكورة خمس ماية درهم نقره منها ثمن تشريف للمدرس
المذكور ثلثماية درهم نقره وثمن تشريف للامام مايتا درهم نقره .
ويدخر [٨٦] الناظر فى كل شهر مايتى درهم نقره برسم ماتحتاج
إليه من العمارة بالمدرسة والربع والساقية وما هو من حقوق ذلك
فان استغنى عن ذلك أو عن بعضه صرف ما يستغنى عنه فى مصارف
الوقف المذكور فيه يضاف ذلك إلى ريع الوقف المذكور ويصرف
فى مصارفه ويدخر أيضا من ريع الوقف المذكور فيه ما يكفى
المصارف المذكورة عن سنة كاملة ليصرف ذلك عند الاحتياج
(ختم) إلى صرفه لأرباب الوظايف أما بسبب تأخير استخراج ريع
الوقف أو غلاء سعر فاذا صرفه أدخر نظيره من ريع الوقف
المذكور فيه فان صرف المبلغ المذكور أو بعضه فيدخر الناظر
نظير ما صرف بحيث يكون المبلغ المذكور مدخرا تحت يده بالمدرسة[٨٧]
المذكورة ليفعل فيه ما عين صرفه يجرى الحال فى ذلك كذلك على
الدوام والاستمرار . ويصرف (ص ٣٧) لمن ينظر فى الوقف

الناظر

المذكور بعد وفاة الواقف المذكور فى كل شهر مايتا درهم نقره .

شاهد الوقف

ويصرف أيضا لشاهد [٨٨] يتولى ضبط ريع الوقف المذكور
ومصروفه فى كل شهر ستون درهما نقره . ويصرف لكاتب يقوم

كاتب الوقف

بوظيفة الكتابة [٨٩] فى الوقف المذكور وتحصيل ريعه وضبطه
ومصروفه فى كل شهر ماية درهم واحدة نقرة . ويصرف ما يحتاج
إليه فى تحصيل ريع ذلك من أجره جاب[٩٠] وشاد[٩١] وغير ذلك يصرف
ذلك جميعه وما لعل الواقف المذكور يعين صرفه لجهات يختارها
إما بالمدرسة المذكورة وحقوقها أو بغيرها أو بها وبغيرها على ما
يراه يصرف ذلك كله من ريع الوقف المذكور فيه وما فضل[٩٢] بعد

ذلك جميعه يشترى به الناظر عقارا أرضا وبنآء أو أرضا أو بنآء
بمكان يراه ويوقف ذلك على أن يضاف ريعه إلى ريع الوقف
المذكور فيه ويصرف من ذلك ما عين الواقف المذكور فيه صرفه
فيه وما لعله يعينه والباقى يصرفه الناظر فيما يرى صرفه من زيادة
أرباب الوظايف المذكورين فيه فى عدد رؤسهم أو معلومهم أو فيهما
جميعا على ما يراه الناظر فى ذلك ويكون جملة ثمن ما يشترى به العقار
ثلثماية ألف درهم نقرة فانفضل شيء بعد صرف ثمن العقار المذكور
صرفه الناظر فيما يرى صرفه (ص ٣٨) من زيادة أرباب الوظايف
فى عدد رؤسهم أو فى معلومهم أو فيهما جميعا على ما يراه الناظر
فى ذلك فان تعذر الصرف إلى الجهات المذكورة أو إلى شيء منها
صرف ما تعذر صرفه فى وجوه البر والقربات ومصارف الأجر
والمثوبات المطلقة العامة (٩٣) على الوجه الذى يراه الناظر فى ذلك
فان عاد امكان الصرف إلى ما تعذر عاد الصرف إليه يجرى الحال
فى ذلك كذلك أبد الآبدين ودهر الداهرين إلى أن يرث الله
الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين وأن نقص ريع الوقف
المذكور فيه عن المصارف المذكورة وما لعله يعين صرفه لجهات
بر يختارها قسم ما يتحصل من ذلك بين الجميع بالمحاصة . وجعل
الواقف المذكور فيه النظر على الوقف (ختم) والولاية عليه لنفسه
أيام حياته وله أن يستنيب عنه فى ذلك ويوكل فيه من شآ ويعزله
ويعيده ويستبدل به إذا أراد وله أن يوصى بذلك ويفوضه ويسنده
لمن يختار وله عزل من يوصى إليه به واعادته والاستبدال به فان
مات عن غير وصية ولا إسناد أو وصى وتعذر نظر الموصى إليه
كان النظر فى ذلك لرأس نوبه الأمرا الجمدارية السلطانية الكبير
فيهم فان تعذر ذلك كان النظر فيه لامير حاجب الكبير حاجب

السلطنة المعظمة فان تعذر ذلك (ص ٣٩) كان النظر فيه لداودار السلطنة المعظمة الكبير فان تعذر ذلك كان النظر فيه لحاكم المسلمين الحنفي المذهب بالقاهرة المحروسة وللمدرس بالمدرسة المذكورة ينظران في ذلك ويصرف لهما المبلغ المذكور بالسوية بينهما لكل واحد منهما ماية درهم واحدة نقرة . وللواقف المذكور أحسن الله تعالى إليه أن يرتب في الوظايف المذكورة وماشآ منها من يرى ترتيبه بالمعلوم المذكور أعلاه أو بما يراه من المعلوم قليلا أو كثيرا وله عزل من يرتبه وإعادته والاستبدال به متى شآ بريبه وبغير ريبه وله أن يصرف من ريع الوقف المذكور ما يرى صرفه لأرباب وظايف يرتبها بالمدرسة المذكورة أو بغيرها أو بهما جميعا على حسب ما يراه . وله أن يصرف لأرباب الوظايف المشار إليهم أو لمن يراه منهم ما يرى صرفه من ريع الوقف المذكور فيه زيادة على ما ذكر فيه وله تنقصيهم وتنقيص من يرى تنقيصه منهم من معلومهم وله صرف ما ينقصه من ذلك لمن يراه من أرباب الوظايف المذكورة أو لغيرهم أو لأرباب وظايف اخر يرتبها بالمدرسة المذكورة أو بغيرها أو بها وبغيرها على حسب ما يراه . وله أن يشترط في حق أرباب الوظايف بالمدرسة المذكورة أو بعضهم وما لعله يرتبه من أرباب وظايف أخر بها (ص ٤٠) أو بغيرها ما يراه من الشروط وله تنقيصهم وتنقيص من يرى تنقيصه منهم من الشروط المشترطة عليهم فيه وله اختصار ما يرى اختصاره من الوظايف المذكورة فيه ويصرف ما هو مرتب لها لمن يراه اما بالمدرسة المذكورة أو بغيرها أو بهما جميعا على حسب ما يراه ويودى إليه اجتهاده . وله التصرف في ذلك كله بالزيادة والنقص والترتيب والولاية والعزل والاعادة وغير ذلك [٩٤]. كل ذلك راجع إلى رأيه ونظره متى شا كيف شآ . فاذا فعل شيأ من ذلك فليس للناظر بعده أن يغيره فاذا توفى

إلى رحمة الله تعالى ولم يفعل شيا من ذلك استقر الأمر على الوجه المشروح فيه وليس للناظر أن يفعل شيأ من ذلك (ختم) ومتى صدر من أحد من أرباب الوظايف المذكورين فيه ما يرى به الناظر صرفه فيصرفه ويرتب غيره . وإذا شغرت وظيفة أو أكثر منها من الوظايف بالمدرسة المذكورة كان للناظر أن يولى فيها من هو أهل لها [٩٥] كل ذلك بعد وفاة الواقف المذكور فيه . يجرى الحال فى ذلك كذلك أبد الآبدين ودهر الداهرين إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين . فقد تم هذا الوقف ولزم ونفذ حكمه وانبرم وصار وقفا على ما نص وشرح بأعاليه فلا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر ويعلم أنه إلى ربه الكريم صاير (ص ٤١) أن يغير هذا الوقف ولاشيأ منه ولا يبطله منه ولاشيا منه ولايسعى فى ابطاله ولا فى ابطال شىء منه فمن فعل ذلك أو أعان عليه فالله تعالى طليبه وحسيبه[٩٦] ومؤاخذة بفعله ومجازيه بعمله يوم لاتنفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار ولا يقبل الله منه صوما ولا صلاة ولا صدقة ولا زكى له قولا ولا فعلا ويلقى الله تعالى وهو غضبان عليه غير راضى عنه وجعله من الأخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا . ومن أعان على اثباته وتقريره فى أيدى مستحقيه وصرفه فى جهاته برد الله تعالى مضجعه ولقنه حجته وتقبل منه صومه وصلاته وصدقته وزكى قوله وفعله وأحسن مآبه وأعطاه بيمينه كتابه وجعله من الآمنين المطمئنين الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ويلقى الله تعالى وهو راضى عنه غير غضبان عليه فمن بدله بعدما سمعه فانما اثمه على الذين يبدلونه ان الله سميع عليم . ورفع الواقف المذكورفيه عن ذلك يد ملكه ووضع عليه يد ولايته ونظره واعترف انه رأى

المدرسة المذكورة والأماكن المجاورة لها وباقى الأماكن لم يره
وللواقف المذكور فيه أن ينشىء بالموقوف المذكور ما يرى انشآه
ويغرس ما أراد من الأشجار ويكون حكم ذلك حكم الوقف المذكور
فيه . واشهد عليه بذلك فى اليوم المبارك (ص ٤٢) السابع والعشرين
من شهر رمضان المعظم سنة سبع وخمسين وسبع مابة [٩٧] .

للبحث بقيـة
« التعليقات العلمية والمصادر واللوحات »
فى العدد القادم من المجلة

ماهيـــة الإنسان ومقوماته

فى العقائد المصرية القديمة

للدكتور عبد العزيز صالح
الأستاذ المساعد للآثار والحضارة المصرية القديمة
كلية الآداب ـ جامعة القاهرة

كرّم المصريون القدماء الإنسان ممثلا فى جنسهم ، من حيث أصله وصورته ، فتخيلوا أنفسهم أقراناً لإلهم الخالق (*rmṯ sn.nw n nṯr*)[1] ، و « صوراً من العلى » إمام السماء» (*ḫprw m ꜥ; ḫnty pt*)[2] ، صدروا عن بدنه(*n ḥꜥ.f*)[3]، ومن عينه ، أى من أعز ما فيه ، ومن دموعها(*ḫpr rmṯ pw m rmw pr m irt.i*)[4] وشجع ذلك قائلهم على أن يدعو لأخيه برضا ربه الذى فيه (*nṯr im.k*)[5] ، يعنى بذلك القبس الإلهى الذى يعمر قلبه أونفسه[6]. (وذلك اعتقاديختلف عن اعتقاد العراق القديم فى معبود يخصه يرعاه ويتعهده ويعتبره هو ربه وأباه المقدس الذى أنجبه).

وربطت العقائد المصرية القديمة بين الكيان المادى والمعنوى للإنسان فى دنياه وآخرته وبين عناصر ومقومات عدة ، طبيعية ومكتسبة ، تفاوتت الآراء قديما

---

(١) Papyrus Boulaq IV., 10, 7.

(٢) A. Piankoff, *The Tomb of Ramses VI*, p. 169.

(٣) Papyrus Petersburg 1116 A, rt. 132 ; A. Piankoff., *op. cit.*

(٤) Papyrus Boulaq XVIII, 3, 6 ; Apohis, 27,2-3 ; 27, 25;Cairo Ostracon 25207 (*ZAeS*, XXVIII, 23) ; Piankoff., *op. cit.*, 141, 169 ; J. Wilson, in *Ancient Near Eeastern Texts*, p. 8.

وعن التلاعب اللفظى بين رى أو رمو بمعنى الدمع وبين رمث بمعنى البشر :
See, *Wb.* II, 420.

(٥) K. Sethe, *Urk. IV*, 117, 12 ; 149, 4 ; J. Tylor and F.Ll. Griffith, *The Tomb of Paheri*, p1. IX, 21 ; P. Lacau, *Textes réligieux*, XLIV, 91.

(٦) راجع أيضاً ص ١٦٣ وص ١٨٤

وحديثا فى تحديدها ، وفى بيان وظائفها ، وفى كيفية تقديم الأصل على الفرع فيها .
ومن أهم ما رددت النصوص المصرية ذكره من عناصر الإنسان ومقوماته سبعة :
جسم مادى (خت) ، وقلب مدرك أولب (إب) ، ونفس فاعلة أو طاقة (كا) ،
وروح تسرى فى الباطن والظاهر (با) ، ونورانية تتكشف فى الآخرة (آخ) ،
وظل ملازم (شوت) ، واسم شخصى أو سمعة (رن) .

ومع هذه العناصر الرئيسية ، قدر المصريون بعض الأهمية لما يحيط بكل إنسان
من ظروف مؤثرة مثل « مسخنت » أى موضع الولادة أو مسقط الرأس؛ وأخرى
قدرية كالحظ أو النصيب (شاى أو شايت) ؛ وصفات شخصية كالهيئة والقوة
البدنية ؛ وأخرى مكتسبة كالمهارة والمعرفة . وذلك إلى جانب صفاتٍ علوية خصت
النصوص الفراعنة بها ، ومنها الإدراك اللدنى والنطق الخالق أو الإيحاء (سيا ،
وحو) .

ولم يكن من المتوقع أن تثبت آراء المصريين عن هذه العناصر والمقومات على
حال واحدة خلال عشرات القرون التى عاشتها حضارتهم القديمة ، أو فى سياق
نصوص طوائفهم ذات العقليات المتباينة ، وإنما كان من البديهى أن تتعدد تأويلاتهم
لها باختلاف ثقافاتهم واختلاف عهودهم . ويبدأ البحث التالى بمناقشة أقل هذه
العناصر غموضا .

٭ ٭ ٭

الجســـد :

عبر اللفظ المصرى « خت » (أوخات) [١] عن الجسد بكل ما يتصف به
من مادية وتركيب وشهوة ، وعبر فى الوقت ذاته عن كل مجموعة أعضاء ، فدل
على معنى الجماعة والجيل والرعيل [٢] ، ورادفه فى ذلك لفظ « حع » ثم لفظ
« جت » ، ودل هذا الأخير على معنيين متقابلين ، فشابه لفظ الجتة فى اللغة العامية
الحالية ، كما استخدم فى عبارات التأكيد بالنفس [٣] . (ووردت مثل هذه المقابلة

---

(١) *Wb.* III, 356 ; *Pyr.* 474 a.

(٢) See, A. H. Gardiner, *The Admonitions of an Egyptian Sage*, p.82.

(٣) راجع عن تسميات أخرى للجسم قليلة الشيوع :
Wb. II, 492 ; III, 37 ; IV. 180. 555.

فى لغات سامية أخرى ، فدلت كلمة نفش الآرامية وكلمة نفس العربية على معنى النفس والجسد فى آن واحد ، فضلا عن معنى النصب) .

وكان من حديث الحكيم المصرى بتاح حوتب عن طبيعة الجسد قوله ، وهو يعظ ولده : « لا تردد البهتان ولا تتسمعه فانه وليد جسد فائر » [١] ، وقوله : « إن الثقة هو من لا يستمع إلى نداء بدنه » [٢] ، وقوله : « إذا ضل الفؤاد وأطاع جسده يكون قد أحل صغاره محل حبه . . . ، ومن أطاع بدنه كان عدو نفسه »[٣].

وقال الحكيم كايرسو (؟) : « خسئ من شره بدنه » [٤] .

وقال الحكيم آنى : إن بدن الإنسان أوسع من الشونتين الملكيتين ، يتسع لكل جواب ، فتخير خير الحديث وتكلم صوابا ، واحتفظ بسيئه فى جوفك » [٥] .

وردت المذاهب المصرية مادية الجسد إلى طين الأرض ، وقالت « إن الإنسان من طين وعصافة والإله مسوّيه » [٦] . ولا ندرى إن كان هذا التصور المصرى ، الذى قالت الكتب السماوية بمثله ، من بنات أفكار أصحابه أم أوحى إليهم به عن طريق رسل لم تصلنا أنباؤهم . ولكننا نعرف من جهة أخرى أنه ظهر له ما يشبهه عند بعض أصحاب الحضارات القديمة الذين عاصروهم ومنهم الأكديون الذى روت أساطيرهم أن ربتهم أرورو غسلت يديها وقبضت قبضة من طين الأرض وشكلتها بشرا [٧] .

وأطلق المصريون على إلههم الذى تخيلوا أنه أول من شكل الإنسان من صلصال اسم « خنوم » أو « خنمو » ، ربما بمعنى المشكل [٨] ، أو المجمِّع ، مجمِّع أعضاء

---

(١) Pap. Prisse, 350-352.

(٢) *Ibid.*, 235.

(٣) *Ibid.*, 243-244, 248.

(٤) *Ibid.*, I, 10 ; *J. E. A.* XXXII, 73.

(٥) Pap. Boulaq IV, VII, 9, f.

(٦) Brit. Mus. Pap. 10474, XXIV, 13-14.

(٧) E. A. Speiser, Akkadian Myths ... , in *Ancient Near Eastern Texts*, ed., by J. B. Pritchard, 1955, 74.

(٨) A. M. Badawi, *Der Gott Chnum*, 14.

الإنسان (ومجمع الماء فى منطقة الشلال التى كان يقدس فيها والتى اعتقد بعض المصريين أن النيل ينبع منها أو يولد فيضانه فيها) (١) .

وأشركوا معه فى عملية الخلق عددا من الربات اعترافا إجماليا منهم بأثر الأنثى فى تكوين الأجنة، ولأسباب محتملة أخرى تتصل بمفهوم أسماء هذه الربات ورموزهن.

فقد كانت منهن «مسخنت»، التى عبر اسمها ورمزها عن مكان الولادة ومهد المولود، سواء صور هذا المهد على هيئة قالبين من الطوب فى بيت فقير (٢) ، أم صور على هيئة سرير فخم فى قصر كبير (٣) . وذلك مما يمكن الترجمة عنه بنوع مسقط الرأس أو البيئة الأسرية للطفل، فقيرة كانت أم ثرية.

ومنهن «رننت»، وكان لاسمها المصرى ورمزها الإلهى صلة بمعنى كلمة المربية وعملية التربية، وصلة بأمانى السعد والحماية للمواليد (٤) .

ثم «حقت» التى رمز أصحابها إليها بجسم أنثى ورأس ضفدع . ولعلهم افترضوا فى صورة الضفدع بمظهرها الأغبر وجلدها المغضن ما يمثل مرحلة عتيقة من صور الخلق الأولى فى عالم الكائنات. أو لعلهم رأوا فى كثرة ما تتوالد به الضفادع ما يمكن الرمز به إلى الكثرة العددية التى تعاقبت بها بقية كائنات الأرض والماء.

وهكذا قال المصريون: «إن مسخنت وخنوم خلقا البشر» (٥) . وقالوا: «تعاونت حقت ورننت ومسخنت منذ الأزل فى خلق البشر» (٦) .

* * *

القلب والفكر:

عبر لفظ «إب» فى اللغة المصرية القديمة عن القلب وعما ينصرف لفظ القلب إليه فى اللغات السامية من معانى العقل والوعى والضمير والنية والإرادة

---

(١) عن مناقشة خاصة مع المرحوم الدكتور جرجس متى.

(٢) *Wb.* II, 148 ; Pap. Westcar, X, 10 ; Maspero, *Les contes populaires*, 48 ; Griffith, in Hasting's *Encycl. of Religion*, II, 646 ; Crum, in *J. E. A.* 1942, 69 ; Pillet, in *ASEA*, 1954, 86 f.

(٣) E. Naville, *Dier el Bahari*, II. pl. LI ; Gayet, Louxor, pl. LXV.

(٤) *Wb.* II, 436 f.

(٥) *P. S. B. A.*, XVIII, 196.

(٦) *Urk.* IV, 389.

والوجدان والشعور ، فضلا عن دلالته على عضو مادى فى بدن الإنسان . وشاركت لفظ إب فى أغلب معانيه كلمة « حاتى » ، مع تعبيرها عن معنى الصدر أحيانا [١] .

وكان من أبرع ما وصف المصريون القلب به بمعنى العقل والضمير أن قالوا : « قلب الإنسان هو ربه » [٢] ، و«هو معجزة الرب (أو وحيه) فى كل بدن ، وطوبى لمن هداه إلى خير سبيل للعمل » [٣] . وقالوا : « للقلب واللسان سيطرة على أجزاء البدن » [٤] ، و « إن قلب الإنسان هو حياته ونعيمه وسلامته » [٥] .

وقالوا فيه بمعنى السريرة : « استقامة القلب (أىالسريرة) أليق بالحاكم » [٦]. و« إن خصال إمرئ قويم القلب (أى السريرة) لأكثر قبولا عند الرب من فحل (يضحى به إليه) رجل اعتاد الشرور » [٧] . وقالوا فى وصف أحد أخيارهم : « مفتوح القلب (واضح النية) نقى السريرة » [٨] .

وقالوا عن مركزة المشاعر فى القلب « إن ما تراه العينان وتسمعه الأذنان ويشمه الأنف ، يرقى جميعه إلى الفؤاد » [٩] .

---

(١) *Compare*, A. Piankoff, *Le coeur dans les textes égyptiens*, 1930 ; S. Morenz, *La Religion Egyptienne*, traduit, 1962, 97 f ; A. de Buck, in *Chr. d'Egypte*, 1946, 17 f.

وراجع عن تسميات أخرى للقلب قليلة الشيوع :

Wb. I, 155, 477 ; II, 365 ; III, 134, 135.

(٢) W. Wreszinski, *Wiener Inschriften*, 160 ; *Aegyptische Inschriften aus dem K. K. Hofmusem in Wien*, 110 f.

(٣) Louvre C 26 ; J. H. Breasted, in *ZAe S*, XXXIX, 47-48.

(٤) The Theology of Memphis (*Brit. Mus.*, 498, 54. *See also*, *B. D.* XXIX, 3.

(٥) Pap. Prisse, 552.

(٦) Pap. Petersburg 1116 A, rt., 46.

(٧) *Ibid.*, 128-129.

(٨) H. J. Polotosky, *Zu den Inschriften der* 11 *Dynastie*, 1929, 57, also, 67, 73 ; and see, Pap. Prisse, 550-551, 627 ; *Urk.* IV, 994 ; *Z Ae S*, XXXIV, 26, 3 ; B. Gunn, *Syntax* ..., 165.

(٩) The Theology of Memphis (*Brit. Mus.* 498) , 56.

وقالوا عنه بمعنى العزيمة « إنما القلب الجرىء رفيق لصاحبه فى مواطن الشدة »[١].

وقالوا عن مركزة إرادة الخير لدى الإنسان فيه « كبير القلب عطية الرب »[٢].

ثم وصفوا القلب بصفة شاملة فقالوا إنه « نثرى »[٣]، أى قدسى .

وكان من أمتع ما صوروا به مناجاة إنسان لقلبه بمعنى عقله ووجدانه ، قصة رجل ضاق بفساد الأمور فى عصره فقال يناجى فؤاده : « فؤادى ، طالما تألمت من أجل هذه الأرض التى نشأت فيها . وقد أصبح الصمت نقيصة ؛ فثمة أشياء يتحدث القوم عنها . . . ، وقد ولى زمان الرجل الكفء ، . . فمن أين تبدأ ؟ . . . لا تراع (فؤادى) فالأمر واضح أمامك ، وعليك أن تقاومه ، فقد أصبح المسئولون عن البلاد يأتون فيها أمورا ما كان ينبغى أن تحدث . . ، وتخربت الأرض وليس من يأسى عليها ، وليس من يتحدث عنها ، وليس من عين تبكى عليها . . . » إلخ[٤] .

وقصة رجل آخر ضاق بفتور الهمم وميوعة الأوضاع فى عصره ، فقال يناجى قلبه : « ليت لى من أحاديث غير مألوفة ، وحكم غريبة ، فى أسلوب مبتكر لم يسبق ، دونما تكرار ممل ودونما آراء سلفت وفاه بها السابقون . . . ، وحبذا لو تجاوب قلبى معى فأكشف له عن حزنى وألقى عليه حملا رسخ على ظهرى ، حديثا أهمنى . . حين أفكر فى أحداث وأمور جرت فى هذه البلاد . . . » .

وبعد أن فرغ الرجل من بث شكواه ، قال لقلبه : « هلم فؤادى إذن ، أحادثك وتجيبنى على حديثى وتفسر لى كنه ما يجرى فى هذه الدنيا . . . » وها قد قصصت عليك قلبى ، فأجبنى ، حيث لا صمت لقلب مقدام . . . بعد أن تزايدت المسئولية عليك . . . »[٥] .

---

(١) Brit. Mus. Pap. 5645, 13; A. H. Gardiner, *The Admonitions of an Egyptian Sage*, p. 104.

(٢) Pap. Prisse, 247.

(٣) Cf., *Wb.* II, 365, 5-7.

(٤) Pap. Petersburg 1116 B, 20 f.

(٥) Brit. Mus. Pap. 5645, rt., 7 f. ; vs. 5-6 ; A. H. Gardiner, *op. cit.*, p. 110 f.

وتخيل المصريون الرجل منهم يخاطب قلبه فى آخرته فيقول له : « (قلبي) يا وعى كلى وجودى (حرفيا : كل صورى) ، أنت كاهى (أى طاقتى) التى فى جسدى ، أنت جماع أعصابى ومبعث سلامتها . . . » [1] .

وعندما صوروا تخيلاتهم عن حساب الآخرة ، اعتادوا على أن يصوروا قلب الإنسان فى كفة الميزان ، وريشة العدالة فى كفته الأخرى ، واعتبروا القلب بذلك موضع النيات ، أو هم قد عنوا به العقل الذى كرم الإنسان به ويحاسب عليه .

وفطن الأطباء المصريون إلى تأثير القلب فى بقية أعضاء البدن ، وترجموا بعبارة كلام القلب ، عن نبضه ، وأوصوا بضرورة « قياسه » ، أى ضرورة اختبار قوة ضرباته ، حين تشخيص العلة فى أجزاء الجسم المختلفة [2] . وربما لم يهتدوا حينذاك إلى ملاحظة الدورة الدموية من القلب وإليه كما عرفها الإغريق بعدهم بقرون طويلة ، ولكن ما من شك فى أن معرفتهم بالاتصال الحيوى بين القلب وبين بقية أجزاء البدن كانت معرفة ذات بال بالنسبة لعصورهم البعيدة .

* * *

الطبع والتطبع :

ارتبطت بفكرة القلب والفكر والإرادة قضية كثر الجدل فيها فى المجتمعات المتحضرة القديمة والحديثة ، وهى قضية الطبع والتطبع واحتمال تغير الطبع من عدمه . وقد تجادل فيها فى مصر فريقان : فريق رأى أصحابه أن « كل إنسان قد تشكل وفق استعداداته » [3] ، وأنه « ما من جدوى فى تقويم المعوج ما دام كل إنسان قد تشكل وطبعه معه كأنه عضو فيه » [4] .

وفريق آخر آمن أصحابه بجدوى التعليم والتقليد فى تقويم الطباع ، وأبوا الاعتراف بأن « الجاهل والعالم سواء ، أو أن الحظ والفلاح نقشا مع الطبع فى صفحات الإله (أى فى لوحه المحفوظ) » . ورأوا من ناحيتهم أن « التهذيب

---

(١) *The Book of the Dead*, Ch. XXX B. *and variants.*

(٢) J. H. Breasted, *The Edwin Smith Surgical Papyrus*, 1930, 1 f.

(٣) A. Volten, *Studein zum Weisheitsbuch des Anii*, 1937, 137 f.

(٤) Petrie's Ostracon 11 rt, 4 ; see, Volten, *op. cit.*, 143.

خير لا عناء فيه » [١] ، وأن من المستطاع تحويل الطباع من حال إلى حال ، تتساوى فى ذلك الحيوانات كالفحل والسبع والجواد ، كما يتساوى الناس فيه على تباين ألسنتهم . واستشهدوا بفاعلية التقويم على الجماد ذاته فقال قائلهم : « إن الفرع الأعوج المهمل فى الخلاء ، والذى تداولت الشمس والظل عليه ، قد يتناوله صانع ماهر فيقوم اعوجاجه ويهيء منه عصياً (يعتمد عليها) الأشراف »[٢] .

٭ ٭ ٭

الاســم :

انصرف لفظ « رن » فى اللغة المصرية القديمة إلى معانى الاسم الشخصى والسمعة والشهرة . ورتبت النصوص المصرية على الأسماء وظائف عدة دفعت بعض الباحثين إلى القول بأن الاسم الشخصى فى مصر القديمة كان له شأن يزيد عما عرفته له سائر الشعوب قديمها وحديثها [٣] . وقد لا يخلو هذا الحكم من مبالغة ، وإن كان المصريون قد رتبوا على أسمائهم أهمية كبيرة فعلا ، فاعتبروا الاسم جزءا لازما من كيان صاحبه ، يتميز به فى دنياه ، ويتأكد به خلوده وسعادته فى أخراه [٤] ، ولهذا يتمنى ألا ينساه فيها [٥] ، كما يحرص على أن يردده الأحياء على آثاره بعد وفاته [٦] . وتخيلوا أن ما يلحق بالاسم من خير وشر يلحق كذلك بصاحبه ، وأن الإنسان يمكن أن يسيء إلى خصومه أحياء وأمواتا عن طريق الإضرار بأسمائهم بالمحو وبالسحر ولعنات الدين[٧] . وتخيلوا أن من يعرف اسم معبود أو كائن مقدس فى الآخرة يستطيع أن يتقى غضبه ويكسر شرته[٨] . واشتركت أسماؤهم مع أسماء غيرهم

---

(١) A. H. Gardiner, *Hieratic Papyri* ..., 3rd. series, vol. I, p. 43.

(٢) Pap. Boulaq IV, 10, 11 f.

وراجع عن القدر والحظ والنصيب فى المذاهب المصرية :

G. Thausing, in *Mitt. Kairo* VIII, 1939, 46 f.

(٣) See, H. Kees, *Totenglauben* ...., 79 f. and references.

(٤) *Pyr.* 764a- b ; 908 a-b, etc. ; *The Book of the Dead*, Ch. CXLIX.

(٥) *Ibid.*, Ch. XXV.

(٦) *Pyr.* 256 c-d ; 764 d, 899 b, 336 b, 1372 ; *Coffin Texts*, Disc. 48, 291 ; 38,162.

(٧) K. Sethe, *Aechtungstexte* ..., 1926 ; G. Posener, in *Mélanges Syriéns*, 1939, 313 f. ; *Chronique d'Egypte*, 1939, 39 f.

(٨) *B. D.* Ch. 144. 147,108-109 ; Vandier, *La Religion Egyptienne*, 106.

من الشعوب فى أنها وإن فقد أغلبها مدلوله الحرفى بعد شيوعه على ألسنة الناس بحكم الوراثة والعادة والتقليد ، إلا أنه تميزت منها أسماء قليلة أخرى وكنيات معبرة كان الأبوان يطلقانها على الحدث فى صغره عن قصد فتغدو ألصق به من اسمه فى صغره وكبره ، ويصبح لها من وضوح المدلول ما يمكن أن يؤثر به فى شخصيته وفى معاملة الناس له تأثيرا ينفعه أحيانا ويضره أحيانا سواها . (ويراجع للمؤلف عن الدلالات الاجتماعية والمدنية للأسماء : الأسرة فى المجتمع المصرى القديم -- ص ٥١ – ٥٣ ، والتربية والتعليم فى مصر القديمة – ص ٢٠ – ٢٢) .

* * *

الظـــل :

عبر لفظ « شوت » (أو شويت أو خايبت) [١] عن الظل الذى يلازم صاحبه ويتخذ هيئته ويختص به . ولم تفصل نصوص الدولة القديمة فى قيمة ارتباط الظل بصاحبه فى آخرته [٢] ، ولكن نصوص الدولة الوسطى اعترفت بأهميته ، فوصفت القبر أحيانا بأنه « ظلة (أو وقاية) للروح ومهبط للظل » [٣] . ثم توسعت نصوص الدولة الحديثة ومناظرها فى تصوير مدلول الظل ، فصورته على هيئة شبح أسود عار يتخذ تقاطيع صاحبه [٤] . وأصبح من دعاء الرجل لربه فى الآخرة أن « إحيي روحى وثبت ظلى » [٥] . وتضمنت كتب الموتى فصلا عنونته بعنوان « فصل فتح القبر للروح والظل » وتمنت فيه أن تتوفر للظل حرية مثل حرية الروح فى الدخول إلى المقبرة والخروج منها ، وفى رؤية الشمس [٦] ، فضلا عن مطابقته للجسد فى مثواه ، واكتسابه رعاية الأرباب [٧] . وهكذا غدا مصير الظل مرتبطا بصاحبه ، ينعم بنعيمه ويعذب بعذابه ويختنى بتدمير روحه وانتقام ربه [٨] :

---

(١) *W. b.* IV., 432 ; *ḫ3 ibt* : *Ibid.*, III, 225.

(٢) اختلط مفهوم الظل مع مفهوم المظلة والوقاية فى متون الأهرام .

Pyr. 413 c ; 1487 a, d (in contrary with Mercer's opinion in *The Pyramid Texts*, II, 22).

(٣) G. Steindorff, in *ZAe S*, XXXIX, 119 f. ; Birch, « On the shade or shadow of the dead», in *Soc. Bibl. Arch.* VIII, 386 f.

(٤) *B. D.* (Pap of Neferrenpet) p1. 27.

(٥) Berlin 6910 (18 Dyn).

(٦) *B. D. Ch.* XCII.

(٧) A. Piankoff, *The Tomb of Ramses VI*, 248, 274.

(٨) Lefébure, *Tombeau de Seti I.*, p1. XI, 162 ; A Piankoff, *op. cit.*, Figs. 12-14 ; p. 73, 74, 80, 100, ...

ولأمر ما نسبت بعض النصوص إلى الظل نصيبا من مدى القـــدرة الجنسية فى صاحبه [1] .

* * *

أحاط بتفسير المقومات الغيبية الثلاثة ، الكا والبا والآخ ، جدل كبير يلمسه كل من بحث فى العقائد المصرية القديمة . والجدل فيما وراء الحس والمنظور ليس بالأمر الغريب فى كل مجتمع وزمان .

الكا (النفس الفاعلة والطاقة) :

عامل المصريون لفظ الكا معاملة المذكر ، وعبروا عنه فى أغلب أحواله بصورة ذراعين مرفوعتين إلى أعلى ، ومن المحتمل أن تصويرهما مرفوعتين كان مجرد تصرف فى الرسم تخلص الكتبة به من صعوبة تصويرهما ممدودتين إلى الأمام . وكتبوا نفس اللفظ بحرفيه الهجائيين (الكاف والألف الأخيرة) فى مرات قليلة ، وبحرف الكاف وحده فى مرات أقل [2] ،وذلك مما قد يعنى أن ألفه الأخيرة كانت مجرد نصبة . وعبروا عن قداسة أصله بتصوير رمزه أحيانا فوق حامل مقدس [3] . وسوف نعامل لفظ الكا فى أغلب الاستشهادات التالية معاملة المؤنث بما يتفق مع مدلوله العربى ويلائم أغلب التفسيرات فى شأنه .

وقد انتهينا فى بحث تفصيلى سابق عن الكا ، إلى أن «كا» كل إنسان تعبر من ناحية عن نفسه ونفسيته وذاتيته ، وتعبر من ناحية أخرى عما فيه من طاقة أو فاعلية مادية ومعنوية وشعورية . فاذا فارقت الكا صاحبها حين الوفاة فارقته كل صفاتها ، وإذا استعادها حين البعث استرد بها طاقته وفاعليته [4] .

---

(١) H. Kees, *Totenglauben* ..., 81, f.
واعتبر الإغريق والرومان الروح ظلا للإنسان وقريناً له .

(٢) *Pyr*. 1220a; *Wb*. V, 86. and for other probable : Ki, Khoi (*Copt*) ; Ku (*Babyl.*) ; Khoi (*Grec.*), see *Wb*. V, 86, 93.

(٣) *Pyr*. 564 b ; *Wb*. V, 86 ; *Urk*. I, 50, 15 ; 71, 4, 6 ; Mariette, *Mast.*, 274-275 ; Junker, *Giza*, III, 156, 235 ; *ZAe S*, LXX, 49 ; etc.

(٤) Abdel-Aziz Saleh, «Notes on the Egyptian *Ka* » in *Bulletin of the Faculty of Arts*, Cairo Univ., Vol. XXII, Part 2, Cairo 1965, pp. 1-17.

واختلفت هذه النظرية ، فيما يتعلق بالكا الشخصية ، عما أتت به نظريات كثيرة سابقة ، اعتبرت الكا روحا حارسة متمايزة عن كيان الإنسان (G. Steindorff; and Van der Leeuw)[1] . وهذه تمثلت فى رأى البعض فى نموذج أثيرى ملون يتخذ هيئة صاحبه وجنسه ويصحبه منذ مولده (G. Maspero, Le Page Renouf; E. Naville; and G. Jequier)[2] وتمثلت عند بعض آخر فى جنى علوى (أوطيف) أو إله حارس يلجأ المتوفى إليه فى العالم الآخر فيحيا به أو فى كنفه (J. H. Breasted)[3] .

ونظريات عداها ردت الكا من حيث الأصل إلى روح علوية سرت سريان الروح الطوطمية (A. Moret)[4] ، أو سرت من الإله الخالق إلى إله الدولة حور ثم إلى الفراعنة الحوريين والناس ، وظل الفراعنة أكثر المخلوقات نصيبا منها فى الدنيا وفى الآخرة (Loret ; H. Stock ; J. Spiegel ; and U. Schweitzer)[5] .

ثم نظريات اعتبرت الكا من حيث الوظيفة قوة حيوية أولية ، أو قوة حيوية خلاقة ، أو قوة حارسة موجهة ، أو قوة ذهنية ميتافيزيقية (G. Steindorff ;

---

(١) G. Steindorff, in *ZAe S*, XLVIII, 152 f. ; Van der Leeuw, in *ZAe S*, LIV, 56 f.

(٢) G. Maspero, *Étude Mythologie ...*, I, 7, 35, 48, 77f., 126 ; *Trans. Soc. Bibl. Arch.* VI, 494 f. ; and in *Memnon*, VI, 125.

See also, Naville, *La Religion...*, 53f. ; Wiedmann, *Das alte Aegypten*, 72 ; Jequier, *Histoire de la Civilisation égyptienne*, 1923, 151 f.

(٣) J. H. Breasted, *Development of Religion and Thought*, 52 f.

(٤) A. Moret, *Mystères égyptiens*, 199 f. ; in *Revue de l'Hist. des Religions*, *LXVII*, 181 f. ; *Le Nil et la civilisation égyptienne*, 211 f., 416 f.

(٥) Loret, in *Revue Egyptologique*, II, 87 ; H. Stock, «Aeg. Religionsgeschichte», in *Saeculum I* (1950), 627 f. ; J. Spiegel, *Das Werden der Alt-Aegyptischen Hochkultur ...*, 110 f. ; U. Schweitzer, *Das Wesen des Ka im Diesseits und Jenseits der alten Aegypter*, 1956, 21-22, 25, 42 f., 52 f.

H. Kees ; J. Vandier ; H. Frankfort ; J. Wilson ; S. Mercer ; J. S. F. Garnot; L. Greven ; U. Schweitzer ; and S. Morenz)[1]

ونظريات أكثر وضوحا ، اعتبرت الكا قوة ذات طبيعة مزدوجة ، روحية ومادية ، تلازم الإنسان منذ مولده (Erman and Sottas) [2] .

وأخرى تماثلها رأت فى الكا جماع الخصائص المعنوية لكل إنسان ، مثل مزاجه وحظه ومكانته ، فضلا عن تعبيرها عن روحه وشخصيته (H. Brugsch; E. A. W. Budge; A. H. Gardiner ; A. M. Blackman; W.C. Hayes; H. Kees; and J. Spiegel) [3] .

ثم نظريات مكملة ، رأت واحدة منها أن قوة الكا تنصب على القدرة الجنسية (Jacobsohn) . وقربت أخرى بين دور الكا المصرية وبين الدور الذى ينسب إلى مشيمة الطفل فى بعض العقائد القديمة والعقائد البدائية المتخلفة (A.M. Blackman) [4] وذلك فضلا عن التفسير الذى رددته أغلب المؤلفات العربية عن ماسبرو ، وهو تمثل الكا فى القرين الذى تقول بمثله بعض التصورات الشعبية المصرية حتى الآن .

ومن البديهى أن أغلب النظريات السابقة قد اعتمدت على قرائن أصابت بها

---

(١) G. Steindorff, in *ZAe S*, XLVIII, 152 f. ; H. Kees, *Totenglauben* ..., 67 f. ; *Die Gôtterglaube* ..., 47, Jacobsohn, *Dogmatische Stellung*, 49, f. ; J. Vandier, *La Religion* ..., 132 ; H. Frankfort, *Kingship and the Gods*, 61 f. ; J. Wilson and others, *The Intellecual of Ancient Man*, 85 ; and in *Ancient Near Eastern Texts*, p. 3n. 4 and 412, n. 9; L. Greven, *Der Ka in Theologie*, 1952 ; U. Schweitzer, *Das Wesen des Ka*, 1956 ; J. S. F. Garnot, in *Studies in the History of Religions*, II, 1955, 14-27 ; S. Morenz, *La Religion Égyptienne*, traduit, 1962, 224.

(٢) A. Erman, in *ZAe S*, XLIII, 14 Anm. 2 ; *Die Relgion der Aegypter*, 209 f.; Sottas, in *Sphinx*, XII, 33 f.

(٣) H. Brugsch, *Wörterbuch* (Suppl.), 997, 1230 ; E. W. Budge, *The Egyptian Book of the Dead*, p. LXII ; A. H. Gardiner, *Egyptian Grammar*, 1927, 172-173 ; *PSBA*., XXXVI. 257 n. 3 ; A. M. Blackman, in *J. E. A.* III, 241, n. 3 ; W. C. Hayes, *The Scepter of Egypt*, 79 ; J. Spiegel, *Die Idee vom Totengericht*, 9, Anm. 3; *Das Werden der Alt-Aegyptischen Hochkultur*, 338, 448 f.

وكرر ياروسلاف تشرنى آراء جاردنر فى الكا بحرفيتها .

Compare, J. Černy, *Ancient Egyptian Religion*, 1957, p. 82.

(٤) A. M. Blackman, «The Pharaoh's placenta», in *J. E. A.* III, 241 and note 3 ; «The ka-house and the serdab», *ibid.*, 250 f.

طرفا من أطراف المشكلة ، غير أن تعددها يدل فى الوقت ذاته على إحساس أصحابها بصعوبة الاهتداء إلى تفسير شامل أو يقينى يحل مشكلة الكا كلها ، الأمر الذى دعا كل باحث منهم إلى التردد فى اختيار كلمة واحدة جامعة مانعة ترادف كلمة الكا ، ثم إلى تفضيل كل واحد منهم الجمع بين أكثر من رأى واحد فى نظريته .

ويبدو أن المصريين القدماء لم يكونوا أقل حيرة فى تكييف مفهوم الكا من الباحثين فى عصرنا الحاضر . وغام عليهم أن يفرقوا بينها وبين البا ، على نحو ما تصعب التفرقة الدقيقة علينا حتى الآن بين النفس وبين الروح . وكانت الكا أقرب إلى النفس العربية فى تعبيرها عن الشخص ذاته واقترانها برغباته وغرائزه ، ثم اقترانها بالوفاة . قارن لذلك قوله تعالى فى القرآن الكريم : (إن النفس لأمارة بالسوء) ، وقوله (كل نفس ذائقة الموت) . وقوله (الله يتوفى الأنفس حين موتها). وقارن استخدام كلمة النفس فى اللغة العربية الدارجة للتعبير عن الرغبات المادية فى مثل : نفسى آكل ، نفسى استمتع ، نفسى أضرب . . إلخ [1] .

وفى سياق ما قدمنابه عن الكا ، من حيث تعبيرها عن النفس والنفسية والذات ، ثم عن الطاقة أو الفاعلية بما فيها من إرادة ورغبات ، بدأنا فى بحثنا آنف الذكر بمناقشة ما دل عليه لفظ الكا فى سياق النصوص ذات الصبغة الدنيوية ، مثل التراجم الخاصة ، والتعاليم الخلقية ، والأسماء الشخصية ، والأساطير الدينية ، وذلك على خلاف ما جرت عليه أغلب البحوث الأخرى من تركيز اهتماماتها أساسا على النصوص الأخروية والسحرية . ويكفى الاستشهاد هنا بنماذج قليلة لما خالفنا به بقية النظريات فى شأن الكا ، وندع التفاصيل لبحثنا المشار إليه .

فعلى خلاف ما ارتآه جيمس هنرى برستد من استبعاد أن تكون الكا من مقومات الكائن الحى وترجيح اعتبارها إلها حارسا يلجأ الإنسان إليه بعد وفاته ، وعلى

---

(١) وذلك فى مقابل الطابع المعنوى الغالب للروح وهى البا فى اللغة المصرية القديمة .
انظر لذلك قوله تعالى (قل الروح من أمر ربى) ، وقولنا : صعدت روحه إلى بارئها . وانظر قولنا هفت روحى إليه ، أو مالت روحى إليه ، فى تعبير الروح عن الرغبات المعنوية .
وكانت هذه التفرقة بين النفس وبين الروح مجال مناقشة قديمة بين الأستاذ الدكتور محمد أنور شكرى وبينى) . وانظر ص ١٨٦

العكس كذلك مما قال به جاك ڤاندييه وغيره من اعتبارها شيئا خارجا عن كيان الإنسان [1] ، نرى الحكيم المصرى بتاح حوتب يتحدث عن الكا فى سياق تعاليمه بما لا يدع مجالا للشك فى دلالتها على نفس ونفسية الشخص الحى . ومن ذلك قوله لولده : «لاتبتر وقت متعتك ، فكريه على الكا (أىالنفس) إفساد وقت متعتها» [2] «وإذا تقاعد (المرء) عن أن يرضى خلصاءه قال الناس هو كا أنانية » [3]؛ أى هو نفس أنانية . « وإن الكا هى الكا الحقة التى يطمأن إليها » [4] بمعنى أن النفسية (الطيبة) هى النفسية التى يطمئن الناس إليها. « وإن الإساءة تبعد الكا عمن تحبه » [5] .

وعلى نفس النسق فى استخدام لفظ الكا اعتاد طلبة عصر الرعامسة على أن يختموا كراساتهم باهداءات يوجهونها إلى « كا » مدرسهم ، أى إلى نفسه أو شخصه أو فاعليته ، مع وصفه بصفات الكفاية مثل *n k3 n '3 m i3wt.f and n k3 n w' ikr mty* وأوصاف أخرى تعنى أنه لا زال معهم على قيد الحياة [6]. وقد أنهى أحدهم قصة يافا بخاتمة قال فيها إنها أتت إلى خاتمة طيبة بفضل « كا » كاتب ماهر الأنامل ، كاتب الجيش . . . فلان . . . [7] ، يعنى بذلك نفسه .

وعلى العكس مما قال به كل من J. Greven and U. Schweitzer من أن الكا الملكية إذا ذكرت فى نص دلت على ملك متوفى وليس على ملك حى [8] ، نجد فى ترجمة حياة طبيب البلاط الملكى نى عنخ سخمة أنه خاطب ملكه ساحورع بقوله: « هلا سمحت كاهك التى يحبها رع وأذنت لى بباب حجرى لمقبرتى ...» [9]

---

(١) راجع ص ١٦٩ ، ١٧٠

(٢) Pap. Prisse, 188-189.

(٣) *Ibid.*, 341-342.

(٤) *Ibid.*, 344.

(٥) *Ibid.*, 391-392.

(٦) See, Pap. Anastasi III 4, 11 ; 7, 10 ; IV vs. A; Pap. Bologna 1094, 11, 5 ; Gardiner's Ostracon 28 vs., 10, 17; *Chester Beatty Pap.*, p. 21 ; *Late Egyptian Miscellanies*, p. 38a ; Pap. d'Orbiney, XIX, 9.

(٧) Pap. Harris 500 vs. ; see *J. E. A.* XI, 227, 237.

(٨) L. Greven, *op. cit.*, 19 ; Schweitzer, *op. cit.*, 42.

(٩) K. Sethe, *Urkunden*, I, 38.

ومن البديهى أنه كان يرجو العطاء حينذاك من شخصية ملك حى وليس من ملك هالك . وبنفس الأسلوب جاء فى ترجمة حياة « ونى» الموظف الكبير فى أوائل عصر الأسرة السادسة أنه أشرف على حفر خمس قنوات فى صخور الجندل الأول فى عهد الملك مرينرع ، ثم نسب الفضل فى المشروع إلى ملكه بقوله : « لقد نفذت كل شىء تبعا للإيحاء الذى أصدرته كاهه » [1] (أى كا أو شخصية الملك) . ومن الطبيعى أنه كان يتجه بولائه وإكباره حينذاك إلى ملك حى ، لا سيما وأنه يرجح أن ونى قد توفى فى عهد هذا الملك . وفى قصة سنوهى من الدولة الوسطى يقول سنوهى لملكه سنوسرت الأول : « إن فرار خادمك الذى أتاه بجهله أمر تعلمه كاهك » ، « وعسى كاهك أن تجعل مصير بدنى فى وطنى » [2] . وهنا مرة أخرى كان الرجل يتجه إلى كا (أى نفس) ملك حى يعاصره راجيا عفوه وعطاءه وليس إلى ملك متوفى .

وعلى شىء من التمايز مع استغلال كثير من المؤلفات العربية تفسير ما سبرو (وغيره) للكا ، لتسميتها بالقرين الذى تتخيله التصورات الشعبية الحالية يولد مع صاحبه ويصونه ويتأثر بما يتأثر به ويسكن العالم السفلى ، نلاحظ من ناحيتنا أن التصورات الشعبية الحالية تتخيل قرين الطفل مختلفا فى الجنس عنه حين تقول له حين يصيبه أذى على سبيل المثال : اسم الله على أختك قبل منك . وذلك على العكس من العقائد المصرية القديمة التى تصورت الكا من جنس صاحبه وذلك بالنسبة للذكور دائما وإلى حد ما بالنسبة للاناث أيضا [3] .

وبمعنى النفس والنفسية تداخل لفظ الكا فى كثير من الأسماء الشخصية المصرية القديمة ، مثل : كاوعب [4] أى نفس طاهرة ، وكا منخ [5] أى نفس فاضلة ،

---

(١) *Urk. I,* 109.

(٢) See, *Anc. Near Eastern Texts,* p. 21.

(٣) *Urk.* I, 214, 11, 12, 13, 16, 17; Mariette, *Dend.,* III, 29r, 20e ; *Edfu,* I, 240 ; Steindorff, in *ZAe S,* XLVIII, 157-158 ; *Wb.* V, 89, 12.

(٤) H. Ranke, *Die aegyptischen Personennamen,* I, 339, 2.

(٥) *Ibid.,* 430, 3.

وعز كا أى سليم النفس (أو النفسية) [١] ، ومرروكا أى محبوب النفس أو محبوب النفسية ، وشبسسكاف بمعنى عزيزة نفسه أو جلت نفسه . . . إلخ .

وبمعنى الطاقة أو الفاعلية يمكن تفسير بعض الأسماء الشخصية المصرية التى تضمنت لفظ الكا ، مثل : نب كا بمعنى رب الطاقة أو رب الفاعلية (وليس بمعنى الكا هو السيد ، أو الكا سيدى ، أو كاهى سيدى كما افترض كل من J. Spiegel and J. Černy) [٢] . ومثل سخم كا بمعنى شديد الطاقة (وقد تقرأ سخم كاى بمعنى قويت فاعليتى) . ووحم كا [٣] بمعنى متجدد الطاقة . ونن سزر كاى بمعنى لن تهجع فاعليتى (أو لن تهجع نفسى) [٤] . وقال أحد الأسماء «كام عنخ» [٥] بمعنى الكا هى الحياة . وقال آخر «كاوزو عنخ» [٦] بمعنى الكا هى التى تسمح بالحياة .

وقد تكون الكا الموصوفة فى هذه الأسماء هى كا صاحب الاسم ، أو تكون كا أبيه الذى سماه ورأى فيه صورة من نفسه تمنى حياتها وتجددها فى شخص ولده ، ولهذا الفرض الأخير رأى كل من H. Ranke, Ḥ. Junker, and B. Gunn إضافة ضمير متكلم محذوف فى نهاية كل اسم ،وهذا قد يدل على صاحب الاسم أو يدل على والده . وإذا كان لنا أن نضيف شيئا آخر فى هذا الصدد فهو أنه ليس من الضرورى أن كل والد كان يدرك مدلول الاسم الذى يسمى ولده به ويقصد معناه الحرفى دائما فأغلب الأسماء وإن وضح القصد فيها فى بداية ظهورها إلا أنه غالبا ما تختفى معانيها الحرفية وتصبح مجرد أسماء تقليدية بعد كثرة شيوعها [٧] .

---

(١) Ranke, *op. cit.*, I. 73, 23.

(٢) *Compare*, J. Spiegel, *op. cit.*, 219 ; J. Cerny, in MDAIK, 1958, 25 f.

(٣) H. Ranke, *op. cit.*, 338, 26 ; 339, 1.

(٤) H. Junker, *Giza II*, 111.

(٥) H. Ranke, *op. cit.*, 339, 17.

(٦) *Ibid.*, 39, 8.

(٧) من أقدم الأسماء الشخصية التى تداخل فيها لفظ الكا أسماء كبار عصر الأسرة الأولى ، ومنهم حماكا ، نبت كا ، نس كا ... ، وأغلبها أسماء تصعب ترجمتها فى حدود ما يعرف حتى الآن عن التركيبات اللفظية فى عصر بداية الأسرات . وراجع عن احتمال صلة اسم الملك كا (؟) بكنية الملك العقرب : A. Saleh, *op. cit.*, p. 7.

وبمعنى الفاعلية كذلك أشادت الأسماء الشخصية المصرية بكاوات الآلهة لا سيما رع ،ومنها : من كارع بمعنى دامت فاعلية رع ، ونب كارع أى رب الفاعلية رع ، ووسر كا رع بمعنى اشتدت فاعلية رع ، ثم وركا بتاح أى عظيمة فاعلية بتاح ، وسوبك كا رع أى (الإله) سوبك هو فاعلية رع ، وستخ كا رع أى (الإله) سوتيخ هو فاعلية رع . . . إلخ .

وتمجيدا للقدرة الخارقة للمعبودات لم يكتف المصريون بافتراض «كا» واحدة لكل معبود ، وإنما نسب بعضهم إلى الإله رع أربع عشرة كا [1] ، وافترضوا مثلها لبعض ملوكهم [2] ، ثم لبعض كبار الأفراد أحيانا . ولعلهم ابتغوا أن يعبروا بتعددها عن تعدد الطاقات ومصادر الفاعلية فى هؤلاء وهؤلاء ، أو تعدد الحواس الفعالة فيهم ، مع شىء من التميز المنطقى بين المدلول الحرفى لفاعليات كاوات الأرباب وبين فاعليات كاوات البشر .

وتضمنت نصوص العصور المتأخرة ما يسمى كاوات رع بأسماء جمعت إليه آيات البأس والازدهار والرزق والجلال والاحترام والفطنة والثبات (أو الدوام) والبصر (أو الفاعلية) والسمع والإدراك والنطق الخالق والسحر والإشراق والقدرة . (مع مرادفات أخرى تضمنت العدالة وغيرها) [3] .

وكان من أسماء الفراعنة ما يمجد كاوات الآلهة هذه ، أى طاقاتهم وفاعلياتهم ، فى سياقه ، مثل : من كاو رع أى دامت فاعليات رع ، ومن كاو حور أى دامت فاعليات حور.

---

(١) *Wb.* V, 89, 8-9 ; *Amarna,* V, 2, 6 ; *L. D.* III, 194 ; Rochem, *Edfu*, I, 441 ; Dümischen, *Tempelinschriften*, I, 29, 2; Brugsch, *Wb. Suppl.* 1230 ; H. Kees, *Die Gotterglaube* ..., 159.

(٢) E. Naville, *Dier el Bahari,* II, pl. LII ; Gayet, *Le Temple de Louxor*, pl. 63, Fig. 203 ; and compare *Pyr.* 396 a.

(٣) H. Brugsch, *Wb. Suppl.*, 997 f.; E. W. Budge, *The Gods of the Egyptians*, II, p. 300, A. H. Gardiner, in *PSBA*. 38, p. 83 ; Champollion, *Notices*, I, p. 279,

De Rougé, *Inscriptions recueilles à Edfu*, pl. 7 f. ; Mariette, *Dendera,* Texte, p. 200 ; and U. Schweitzer, *op. cit.*, 73 f.

ثم وصفت النصوص المصرية كاوات الفراعنة بشيء مما كانت تصف به كاوات الأرباب ، مثل خعي كاو [1] ، أى ظاهر الفاعليات أو ظاهر القوى ، وإمن كاو [2] بمعنى خفى الفاعليات أو خفى القوى ، ووركاو [3] أى عظيم الفاعليات أو عظيم القوى . ووصفت حاتشبسوت بأنها وسرت كاو [4] أى شديدة الطاقات أو الفاعليات .

وجرت نصوص الدين والأساطير المصرية على المنوال نفسه فى التعبير بالكا الإلهية عن الطاقة العليا والفاعلية إلى جانب دلالتها على النفس والذات . فروى مذهب عين شمس عن الإله الخالق أتوم أنه بعد أن ذرأ ولديه شو وتفنوت « وضع ذراعه خلفهما بمقدرة الكا (أو ساعد الكا) فصارت كاهه فيهما » [5] ، وذلك مما يمكن التعبير عنه بأنه أحاطهما بساعده بقدرة الفاعلية (أو ساعد الحماية) فانتقلت طاقته أو فاعليته أو نفسه إليهما . ودعت متون الأهرام هذا الإله أتوم أن يشمل الملك ومنطقة هرمه بنفس المكرمة أى بقدرة كاهه أو قدرة طاقته [6] . ثم خاطبت الإله جب بقولها : « أنت كا الأرباب كلهم (أى فاعليتهم) أوجدتهم ورعيتهم (أو نشأتهم) وأحييتهم » [7] .

واعتبرت بعض النصوص المصرية الإله بتاح رب الكا الملكية [8] ، وذلك وصف يصعب تفسيره بغير اعتبار بتاح مصدر فاعليتها أو روحها. وقيل عن الإله أمون فى منظر للتتويج إنه وهب الملك « كا » الملكية [9] ، أى روحها أو طاقتها أو

---

(١) Pap. Kahun, I, 1, 2.

(٢) *Pyr.* 1343.

(٣) *L. D.* II, 12 b ; Cairo 42211.

(٤) *Urk.* IV, 361, 4 ; 456.

(٥) *Pyr.* 1652c—1653a.

(٦) *Pyr.* 1653 b-d.

(٧) *Pyr.* 1623.

(٨) A. Scharff, in *ZAe S.*, LXX, 49 ; U. Schweitzer, *op. cit.*, 72.

(٩) *Wb.* V, 88, 10 ; U. Schweitzer, *op. cit.*, 59.

فاعليتها (وليس بمعنى الاسم الحورى كما خمن كل من L.Greven and U. Schweitzer)[1].
ثم قيل عن رمسيس الثانى إنه كا كت ، بما يعنى أنه روح مصر أو طاقتها (أكثر مما يعنى أنه واهب العطايا لها كما يقول قاموس برلين)[2] .

ونعود إلى الكا الشخصية ودورها فى حياة الإنسان وآخرته فنجد أن اقتراحاتنا السابقة لمعانى الكا يمكن أن تفسر ما ذكرته النصوص المصرية من أن الإنسان يتلقى كاهه (أى طاقته أو فاعليته) حين مولده بأمر الإله رع ، أو الإله جب ، وبمعاونة الربة مسخنت ربة الولادة[3] . وأنه حين تفارقه كاهه يفقد حياته ؛ أى يفقد طاقته وفاعليته ونفسه . وأنه يسعى بعد ذلك إلى كاهه[4] عند انتقاله إلى العالم الآخر ؛ أو تسعى هى إليه[5] ، وحينئذ يسعى من يسعى مع كاهه[6] ، وتتوفر له القدرة عن طريقها[7] ، فيتجه بفضلها إلى السماء[8] ، ويحصل بها على غذائه[9] ، ويسعد معها إلى الأبد[10] ، ويضعف إذا اعتراها وهن أو إذا أقصيت عنه[11] .

ولصالح من انتقلوا إلى العالم الآخر اعتاد مقدمو القرابين المصريون على أن يقدموا لقرابينهم ودعواتهم وهداياهم إلى موتاهم أو يعقبوا على تقديمها إليهم : بعبارة : "*n k ; .k*" إذا خاطبوا المهدى إليه خطابا مباشرا ، وبعبارة "*n k ; n . . .*"

---

(١) L. Greven, *op. cit.*, 27 ; and see, U. Schweitzer, *op. cit.*, 52 f. ; 59 f. : «Der Horusname als Ka-Symbol des Konigs».

(٢) *Wb.* V, 91, 5 ; 32, 14.

(٣) A. Erman, *Zaubersprusche für Mütter und Kind*, 5, 8 f. ; 26-27.

(٤) *Urk.* I, 50, 15 ; 71, 4, 6, etc.

(٥) *Pyr.*, 375 b.

(٦) *Pyr.*, 17a ; 1431a, also 826 ; 832.

(٧) *Pyr.*, 18a—b ; 63 ; 1055a.

(٨) *Pyr.*, 1431 b.

(٩) *Pyr.*, 564b.

(١٠) *Pyr.*, 2028 ; Urk., IV, 499.

(١١) *Pyr.*, 1532.

إذا ألحقوا اسمه بها . وقد ظهرت العبارتان منذ أواخر الدولة القديمة (على العكس مما قال به شتيندروف وجاردنر عن رد العبارة الثانية منهما إلى الدولة الوسطى) [1] . واحتملت كل من العبارتين نفس التفسيرات التى افترضناها بشأن الكا ، وحمَّلها كل إنسان ما يتفق مع فكرته عنها وما يتبادر إلى ذهنه بشأنها . فهو قد يقولها بمعنى « إلى نفسك » كما تقول الآن على روحك ؛ وقد يزيد حينئذ فيصف هذه النفس بأنها نفس طاهرة أو نفس صادقة أو نفس حرة [2] .

أو يقولها بمعنى « إلى ذاتك » [3] إذا شاء أن يجعلها أكثر تأدبا من عبارة « إليك » العادية .

أو يقولها بمعنى « من أجل طاقتك » إذا تمثل فى ذهنه أن دعواته وقرابينه ضرورية لتقوية طاقة المتوفى فى حياته الثانية .

أو يقولها بمعنى « من أجل فاعليتك » إذا تمثل فى ذهنه أن دعواته وقرابينه ضرورية لاستمرار فاعلية هذا المتوفى فى عالمه الآخر .

وفى كل حالة من هذه الحالات لا يتصور المهدى أنه يقدم دعواته وقرابينه إلى جزء معين من المتوفى ، وإنما إليه ككل [4] . وعلى هذا الأساس خاطبت متون الأهرام الفرعون المتوفى بقولها « لن تفنى (وبالتالى) لن تفنى كاهك ، لأنك أنت الكا (بالذات) » [5] . وعلى نفس الأساس كذلك لقب المصريون كاهن المقبرة بلقب « حم كا » أى خادم الكا ، و « سخن كا » أى محتضن الكا أو راعيها [6] ، والمقصود بذلك أنه يخدم ويرعى المتوفى فى مجمله بدعواته وصلواته وقرابينه ، ثم

---

(١) Cairo 1409, *Pyr.* 35 a—and compare, Steindorff, in *ZAe S*, XLVIII, 154; A. H. Gardiner, *Egyptian Grammar*, p. 172.

(٢) *Wb.* V, 87, 14 ; 88, 1 (Theb. T. 22, 124, Dyn. 18).

(٣) See also, Steindorff, *op. cit.*, 156 ; Junker, *Giza*, III, 156 ; Schweitzer, *op. cit.*, 82.

(٤) راجع أدلة هذا الرأى فى مقالنا Abdel-Aziz Saleh, *op. cit.*, p. 15.

(٥) *Pyr.* 149 d.

(٦) *Compare*, Speigel, in *ZAe S*, LXXXVI, 112 f. ; Junker, *Giza*, III,118 ; Schweitzer, *op. cit*, 86.

اعتبروه مسئولا كذلك عن رعاية تمثال المتوفى باعتباره ممثلا له [1] ، كما أطلقوا على المقبرة أحيانا اسم بيت الكا *hwt k3* [2] — ويقصدون بالكا فى كل هذه الأحوال المتوفى بذاته وبشخصه .

وأخذت بعض النصوص الأدبية الدنيوية المصرية بنفس الفكرة فوصفت الناس بأنهم «كاو» أى أنفس أو طاقات . و «كاوعنخو» [3] ، أى أنفس حية أو طاقات حية ، واعتبرت الفراعنة أئمة لهم «خنتيو كاو» [4] ، والأرباب سادة لهم «نبوكاو» [5] أى سادة الأنفس أو سادة الطاقات ، فى الدنيا وفى الآخرة .

وقابل لفظ «كا» وجمعه «كاو» لفظان آخران اشتركا معهما فى المبنى واختلفا عنهما فى المعنى . وهما لفظ «كا» بمعنى الغذاء أو الزاد ، ولفظ «كاو» بمعنى الأقوات والقرابين وربما بمعنى الأرزاق والخيرات أيضا . وافترض كل من أدولف إرمان وفون بسنج وجود رابطة بين الكا الإنسانية فى إفرادها وجمعها وبين الكا بمعنى الزاد فى إفرادها وجمعها أيضا [6] . وهو فرض مقبول ، ويمكن أن نعلل هذه الرابطة من ناحيتنا ببعض ما قدمنا به أى باعتبار الكا مصدر الطاقة والفاعلية للجسم فى الدنيا والآخرة شأنها فى ذلك شأن الزاد والقربان . وعبر فنان مصرى قديم عن هذا المفهوم فصور المتوفى فى وضع تناول الطعام التقليدى يبسط يمناه نحو مائدة القربان ، وصور هذه المائدة على هيئة الكا ، أى هيئة ذراعين مرفوعتين ، فوق قاعدة مرتفعة . وكتب معها عبارة تقول : وضع اليد نحو كاهه ،

---

(١) Steindorff, *op. cit.*, 155 ; H. Kees, *Totenglauben ....*, 182 ; Schweitzer, *op. cit.*, 88-89.

(٢) Gardiner and Davies, *The tomb of Amenemhet*, 73.

(٣) *Urk.* IV, 223, 245 ; *L. D.* III, 17e ; Mariette, *Abydos*, I, pl. 17 ; and see, *Wb.* V, 90, 5f.

(٤) *Ibidem*, and *Pyr.* 1220 d.

(٥) *Wb.* V, 89, 8-9 ; *Amarna*, V, 2, 6 ; *L. D.* III, 194 ; Rochem, *Edfu*, I, 441.

(٦) *Wb.* V, 91 f. ; A. Erman, in *ZAe S*, XLIII, 14, Anm. 2.

rdit ‘ r k3.f [1]، ويبدو أنه عبر بجملة وضع اليد هذه عما نعنيه الآن بها من معانى التملك والسيطرة ، ورمز بها إلى استحواذ المتوفى على كاهه أى على زاده ومصدر طاقته.

ووصل فنان مصرى آخر بين المعنيين ، فصور المتوفى يمد يده نحو كا ضخمة مرفوعة فوق حامل يشبه حوامل رموز الأرباب ، وتضم بين ذراعيها قرابين مادية وفيرة . ولعله رمز بها إلى النفس وإلى أنها استخلصت من القرابين ومقومات الطاقة ما يناسبها ويستهوى صاحبها [2] .

وتشابكت المعانى السابقة نفسها فى مثل قول متون الأهرام عن الفرعون « إنه يقبض الكاوات ويرسل الكاوات » [3] مما قد يعنى أنه يقبض الأنفس ويطلقها ، أو يعنى أنه يقدر الأرزاق ويبسطها . وفى مثل قولها عنه « إنه المشرف على الكاوات جامع القلوب » [4] ، ولو أن اقتران الكاوات بالقلوب هنا يرجح أنها عنت الأنفس أكثر من غيرها .

ومع كل ما قدمناه لن نجد بأسا فى الاعتراف بأن نظريتنا فى تفسير لفظ الكا مفردا وجمعا لن تحول دون احتمال تفسيرات أخرى بجانبها ، ولن تغطى كل ما ذكرت الكا به فى النصوص والمناظر المصرية وإن غطت معظمها ، وسوف نستشهد فيما يلى ببعض ما يبرر تعدد التفاسير بشأنها .

فقد أوصى الحكيم المصرى بتاح حوتب ولده برعاية ابنه المطيع ثم عقب على هذه الوصية بقوله : « فانه ولدك الذى أنجبته كاهك (وفى مرادف آخر : الذى أنجبته لك كاهك) » [5] ، وذلك مما قد يوحى باعتباره الكا شيئا مستقلا عن صاحبها إن لم يعن رغبته فى أن يعتبر ولده حفيده البار قطعة من نفسه كما نقول الآن فى تعبيراتنا العربية .

---

(١) *ASEA*, XI, 173 ; Schweitzer, *op. cit.*, Taf. V a-b.

(٢) Davies, *The tomb of Ramose*, p. 18, p1. XIX.

(٣) *Pyr*. 311 a-d.

(٤) *Pyr*. 267 a.

وقارن المعانى المزدوجة المحتملة للقب الإلهى نحب كاو *Wb*. II, 291.

(٥) Pap. Prisse, 204.

وتضمنت بعض متون الأهرام ما يوحي باعتبار الكا في الآخرة فردا آخر خارج كيان صاحبه ، يمشي معه [1] ، ويجالسه [2] ، ويآكله [3] ويحادثه [4] ويغفو لديه [5] ، ويطهر ويطهره [6] ، ويخلصه (من الوزر؟) في بركة داتي ويجفف (؟) لحمه [7] ، ثم يتلقى رسله [8] ، ويكون هذا الكا شفيعه فيتحدث عنه عند ربه [9] ، ويرعاه [10] ، ويحميه بيديه ورجليه من أمامه ومن خلفه [11] . كما أشارت نصوص المقابر إلى كاوات تأخذ بيد المتوفى وتقوده إلى الأماكن الطاهرة والسبل القويمة [12] .

وقد يغطي بعض ما قدمناه من تفسيرات للكا بعض هذه الصور المعقدة ، لاسيما إذا قدرنا أمرين ، أولهما أنه كما افترض أحد متون الأهرام أن المتوفى سوف يطهر كاهه ، افترض في الوقت ذاته أنه سوف يطهر قدرته *sḫm.f* [13] ، وليست القدرة بشيء خارج عن الشخص نفسه ، وهكذا كانت الكا . أما الأمر الآخر فهو أننا نتحدث في اللغة الدارجة الحالية عن النفس (مرادف الكا) بعبارات تصورها كأنها شيء مستقل عن صاحبه مع أنها جزء منه أو هي هو ؛ وذلك حين نقول عن شخص ما إنه قال لنفسه ، واختلى بنفسه ، وراجع نفسه ، وشاور نفسه ، وأجبر نفسه ، ونعني بذلك عملا يقوم به فرد واحد بنفسه وليس اثنين .

---

(١) *Pyr.* 1575 a.

(٢) *Pyr.* 789 b, 1357 b.

(٣) *Pyr.* 264b, 789b, 1357b.

(٤) *Pyr.* 2051 b.

(٥) *Pyr.* 894. a-b.

(٦) *Pyr.* 789.

(٧) *Pyr.* 372, 837, 839.

(٨) *Pyr.* 136 b.

(٩) *Pyr.* 816 d.

(١٠) *Pyr.* 63.

(١١) *Pyr.* 18a.

(١٢) *Urk.* I, 189 ; Mariette, *Mastabas*, 10 D ; Junker, *Giza*, III, 118 ; Gunn, *Teti Pyramid Cemetery*, 122 ; Petrie, *Deshasheh*, pl. 28 ; Newberry, *Bersheh*, I, 34 ; *Beni Hasan*, II, pl. 6 ; Capart, in *ZAeS*, XLII, 144, f.

(١٣) *Pyr.* 837, 839.

وعلى الرغم من هذين التعقيبين المنطقيين ، فان دواعى الحيطة تدعو إلى عدم إغفال تأويلات أخرى إغفالا تاما بعد شيوعها ، ومنها اعتبار مثل هذه الكا كا سلفية ترعى الخلف فى الآخرة وتحن إليهم . ثم هناك ما قال به ماسبرو وأصحابه من اعتبار الكا نموذجا أثيريا ملونا لصاحبه يشبه القرين . ويبدو أنه بنى معهم نظريته على أساس ما جرت عليه بعض المناظر المصرية من تصوير الكا الملكية على هيئة طفل عار مكتمل التكوين يشبه الملك ويجاوره حين تشكيل الإله خنوم له ، وحين ولادته ، ثم خلال طفولته [1] . وتصويرها إياه أحيانا أخرى يتبع الملك ، ويرفع اسمه على رأسه ويحتضنه من خلفه باسم «كانيسو عنخ» أى كا الملك الحى ، أو الكا الملكى الحى [2] . فهل يدل ذلك على أن المصورين المصريين اعتبروا الكا قرينا للملك كما قال ماسبرو ، ويحيا خارج كيانه ، كما قال ڤانديبه وغيره ؟ أم نفترض من جهة أخرى أن تصويرهم إياه هكذا كان مجرد تعبير فنى لإظهار الكيان الداخلى للملك بجانبه ، وهى طريقة قد تكون غريبة على الذهن المعاصر ولكنها كانت متبعة فعلا فى مصر القديمة حين تصوير بواطن الأشياء بجانبها لتأكيد وجودها ، وذلك مثل تصوير أكوام الغلال بجانب شونها أو فوقها أحيانا بينما هى فى الحقيقة بداخلها [3]

وكان من مشاكل الكا فى العقائد المصرية ما أوحى إلى فلندرز بترى باعتبارها روحا ممثلة للأجداد ، وقد أيده فى ذلك هرمان يونكر إلى حد ما [4] . وإذا تقبلنا الجانب المنطقى من هذا الرأى أمكن أن نضيف أنه ما من بأس من اعتبار الكا فى بعض النصوص تشير إلى عنصر أسرى يسرى بين الوالد والولد ويحمل نفس

---

(١) Jequier, *Le Temple du Pepi*, II, pl. 30 ; Naville, *Dier el Bahari*, II, pl. XLVI f ; Gayet, *Louxor*, pl. LXIII f.

(٢) *L. D.* III, 34 b ; Steindorff, *op cit.*, 157-158.

ويقترح B. Bruyère تفسيراً لبعض صور الكا التى تتبع الملك إلى قبره وتتلقب بلقب كانيسو عنخ ويكتب معها فى السرخ اسم «كانخت» أحياناً ، وهذه فى رأيه تعبر عن البديل أو القرين الذى يضحى به من أجل الملك . ولو أن أداته على ذلك غير كافية .
Rapport sur les fouiles de Dier el Medineh, 1952.

(٣) Wreszinski, *Atlas*, 63, 245 ; Schaefer, *Von aeg. Kunst*, Taf. 45 ; *ASEA*, XLVIII, 177, Fig. 17 ; see also. Quibell, *The tomb of Hesy*, pl. XXI-XXII.

(٤) Junker, in *Mitt. Kairo*, IX, 26-27.

الدلالات التى اقترحناها له . وقد عبر عن هذا المفهوم عدد من متون الأهرام كان منها ما يقول للفرعون : « ادع كاهك ، وهو أوزير عساه يحميك من غضب الموتى »[1] . ومنها ما يقول : « لن ينأى حور عنك ، لأنك كاهه »[2] « وقد دافع حور عنك وتصرف من أجل كاهه التى فيك (أو التى منك im . k) فارض إذن باسمك الكا (النفس) الراضية »[3] ومنها ما يقول : « قد نافح حور عنك (فى الدنيا) فكن كاهه (فى الآخرة)[4] . وقد يتصل بنفس الفكرة ما أسلفناه (ص١٧٤) عن احتمال دلالة بعض الأسماء الشخصية على اعتقاد الوالد باستمرار كاهه فى شخص ولده .

وما من بأس كذلك فى احتمال دلالة الكا فى بعض النصوص والمناظر الملكية التى صورت « كا » الملك الحاكم ترافقه إلى قبره[5] ، على « كا » سلفية ترعاه وتكفل له الحماية ، لا سيما إذا صور رمزها فوق حامل مقدس يوحى بقداسة أصلها[6] ، أو أضيف إليها مخصص الربوبية[7] . وقد وصف ملوك مدينة به (بوتو) القدماء أسلاف فراعنة العصور التاريخية بأنهم « كاوات به » ، ووعدت متون الأهرام الفرعون باستقرار كاهه بينهم وخلودها بخلودهم[8] . وقالت « إن بى هذا قادم إليك ، أبيه ، إنه قادم إليك أوزير ، ليعيد إليك كاهك »[9] . ولو أن الكا فى هذه النصوص الثلاثة يمكن أن تخضع لتفسيرنا العام وتعبر عن الطاقة والفاعلية أيضا ، فكاوات مدينة بوتو هم طاقاتها القدامى ، وإعادة الملك المتوفى كا أبيه أوزير إليه قد تعنى إعادته الطاقة التى استمدها منه وحكم بها على الأرض .

---

(١) *Pyr.* 63 a.

(٢) *Pyr.* 610 c.

(٣) *Pyr.* 647 d, also 582 c.

(٤) *Pyr.* 1609 b, 1831-132.

(٥) Steindorff, *op. cit.*, 157 ; *L. D.* III, 20a, 21, 55b, 78a, 113a.

(٦) *Pyr.* 561, 564b, 908, 1275a, 1357, 2051 a.

(٧) *Pyr.* 564b ; *Wb.* V, 86.

(٨) *Pyr.* 561.

(٩) *Pyr.* 1328 a.

ننتهى إذن إلى أن الكا الشخصية لم تكن شيئا خارجا عن كيان صاحبها فى دنياه ، وإنما هى على الأرجح نفسه وذاته وطاقته وفاعليته الذاتية ، تفارقه حين الوفاة ثم تعاوده حين البعث فينتفع بمقوماتها انتفاعا يناسب العالم غير المنظور الذى تصورت العقائد المصرية أنه سوف يعيش فيه . ولما كانت الكا هى مصدر الطاقة فى الإنسان اعتبرت قبسا ربانيا فى داخله [1] ، ولما كانت هى نفسه ومصدر رغباته تحدثت النصوص عن حاجتها إلى البراءة فى الآخرة [2] ، أى جعلتها شريكا لصاحبها فى المسئولية الخلقية أمام بارئها . ومع هذه الكا الشخصية نمت بعض النصوص عن الاعتقاد فى كا أسرية أو سلفية تسرى بين الوالد والولد فى دنياه وتحن إلى الخلف وترعاه فى أخراه ، فضلا عن كا إلهية تجل فى نفسها وذاتها وطاقتها وفاعليتها عن كاوات البشر .

وإذا افترضنا ترابطا بين هذه الأنواع الثلاثة من الكاوات ، أى الأنفس والطاقات التى امتدت من الخالق إلى من صدر عنه من الأرباب ثم إلى الفراعنة والناس ، وربطنا ذلك بما ذكره المذهب المنفى المصرى فى تفسير نشأة الوجود من اعتبار الإله الخالق « العظيم جدا » مصدرا خالدا لكل الطاقات المعنوية والعضوية فى الوجود ، فهل يمكن أن نرى فى كل ذلك أصلا قديما متواضعا استفاد به وطوره الفيلسوف السكندرى الموطن أفلوطين فيما خرج به (فى القرن الثالث الميلادى) عن النفس الكلية واعتبار النفس طاقة ألقتها الروح ، وما يتصل بذلك من تفسيرات فى نظريته عن الفيض ؟ ذلك فرض محتمل وإن لم يكن بالوسع تأكيده .

وقد قال بشىء من الترابط الذى افترضناه بين أنواع الكا باحثون آخرون (راجع ص١٦٩) ، وهؤلاء يمكن أن نستبعد من آرائهم رأى ألكسندر موريه عن الربط بين الكا المصرية وبين عقيدة المانا فى المذاهب الطوطمية من حيث اعتبارها

---

(١) A. Erman, in *Sitz. Berl.—Akad.*, 1924, 86 f.

(٢) *Pyr.* 935 a.

روحا علوية سرت بين الآلهة والناس ، إذ لا نجد دليلا صحيحا يرجح أخذ المصريين القدماء بالعقائد الطوطمية وتوابعها [1] .

* * *

البا (الروح) :

لم يكن تعريف البا أقل غموضا من تعريف الكا فى المذاهب المصرية القديمة ، وإن جرت العادة على ترجمته اصطلاحا بمعنى الروح . وقد نسبه المصريون إلى الأرباب وإلى الناس . ورسموا لفظه بصورتين صورة طائر أسود يتدلى هدب تحت عنقه [2] ، وصورة مبخرة صغيرة . وأضافوا إليه فى بعض أحواله مخصص الربوبية تلميحا إلى طبيعته القدسية [3] . وقليلا ما أضافوا إليه حروفه الهجائية [4] . ولسنا ندرى إن كانوا قد استخدموا صورة طائرهم ذى الهدب لقيمتها الصوتية وحدها ، أى لأن اسمه « با » يشبه اسم البا البشرية ، أم لأنهم تخيلوا خاصية مشتركة جمعت بينه وبينها ، كالاطمئنان مثلا إلى الحياة الأرضية مع الخفة فى الوقت نفسه والقدرة على التحليق فى الأجواء العليا. وحور كتبة الدولة الحديثة وجه طائر البا إلى وجه إنسان ، وتخلوا عن هدبه ، وميزوه أحيانا برفع كفيه البشريتين فى هيئة الابتهال والدعاء . وعامل هؤلاء وهؤلاء لفظ « با » معاملة المذكر ، وإن كنا سوف نعامله فيما يلى معاملة المؤنث أحيانا لنفس الأسباب التى أسلفناها بشأن اسم الكا (ص ١٦٨) .

لم يظهر لفظ « با » فى النصوص الدنيوية المصرية إلا لماما ، ومن استعمالاته المبكرة تضمينه فى اسم « خع با » أحد فراعنة عصر الأسرة الثالثة ، وهو اسم

---

(١) راجع عن مناقشة هذا الرأى : عبد العزيز صالح : حضارة مصر القديمة وآثارها ، القاهرة ١٩٦٢ — ص ٢١٢ — ٢١٣

and see, N. W. Thomas, «What is the Ka ? », in *J. E. A.* VI, 265 f.

(٢) L. Klebs, in *ZAe S.*, LXI, 106 ; ASEA, 1930, 1 ; Otto, in *ZAe S.*, LXXVII (1942), 78 f.

(٣) *Pyr.* 854 a.

(٤) *Pyr.* 1472 ; 1144 (*b* ; *i*).

يعنى « تجلى الروح (أو تجلى روحا) » [1] ، ويحتمل لفظ الروح فيه تفسيرين : فهو قد يرمز إلى ما تخيله أهله فى ملكهم الجديد من روحانية وقداسة ، أو يرمز إلى اعتقادهم بتجدد روح السلف فيه ، لا سيما روح ملكهم الأسطورى المؤله « حور » ذلك الذى أكد « خع با » صلته به باتخاذه لقب « حور نوب » [2] ، وذلك للمرة الأولى فى الدولة القديمة .

واستخدم أديب من العصر الأهناسى« لفظ « با » فى النص الأدبى المعروف باسم حوار اليائس من الحياة ، وأجرى حواره بين رجل مصلح سئم عيوب الحياة فى عصره وبين روحه (با) ، وجعل الروح كائنا واعيا يجادل صاحبه كأنه شخص آخر ، واعتبر ما بينهما صراعا نفسيا كان يعتمل فى داخلية الرجل بين مذهبين ، أحدهما واقعى متشائم عبر عنه منطق حاله . والآخر قدرى متواكل متساهل عبرت عنه أحاديث باهه أى روحه [3] .

ولأمر ما تحدثت نصوص الآخرة فى عصور الدولة القديمة عن « با » الفراعنة والآلهة أكثر مما تحدثت عن « با » الأفراد . فلما انتهت أيامها بتفتت العقائد الملكية وشيوعها استعارت متون التوابيت فى عصر الانتقال الأول وعصور الدولة الوسطى صفات البا الملكية القديمة ، ونحلتها لكبار الأفراد ، واستمر هذا الاتجاه فى سبيله حتى أصبحت نصوص الدولة الحديثة ومناظرها أكثر صراحة فى التعبير عنه ، فأفاضت الحديث عن « با » الأرباب و « با » الإنسان بوجه عام .

وليس من بأس فى تطبيق المفهوم العربى للفظ الروح على البا المصرية ، من حيث اعتبارها جوهرا قدسيا خالدا ذا كيان معنوى غامض ، واعتبارها معبرة عن ماهية ما أسندت إليه من المسميات معنوية كانت أم مادية (كما نتحدث الآن

---

(١) انظر أيضاً : يرون ونيس حين يظهر روحاً (*ḫ' b:*) Pyr. 394

(٢) Petrie, *History* ..., 10th. ed., 77; H. Müller, *Die Formale* ..., 56-57.

(٣) عبد العزيز صالح : الحوار فى الأدب المصرى القديم – المجلة – سبتمبر ١٩٥٧ – ص ١٦ – ٢٨

A. Schaefer, *Der Bericht über das Streitgesprach eines Lebensmüden mit seiner Seele*, 1937 ; R. O. Faulkner, «The Man who was tired of life» in *J. E. A.* 1956, 21 f.

عن الروح المصرية وروح القانون . . . وهلم جرا) ، ثم من حيث تعبيرها عن خصوصية الفرد وجوهره وارتباطها برغباته المعنوية ، واقترانها بعالم السماء . ولكن بغير أن نتوقع أن يغطى هذا التفسير كافة الوظائف التى وصفت « البا » بها فى النصوص والمناظر المصرية القديمة .

ومن أرق ما صورت متون الأهرام « با » الأرباب به ، عبارة سبحت بها إله الشمس فى فترة الشفق قائلة له : « عز وجهك أيها الروح (با) فى احمراره » [1] وكأنها أرادت بذلك أن تنفذ بتسبيحها من خلل كوكب الشمس المادى الظاهر إلى الروح المعنوى الذى يتحكم فيه ويخلع لونه الأحمر عليه [2] (إن لم تدل على معنى آخر تردد صداه منذ عصور الدولة الوسطى وسوف نعرض له فى ص ١٩١) .

واعتبرت متون الأهرام « با » الفراعنة عنصرا يفارق صاحبه حين الوفاة ويتخذ سبيله إلى السماء ويحيا بين أربابها وبين نجومها [3] . وكان لهذا التخيل صلته بوصف السماء بأنها ذات ألف روح [4] ، وعدد الألف هنا يعبر عن الكثرة العددية دون التحديد بطبيعة الحال . وتأرجحت هذه المتون فى تصوير روابط البا بصاحبها بين المعنوية وبين المادية ، فروى أحدها عن الفرعون أنه « أتت به روحه » ولعله عنى بذلك أن روحه الطيبة أو روحه القوية هى التى زكته فى الارتفاع إلى العلى وإلى عالم الأرباب [5] . وقال آخر : « استخلص الأرباب

---

(١) *Pyr.* 854 a, 285 d ; see also *C. T.* 94, 69 (L. Speleers, *Textes des Cercueils au Moyen Empire Egyptien*, 58, 321) ; H. Kees, *Farbensymbolik* ..., 448.

(٢) انظر أيضاً : « تتحدث روح رع على قرصه وتصدر الأوامر إلى المحيطين بها عن أسرار ساكن السماء .. وهم يتعبدون حرارته ، وروحه تنطلق خلفه (خلف قرصه) » و « روحك السماء يامن يسيطر على الأفق ، وظلك يعبر مناطقك الخفية ، وبدنك للأرض » و « التهليل لروح رع فى السماء والخوف أمام بدنه فى الأرض » .

Piankoff, *op. cit.*, 367, 176, 193.

(٣) *Pyr.* 723, 763, 904, cf. *Wb.* I, 411, 15.

(٤) *Pyr.* 785 b, 1303c.

(٥) *Pyr.* 250 d. — وعقب النص على ذلك بقوله « وزكاه سحره » — قارن كذلك النص الذى وصف رهبة أهل السماء حين يشهدون (الفرعون) قد تجلى روحاً فى إهاب إله ، وإن كان هذا الإله قد وصف بأنه يحيا على آبائه ويلتهم أمهاته *Pyr.* 393 a-394b.

(الفرعون) بروحه إلى السماء فصار روحا بينهم [1] . وقال غيره مخاطبا الفرعون : « روح ينبغى أن تكون وأنت روح ، شديد البأس ينبغى أن تكون وأنت شديد الأيد » [2] .

وتخطت طائفة أخرى من متون الأهرام صورها المعنوية إلى تصورات أخرى مادية ، فقال أحدها يخاطب الفرعون بقوله « روحك لك فى بدنك » [3] ، أى أنه تخيل للروح مكانا فى كثافة البدن .

وتحدثت بضعة متون عن عمليات للروحنة ، فقال أحدها للمتوفى « انهض إلى خبزك الذى لن يجف وشرابك الذى لن يأسن حتى تصبح روحا به ، وتتيقظ وتتجلد . . . » [4] ، وذلك مما يعنى أنه اعتبر الماديات وسيلة من وسائل بلوغ الروحانية واستمرارها .

وعلى نحو ما تخيلت متون الأهرام استمرار النفس (الكا) بين السلف وبين الخلف ، تخيلت للروح الدور نفسه ، فقالت : « تعال أوزير إلى روحك ، الروح بين الآخو (أى بين الأطياف النيرة) ، فلسوف تتأيد بذلك مكانته (أى مكانة الروح أو مكانة صاحبها) » [5] .

وهكذا كان الشأن بالنسبة لنصوص الدولة الوسطى فى تصويرها لطابع الروح وعلاقاتها بصاحبها فى أخراه . . فالى جانب ما أكدته لها من خلودها المعنوى فى السماء ، جعلتها هى والكا صنوين فى تقبل القرابين من الأحياء وفى رحاب الأرباب ، فقال خيتى فرعون أهناسيا لولده : « إن الروح تقصد المكان الذى عرفته ، وان

---

(١) *Pyr.* 799 c.

(٢) *Cf.* Spiegel, *op. cit.*, 332.

(٣) *Pyr.* 753 a.

(٤) *Pyr.* 859 a ; See J. H. Breasted, *The Dawn of Concience*, 48-49.

ولعله أراد بكلمة « با » هنا معنى القوة (راجع ص ١٩٣) فيكون معنى النص « .. حتى تقوى وتتيقظ وتتجلد » .

(٥) *Pyr.* 215 b.

تضل عن مسالك الأمس ولن يصدها سحر حين تهرع إلى من يهبونها الماء »[1] .

وقال أحدهم فى متون التوابيت . « أبسط يدى اليوم نحوك ، يوم التقدمة لكاهك وباهك »[2] ، أى أبسط يدى لك بالدعاء وبالقربان من أجل فاعليتك ومن أجل روحك . وخاطبت نفس المتون أصحابها بقولها « روحك على الأرض ، وجسدك على التراب »[3] . وقولها « روحك على الأرض وظلك فى القبر (أو فى الخفاء »[4] ، أى أنها اعترفت بالفصل بين المادة وظلها من ناحية وبين الروح من ناحية أخرى . ولكنها للغريب ربطت الروح بعالم الأرض ، وإن كان من المحتمل أنها عنت بذلك أحد أمرين آخرين وهما تأكيد قدرة الروح على مشاركة الأحياء حياتهم على الأرض ، وتأكيد وجودها بينهم فى شخص ابن صاحبها[5] .

وميزت نصوص الدولة الحديثة بين الكا وبين البا فى مثل قولها :

wsr kꜣ.k, tnw bꜣ.k أى اشتدت فاعليتك (كاهك) ، وتميزت روحك (باهك)[6] .

وقولها : *swꜣš bꜣ.f sḥtp kꜣ.f* أى تقدست روحه (باهه) واطمأنت نفسه (كاهه)[7] .

واحتفظت بعض هذه النصوص للبا بقدرة ذهنية فى الآخرة ، فقالت على لسان المتوفى وهو يخاطب أحد المسيطرين على مسالك الآخرة : « افتح سبيلا لروحى حتى تفسر حديث أوزير لأصحاب الأماكن الخفية »[8] . وروت عن الأبرار أن « أرواحهم تتحدث عنهم فى الآخرة »[9] .

---

(١) Pap. Petersburg, 1116 A, rt. 52-53. وقارن كذلك قوله « ينبغى أن يفعل الإنسان مايصلح روحه (عن طريق) خدمة الكهنوت الشهرية ولبس النعال البيضاء » *Ibid.*, 64.

(٢) *Textes des Cercueils*, Discours 45, 193.

(٣) *Ibid.*, Disc. 20, 56.

(٤) *Ibid.*, 2, 8 and see, Speleers, *op. cit.*, p. 106 f.

(٥) *Textes des Cercueils*, Disc. 34, 128 ; 35, 130 ; 38, 162.

(٦) *Wb.*, V, 87, 1 (Theb. Grab Nr. 68—517. 523—D. 18/19).

(٧) *Ibid.* (Med. Habu 803 Raum 44).

(٨) *B. D.* Ch. XCII, 9-10 ; B. Gunn, *Syntax* ..., 163.

(٩) Piankoff, *op. cit.*, 248.

وربطت بعض مناظر الدولة الحديثة بين بلوغ الروحانية وبين طقوس دينية تؤدى من أجلها فاحتفظت مقبرة رعمس وزير أمنحوتب الثالث بمنظر يصوره بين كاهنين يصبان فوقه ماء طهورا ويرتلان عليه دعواتهما . وعنون الفنان هذا المنظر بأنه منظر « تعهده يوم مولده روحا (با) قدسية مؤهلة ، (ويوم) تقديمه بين الآخو (أى بين الأطياف النيرة)[1] *rnnwt. f hrw n ms (w)t. f r b3 ʿpr* *ntry sḫnwt. f m-m 3ḫw* أى أنه اعتبر العملية التى قام الكاهنان بها قد استهدفت تخليص رعمس من ماديته وإظهاره فى خلق جديد وفى صورة تليق بروحانية الآخرة .

واتسعت التصورات الدينية منذ الدولة الوسطى وخلال الدولة الحديثة بخاصة ، فى تصوير آفاق الروح . فنعتت أرواح البررة بالكفاية والفضل [2] ، وعينت لها أعيادا تعرفها وتجتمع فيها [3] ، وتخيلت لها حرية التنقل حيث شاءت والتشكل بأى صورة شاءت [4] ، لا سيما صورة الطائر . فصورتها تحط طورا على شجرة قرب مقبرة صاحبها ، وطورا ترتوى من بركتها ، وطورا تنساب إلى مدخل القبر وتنزل فى بئر الدفن ، وطورا تحط على الجسد وتتلبسه وتحييه [5] ، وطورا ترف على قمة الهريم الذى يعلو المقبرة عند شروق الشمس [6] ، وتحقق بذلك أمل صاحبها فيما عبرت عنه متون التوابيت وكتب الموتى باسم الخروج بالنهار[7] ، وحينذاك قد تصحب إله الشمس فى موكبه « على حين يبقى جسدها فى مكانه »[8] . على حد تعبير المصريين . وطورا تنصرف الروح إلى عبادة ربها[9] ، وطورا

---

(١) Davies, *The Tomb of Ramose*, p1. XXI, p. 20.

(٢) ***B. D.*** Ch. I, 30 f.

(٣) ***B. D.*** Ch. XCII, 5-6, 8 ; Piankoff., *op., cit.*, 37.

(٤) ***B. D.*** Ch. XV, 18 ; LXXXIII ; K. Sethe, *Die Sprüche frü das Kennen der Seelen der heiligen Ortes*, Leipzig 1925.

(٥) ***B. D.*** Ch. LXXXIX, 1, 5-6, 12 ; Piankoff, *op. cit.*, 78 ; London Stele 599.

(٦) Vatican 127 A (5), D. 18.

(٧) *Textes des Cercueils*, 93-97 ; etc. ; ***B. D.***, Ch. I ; XCII ; etc.

(٨) ***B. D.*** Ch. LXXXIX, 10-11 ; XC11 ; Piankoff, *op. cit.*, 135, 219, 322, 328, 331, 336.

(٩) *Pap. of Ani*, p1. 33-34 ; Piankoff, *op. cit.*, 353.

تكون مع ابن صاحبها فى دنياه بحيث ترعاه وتؤيده وبحيث تسمح له بأن يعتبر نفسه « الروح الحية » لأبيه على الأرض [١] . وقد تحضر تقديم القرابين باسم صاحبها [٢] وتنتفع بها انتفاعا يناسبها ويناسب العالم غير المنظور الذى تعيش فيه .

وتضمنت متون التوابيت وكتب الموتى تعاويذ تحول دون احتجاز الروح فى الأرض وتحول دون سلبها من صاحبها [٣] ، وتعاويذ أخرى ترشدها إلى صاحبها وتصرفها إليه إذا تباطأت عنه [٤] .

وتوسع أهل الدولتين الوسطى والحديثة فى تصوير مفهوم البا . فاعتبروها معبرة عن مظهر ما أسندت إليه وعن آيته [٥] . فضلا عن تعبيرها عن روحه وجوهره ، ماديا كان أم معنويا . عاقلا كان أم غير عاقل . فاعتبروا الظلام « با » الليل ، أى مظهره *(b; pw n Kkw grḥ)* [٦] . واعتبروا الهواء « با » الإله شو ، أى المظهر الدال على وجوده [٧] . وتمثلوا « با » الإله رع فى أكثر من مظهر من مظاهر دنياهم . فتمثلوها فى كوكب الشمس وفى طائر البنو وفى فاعلية السحر [٨] .

واعتبروا اليم « با » الإله حوح أى مظهر وجوده . واعتبروا الماء « با » نون أى آيته *(b; pw n Nww mw)* [٩] . وكان نون عندهم أصلا للوجود . وتخيلوا نجم الجوزاء « با » الإله أوزير . أى آية خلوده . واعتبروا نجم الشعرى « با » الربة إيسة أى مظهرا لبهائها ونورها . واعتبروا الإله حور (ومن يقوم مقامه

---

(١) *Textes des Cercueils*, Disc., 34, 128 ; 35, 130 ; 38, 162.

(٢) *Ibid.*, Disc. 45, 193 ; *B. D.* Ch. I, 34-36 ; Piankoff, *op. cit.*, 192, 193, 243.

(٣) *B. D.*, Ch. LXI ; XCI ; XCII, 8f. ; Piankoff, *op. cit.*, 129.

(٤) *B. D.*, Ch. LXXXIX, 2, 5-6.

(٥) A. H. Gardiner, in *P. S. B. A.*, XXXVI, 258 ; *Egyptian Grammar*, 1927, 173.

(٦) The Book of the Cow, see, Piankoff, *op. cit.*, Fig. 157, p. 225.

(٧) *Wb.* I, 411, 14 ; Piankoff, *op. cit.*, 225.

(٨) *Wb. I*, 411, 13 ; *Urk.* IV, 48: Dester., 87 ; *Sonnenlit.*, 206 ; Budge, *Papyrus of Ani*, p. 620, 552 ; Piankoff, *op. cit.*, 189, 193, 225, 274.

(٩) Piankoff, *op. cit.*, 225.

من الفراعنة) البا الحية لأبيه أوزير على الأرض [١] . واعتبروا التمساح « با » المعبود سوبك ، أى مظهره المختار أو آيته فى الماء [٢] . واعتبروا هيئة التيس « با » رب جدة (وهو أوزير رب منديس) [٣] . واعتبروا الفحل سماور « با » المعبود جب [٤] ، أى مظهرا من مظاهر قدرته . واعتبروا الفحل حب (أبيس) با المعبود بتاح ، أى آيته أو رسوله على الأرض [٥] .

ترجم إبرهارد أوتو مفهوم البا بأنه Lebenskrafte وافترض له ثلاثة وجوه اثنين يعنيان المظاهر الخارجية للحياة وثالثا يدل على حظها الروحى وخصائصها الدينية[٦] . وعارضه يواقيم شبيجل ورأى أن إطلاق اسم « با » على إله أو ملك أو فرد عادى أو جماد يعنى أنه مجرد حامل لقوة ربانية ، أو هو جسد وتجسيد لها [٧] . ورتب شبيجل على هذا الأساس أن المصريين اعتبروا الفرعون « با » لأنه حامل التاج المقدس ، وأنهم رمزوا إلى ملوك ما قبل الأسرات فى مدن أونو وونو وبه ونخن ، باسم « باو » لأنهم كانوا فى رأيه ممثلين للأرباب على سطح الأرض وحاملى رسالتهم . كما لقبوا المعبود أوزير بلقب « باتى » ، وهو لفظ يعنى المحفة ، باعتباره حامل الملكية القديمة أو حامل شخصية أبيه جب رب الأرض . وأطلقوا على يد الأداة الموسيقية التى كانوا يستخدمونها فى أعياد الربة حتحور (وهى آلة السستروم) اسم « بات » لأنها تحمل رأس المعبودة حتحور المشكل فوقها وتحمل قداستها . واسترسل شبيجل فى استشهادات أخرى لا تخلو من جهد ، ولكن أغلبها يمكن أن يفسر بغير ما فسره به ، كما سيتضح بعد قليل .

---

(١) راجع حاشية ١ ص ١٩١

(٢) A. Erman, in *Sitz. Berl. —Akad.*, 1916, 1148.

(٣) W. Budge, *Pap. of Ani*, p. 569, *etc.* ; Piankoff, *op. cit.*, 225.

(٤) *B. D.* Ch. XVII, 116 (Budge, *op. cit.*, p. 397).

(٥) Harris, I, 449 ; Vatican 127 ; A. Erman, *op. cit.*

(٦) Eberhard Otto, in *Miscellanea Gregoriana*, 194, 151 f. ; in *ZAe S*, LXXVII, (1942), 78 f., and see, *Le compte rendu de J. Capart*, in *Chronique d'Egypte* , 1942, 104.

(٧) J. Spiegel, *Das Werden der Alt-Aegyptischen Hochkultur* ..., 330 f.

وعلى نحو ما تخيل أتباع رع لإلههم الأكبر أربع عشرة كا ، افترضوا له كذلك سبعة أرواح [1] ، تأكيدا منهم لخلوده وتعدد آياته .

وعلى نحو ما احتمل لفظ «كا» وجمعه «كاو» أكثر من معنى ، احتمل لفظ «با» وجمعه «باو» معانى أخرى غير الروح بأحوالها المختلفة . فعبر مفرده عن القدرة والسمعة [2] ، وكان ذلك أساسا فيما يبدو لما خاطبت متون الأهرام الفرعون به باعتباره أوزير ، حين قالت : «استخلص (حور) عينه بيده ووهبك إياها ، فكن «با» بها» [3] ، وأرادت أن ترمز بذلك إلى وفاء الابن لأبيه واستعداده لأن يهبه أعز ما لديه ممثلا فى عينه التى سوف تعيد قوته إليه ، أو ممثلا فى تاجه الذى سوف يعيد هيبته إليه . وأكدت كتب الموتى هذا المعنى الأخير حين قالت «إن ما فعله حور من أجل أبيه هو أنه هيأ البا (له) بعد أن أصلح التاج» ، أى هيأ له القدرة والهيبة بعد أن استرجع له تاجه . وعقب حور على ذلك بقوله «. . . وقد خلصتك ممن تآمروا ضدك وجعلتك «با» أنت وما يتعلق بك» .

وعادت متون الأهرام فعبرت عن جلال (الفرعون) المتوفى فى الآخرة بمثل قولها : "*b3. f tp. f*" ، أى قدرته فوقه (أو تعلوه قدرته) ، وسحره على جانبيه» [4] . وبمثل قولها : *b3. k m R'* [5] . وتحتمل هذه العبارة الأخيرة أكثر من معنى ، فهى قد تعنى قدرتك مثل (قدرة) رع ، أو روحك مثل (روح) رع ، أو تعنى روحك من رع . .

ويبدو أن أمثال هذه النصوص التى أدى فيها لفظ «با» معنى القدرة : فعلا واسما وصفة ، هى التى صرفت شبيجل إلى ما ارتآه من معنى حامل القدرة : وإن أسرف فى تطبيقاته .

---

(١) أدولف إرمان : ديانة مصر القديمة – ص ١١٢

ولسنا ندرى إن كان تعبير السبع أرواح أصلا لما يتخيله العامة حتى الآن لأرواح القطط ذات الصلة القديمة برموز رع ، أم أن تخيلهم هذا هو وليد ملاحظتهم السطحية لقدرة القطط على النهوض من الكبوة المميتة فيما لو سقطت من حالق ، نظراً لمرونة أجسامها .

(٢) *Wb.* I, 411, 15.

(٣) A. Piankoff, *op. cit.*, 163.

(٤) *Pyr.* 992 c, 1472.

(٥) *Pyr.* 2110.

وعبرت صيغة الجمع « باو » عن الأرواح في مثل حديثها عن « باو أونو » ، و « باو ونو » و « باونخن » و « باوبه »، أى أرواح ملوك فجر التاريخ فى كل من مدن عين شمس ، والأشمونين (أو ما يجاورها) ، وما يقابل الكاب قرب إدفو ، وفى تل الفراعين أو تل إبطو الحالية [1] . ثم عبرت النصوص باللفظ نفسه « باو » عن القدرة كما عبر مفرده ، وبمعنى آخر عبرت به عن مجموعة الصفات التى تؤدى إلى القدرة [2] ، لاسيما بالنسبة للآلهة والفراعنة .

☆ ☆ ☆

الآخ (أو النورانية) :

ظل « الآخ » أكثر العناصر المعنوية الثلاثة غموضا ، ويبدو أنه كان يعنى قبسا إلهيا ، وكيانا نورانيا ، يتحول الأبرار إليه فى أخراهم ويعرفون به . وعبرت اللغة المصرية بلفظ « آخ » عن فضائل معنوية كثيرة مثل الصلاح والنفع والإخلاص والنبالة والشرف والقداسة والجلال والبهاء فضلا عن الروحانية [3] . ويبدو أنه كان لاشتقاق هذا اللفظ صلة بكلمة آخو التى تعنى ضوء الشمس ونورها ، وكلمة آخت التى تدل على الأفق والمشرق وربما على أرض النور أيضا [4] . وعلى هذا الأساس تحدثت متون الأهرام عن أزلية الفرعون المتوفى وأبديته بين الأرباب فى أفق السماء ، ثم فسرت ذلك بقولها « لأن أرواحهم فى بدنه ونورانياتهم (آخاتهم) لديه (أى بين يديه) » [5] . وقالت متون التوابيت لأحد الموتى « أنت من

---

(١) K. Sethe, *Unters* ..., III, 1f. ; *Urgeschichte* ..., 127, 165, 170, 172 f, 186 ; J. H. Breasted, in *B. I. F. A. O.*, (1931) 709 f. ; F. L l. Griffith, *Two Hieroglyphic Papyri*, pl. IX, 10.

(٢) J. Vandier, *La Religion* ..., 131 ; Pyr. 477 a, 1449 b ; etc.

(٣) *Wb*. I, 13-16, and see H. Kees, *Totenglauben* ..., 57-58 ; Spiegel, *op. cit.*, 240, 719 ; Sethe, in *ZAe S*, LVII, 137.

(٤) *Wb*. I, 13, 33 ; *Pyr*. 585.

(٥) *Pyr*. 413 a. — انظر أيضاً عن الربط بين آخ وآخت : « لديك آخ حور ، باسمك آخت الذى تخرج الشمس منه » *Pyr*. 585. وذلك ما يحتمل أن يعنى : لديك نورانية حور بما يناسب اعتبارك المشرق الذى تخرج الشمس منه .

أصبحت آخا بالضياء كالشمس والكوكب الفرد » [1] . ووصف أحدهم نفسه فى كتب الموتى بقوله « إنى حور فى نورانيته » ، « وإنى واحد من أولئك الآخو الذين فى النور الإلهى » ، « وإنى واحد من أولئك الآخو الذين فى النور الذى خلقه (الإله) أتوم بنفسه . الموجودين فى مقلة عينه التى برأها وزكاها . أولئك الذين ميز (أتوم) وجوههم (بالنور) منذ وجودهم معه » [2] . قارن لذلك قول القرآن الكريم (ونورهم يسعى بين أيديهم) .

ونسبت المصادر المصرية صفة الآخ إلى الأرباب والفراعنة وخيار الناس ، ورفعتها إلى السماء . فقالت متون الأهرام « الآخ للسماء والجسد للأرض [3] ، ولعلها ابتغت أن تفرق بذلك بين النقيضين ، بين النورانية الشفافة وبين الكثافة المادية . وكان من أعز ما يتمناه المرء لنفسه أن يصبح « آخ فى السماء ، وسر فى الأرض ، ماع خرو فى الآخرة » [4] ، أى نورانيا فى السماء ، مقتدرا فى الأرض ، صادق الدعوى فى الآخرة . وقليلا ما ذكر لصفة الآخ مكانها فى الأرض أو فى الجبانة [5] .

وربطت تقاليد الدين المصرى بين بلوغ غاية الآخ وبين دعوات وتراتيل أدت غرض عبارات التزكية والتأبين الحالية ، وأطلقت عليها اسم « سآخو » *s;ḫw* وجعلتها قرينة للبراءة ، فقالت متون الأهرام « وقف حور وزكاك وبرأك فانطلق إذن إلى السماء » . وعنونت متون التوابيت فصلا فيها بعنوان « عبارات التزكية (*s;ḫw*) وبداية كتاب تبرئة الإنسان فى الآخرة » [6] . ووعدت بعض

---

(١) *Textes des Cercueils*, 44, 181.

(٢) *B. D.* Ch. LXXVIII, 39-40 ; 15 ; 19-21.

(٣) *Pyr.* 474.

(٤) Lacau, *Sarc.*, I, 171 ; Cairo 20450 ; *Urk.* IV, 518 ; *Mem. Miss.*, V, 640 ; *ZAeS*, LVII, 137.

(٥) *L. D.* II, 72a ; *Textes des Cercueils*, Disc. 12, 40 ; 74 ; 80-81 ; 95, 74 ; 96 ; *ZAe S*, LVII, 11, Taf. III, 2.

وعن تقبلها البخور والماء والقرابين :

Wb. I, 16, 7, Piankoff, *op. cit.*, 176, 274, 300.

(٦) *Textes des Cercueils*, Discours I ; also 36, 136.

النصوص صاحبها بقولها «لسوف تتلى من أجلك آيات التزكية *šdi.tw n.k rw s;hw* (أو تراتيل وتزكيات ؟) [1] . وعنونت نصوص أخرى قراءات بعض الكهنة بأنها *šdt s;hw 'š* أى قراءة تزكيات كثيرة أو قراءة تزكية الجمهور [2] . ويبدو أنه كان يتعهد هذه العملية ، عملية التزكية في عصر بداية الأسرات ، كاهن يلقب بلقب سخن آخ *shn ; h* [3] ، ربما بمعنى محتضن الآخ أو متعهد النورانية [4] ، ثم تولاها بعد ذلك الكهنة المرتلون (خريو حبت) ليزكوا المتوفى بها باسم الدين نيابة عن الأحياء . وليس من المستبعد أن يكون هذا التقليد أساسا لما سجله المؤرخ ديودور الصقلى عن حفلات التأبين المصرية القديمة التى روى أن الجمهور كان يشترك مع الكهنة فيها لإعلان صلاح المتوفى وطهارته [5] .

وأسندت النصوص الدينية أداء هذه العملية فى رحاب السماء ، إلى الأرباب لصالح بعضهم البعض ولصالح الفراعنة . فصورت حفلا يقول الآلهة فيه « يا أرض اسمعى ما يتلوه حوروهو يزكى *(s;h. f,* var. *s;hw.f)* أباه » [6] . ويقال « صمتا صمتا أيها الناس ، سمعا سمعا أيها الناس ، اسمعوا هذا الحديث الجليل الذى قاله حور لأبيه أوزير فأصبح به (آخا) حيا ، وروحا مبجلا . . . » [7] ، «ويا أرض اسمعى ما يقوله رع وهو يزكى (الفرعون) بى حين يتلقى نورانيته *(;h.f)* فى مواجهة الأرض ، وحين يهبها له ، بعد أن اعتبره فى منزلة الإله » [8] ، و« يا أرض اسمعى هذا الذى يردده جب وهو يزكى أوزير لمنزلة الإله » [9] . ووعد رجال الدين الفرعون بقولهم « لسوف تخرج على صوت

---

(١) A. H. Gardiner and *G. Davies*, *The Tomb of Amenemhet*, p. 56.

(٢) Cairo 20571.

(٣) Petrie, *Royal Tombs*, I, p1. XXXI, 20, 26 ; XXXII, 23-30 ; Zaki Saad and E. Drioton, in *ASEA*, Cahier 3, p. 8 No. 2.

(٤) اعتبر Weill هذه العبارة وصفاً للمتوفى وقرأها *i;hw shnw* بمعنى الروح المحمية R. Weill, *Recherches sur la Ire Dynastie*, II, 185, n. 2.

(٥) Diodorus, I, 92.

(٦) *Pyr.* 1712 a.

(٧) *Textes des Cercueils*, 29, 81.

(٨) *Pyr.* 795.

(٩) *Pyr.* 1013 a.

(الإله) إنبو حين يزكيك »[١] ، وقالوا : « إن ما يقدمه آتوم لرع هو أن يزكيه ويقدس روحه ويؤذى أعداءه »[٢] .

وفى السماء يلقى الصالحون ما قدر لهم من نورانية، أو تسعى إليهم نورانيتهم على حد تعبير متون الأهرام[٣]، وينضم بعضهم إلى بعض . ويوصفون بأنهم *k ꜣw ꜣ ḫw* أى الأنفس النيرة[٤] ، ويخلدون ولا يغيبون ، شأنهم شأن النجوم التى لاتريم[٥] . ويكون فى بلوغهم هذه الغاية ما يفتح لهم مغاليق السماء ، بحيث يتساءل الإله أوزير عن طريقة وصول أحدهم إليه ، قائلا : « كيف وصل هذا الروح الحق ؟ » فيجاب عليه بأنه « دخل باعتباره نورا قدسيا *ꜣḫ nṯr (y)*[٦] . وعادة ما تجمع النصوص إلى أولئك الأبرار أطراف الكفاية والمعرفة والجلال بحيث يوصف أحدهم بأنه *ꜣḫ ꜥpr*[٧] أى آخ مؤهل (بصالح الأعمال أو بتزكية الناس) ، وآخ ممتاز مؤهل *ꜣḫ ikr ꜥpr*[٨] ، وآخ كفء يعرف كل ما يصلح له ، وآخ مؤهل جليل *ꜣḫ ꜥpr špss*[٩] وآخ فاضل *ꜣḫ mnḫ*[١٠] وآخ مقدس *ꜣḫ nṯr*[١١] ، فضلا عن أنه آخ حى *ꜣḫ ꜥnḫ* . ويبلغ أحدهم غاية أمله حين يصبح آخا زكيا للمعبود رع *ꜣḫ ikr n Rꜥ*[١٢] أى قبسا نورانيا زكيا من إله الشمس نفسه . هذا ويحتمل من بعض النصوص المتأخرة أن لفظ « آخ » أصبح يعنى معنى الطيف والشبح ، وطابقه لفظ إخ فى اللغة القبطية[١٣] .

---

(١) *Pyr.* 796.
(٢) Piankoff, *op. cit.*, 147.
(٣) *Pyr.* 752b, 833 b.
(٤) *cf. Wb.* I, 15, 17 ; 16, 4 (Avignon 1 (Var. 42) D. 18 ; Hannover 22-27 N.K.).
(٥) *Pyr.* 153-159 ; 556 b, 1220 b, 2103.
(٦) *Textes des Cercueils*, Disc., 36, 142.
(٧) *Pyr.* 1771 a ; *Urk.* I, 224 ; Louvre C 15 (M. K.).
(٨) *Urk.* I, 79, 122, 143 ; J. H. Breasted, *Ancient Records*, I, 378, 329.
(٩) Junker, *Giza* II, 55 ; *L. D.* II, 72 a.
(١٠) Brit. Mus. 947 (N. K.) ; *Totb.* Naville, 127 A, 11.
(١١) *Textes des Cercueils*, 30, 86 ; 33, 112 ; 36, 137.
(١٢) *Die Belegstellen* (*Wb.*) I, 16, 4 (Hannover 22 (27) N. K.)
(١٣) *Wb.* I, 16. 10.

وجرى أهل السياسة والدين على مألوف عادتهم فى تمييز الفراعنة عمن سواهم ، فى الدنيا وفى الآخرة ، فافترضوا أن فرعونهم سيكون فى مقدمة النيرين (آخو) وإمامهم[1] ، وأكثر نورانية منهم *ꜣḫ r ꜣḫw* [2]، واعتبروا فى بلوغه هذه الغاية ما يسمح لهم بأن يقولوا له «ما أطيب حالك ، ها أنت آخ بين إخوانك الأرباب» [3] ، وما يسمح له «بالقول الفصل بين الأرباب وبين الأغراب»[4] وما يكون قرينة على سمو منزلته عن مقدسات السماء نفسها حيث يقال له «أنت روح ، وبذلك أنت أقدر من الأرباب أنفسهم . . . ، أى آخهم» [5] . وزادت متون الدين فأنذرت مقدسات السماء والأرض والجهات الأربع بقولها «إنه أصبح نورا (آخا) لا يأفل ، إن شاء أن تعيشوا عشتم ، وإن شاء أن تهلكوا هلكتم» [6] ، وحينذاك يكون الفرعون قد نحى بشريته بعد أن كانت كأنها جزء منه (أو عضو فيه) » [7] ، على نحو ما عبرت به عنه متون الأهرام .

ووصف أحد فصول كتب الموتى نعيم الآخرة بصفات معنوية جعل من أولاها بلوغ النورانية (آخو) ، وصور الفارق بين ظلمة المقبرة فى باطن الأرض ووحشتها وبين راحة النفس التى تنتظر الصالحين فيها ، فقال : «حقا إنها (قفر) بغير ماء ولا هواء ، عميقة للغاية ، مظلمة جدا قصية جدا ، لا حد لها ولا نهاية ، ومع ذلك سوف يحيا الإنسان (الصالح) فيها فى راحة قلب (أى فى سعادة نفسية) . هى أرض لن تمارس فيها شهوات الجنس ، ويوهب الإنسان فيها نورانية عوضا عن الماء والهواء ومتعة الجنس ، كما يوهب راحة القلب عوضا عن الطعام والشراب ».[8]

---

(١) *Pyr.* 556 b, 755b. 579, 800 c, 833b, 858 b, 903 b, 1220 a.

(٢) *Pyr.* 813 d.

(٣) *Pyr.* 221.

(٤) *Pyr.* 797.

(٥) See, Spiegel, *op. cit.*, 719.

(٦) *Pyr.* 153-159.

(٧) *Pyr*-371a.

(٨) *B. D.* Ch. CLXXV, 10-13 (*The Papyrus of Ani*).

الدبلوماتيقـــا

للدكتور حسن على حسن الحلوه
مدرس الوثائق ــ كلية الآداب ــ جامعة القاهرة

(أولا) اشتقاق كلمة الدبلوماتيقا (١)

الدبلوماتيقا ، من حيث الاشتقاق ، هى علم الدبلومات . وبيان ذلك أنه يوجد فى اللغة اليونانية القديمة الفعل διπλοῦν (دبلون) ، ومعناه يثنّى أو يضعّف ؛ ومنه الإسم اليونانى διπλεμα (دبلوما) ، ومعناه الحرفى الشىء المزدوج . وقد انتقل هذا الاسم إلى روما ، ليستعمل فى الدلالة على تذاكر الطريق ، التى يمنحها الـ «سيناتوس» والامبراطور للبريديين ، لتخول لهم حق السفر بالبريد العام؛ وكذلك فى الدلالة على الأجازات التى تمنح للجنود الذين يتمون الخدمة العسكرية على نحو مشرف . وتعرف هذه الأجازات بالدبلومات العسكرية . لأنها تتألف من لوحين متجاورين من البرونز ، أى من لوح مزدوج تحفر عليه نصوص المراسيم الإمبراطورية ، التى تمنح هؤلاء الجنود حقوق المواطنين الرومانيين ، ويغلق كما يغلق الكتاب . وجاء العصر الوسيط ، فلم يبطل استعمال الإسم تماماً ، وإن كنا لا نجد له أثراً على الإطلاق فى لغة الدواوين . ثم أقبل عصر النهضة ، فأطلقه العلماء على وثائق الملوك والشخصيات الكبيرة القديمة ، واشتقوا منه الكلمة اللاتينية (de re diplomatica) (فى الدبلوماتيقا) ، التى أعطت فى اللغات الأوربية الحديثة : (diplomatique) ، بالفرنسية ؛ (diplomatica) ، بالإيطالية ؛

---

(١) أنظر A. Giry, Manuel de diplomatique, Paris, 1925, p. 6—8.
وانظر كلمتى « cursus publicus » و «diploma» فى Ch. Daremberg et E. Saglio, Dictionnaire des antiquités grecques et romaines, Paris, 1877 — 1919. وكلمة «diploma» فى Du Cange, Glossarium mediae et infime latinitatis, éd. Didot, Paris, 1840—1850.

(diplomatics) ، بالإنجليزية ؛ (diplomatik) ، بالألمانية ، وإن كان يفضل عليها اليوم (Urkundenlehre) . وقد رأينا أن ننقلها إلى العربية فنقول « الدبلوماتيقا » ، على غرار قولنا « الميتافيزيقا » .

لكن ليس هناك من يعرف الدبلوماتيقا من حيث الاشتقاق ، فيقول أنها علم الدبلومات . لأن لفظ الدبلوم لم يكن محدد المفهوم تماماً لدى المؤرخين والباحثين فى التاريخ من عصر النهضة ؛ ولأن مفهومه المأخوذ به اليوم لا يصدق على جميع الوثائق التى تدرسها الدبلوماتيقا ، وإنما يصدق على وثائق معينة ، تعنى بالشكلية عناية خاصة ، صدرت عن الحكام وبعض كبار الشخصيات فى العصر الوسط .

(ثانيا) موضوع الدبلوماتيقا ومنهجها

الوثيقة القانونية — الدبلوماتيقا هى العلم الذى يدرس الوثيقة القانونية ، والوثيقة القانونية هى كل مكتوب يشتمل على تصرف قانونى أو واقعة قانونية . فأما التصرف القانونى ، ففعل إرادى تترتب عليه آثار قانونية من إنشاء حق أو إلتزام أو تعديله أو إبطاله . وقد يصدر عن إرادة واحدة ، كالعتق ، والهبة ، والوصية ، وأمر الرئيس لمرءوسيه ، والمسامحات [1] ، والطرخانيات [2] ، والإقطاعات ، والأجازة بالفتيا والتدريس [3] وعراضة الكتب [4] . أو يصدر عن اتفاق إرادتين

---

(١) وهى المسامحات « بما جرت به عادة الدواوين السلطانية من المقررات واللوازم السلطانية (القلقشندى ، صبح الأعشى . دار الكتب الخديوية . ج ١٣ . القاهرة ، ١٩١٨ م ، ص ٢٣) » .

(٢) « والمراد بها أن يصير الشخص مسموحا له بالخدم السلطانية : يقيم حيث شاء ، ويرتحل متى شاء : تارة بمعلوم يتناوله مجانا ، وتارة بغير معلوم » . وهى « تكتب للأمراء تارة وللأجناد أخرى ، وأكثر ما تكتب لمن كبرت سنه وضعفت قدرته وعجز عن الخدمة السلطانية » (القلقشندى ، المرجع نفسه ، ص ٤٨) .

(٣) « جرت العادة أنه إذا تأهل بعض أهل العلم للفتيا والتدريس – أن يأذن له شيخه فى أن يفتى ويدرس ، ويكتب له بذلك » (القلقشندى ، المرجع السابق ، ج ١٤ ، ص ٣٢٢) .

(٤) « وأما الأجازة بعراضة الكتب ، فقد جرت العادة أن بعض الطلبة إذا حفظ كتابا فى الفقه ، أو أصول الفقه ، أو النحو ، أو غير ذلك من الفنون ، يعرضه على مشايخ العصر ، فيقطع الشيخ المعروض عليه هذا الكتاب ، ويفتح منه أبوابا ومواضع ، يستقرئه إياها من أى مكان اتفق ، فان مضى فيها من غير توقف ولا تلعثم ، استدل بحفظه تلك المواضع على حفظه لجميع الكتاب وكتب له بذلك كل من عرض عليه » . (القلقشندى ، المرجع نفسه ، ص ٣٢٧) .

أو أكثر ، مثل العقود على اختلاف أنواعها ، سواء منها ما يعقد بين الأفراد أو الدول ، كالزواج والبيع والشراء والاتفاقيات السياسية والاقتصادية والثقافية وغيرها . وأما الواقعة القانونية ، فحدث قد تتدخل الارادة فيه كالفعل الضار مثلا . وقد لا تتدخل كالميلاد وبلوغ سن الرشد والوفاة . وفى الحالين تترتب آثار قانونية كما فى التصرف القانونى تماما من انشاء حق أو التزام أو تعديله أو ابطاله ، مع هذا الفارق الجوهرى ، وهو أنه فى التصرف القانونى تترتب الآثار على الفعل الارادى ، بينما هى فى الواقعة القانونية تترتب على الحدث نفسه دون اعتبار للارادة إن هى وجدت [1] . وتختلف الآثار القانونية تبعا لنوع الفعل أو الواقعة بطبيعة الحال [2] .

الشكل هذه الوثائق القانونية يصح أن تدرس من أكثر من وجه من وجوه المعرفة . وإنه ليدرسها المشتغلون بعلوم الكتابة واللغة والنظم والقانون وغيرها ؛ ويجدون فيها — كل فيما يخصه — معلومات على جانب كبير من الأهمية . فمن أى وجه من وجوه المعرفة يدرسها الدبلوماتيقى اذن ؟

إنه يدرسها من حيث الشكل ، كى يتحقق من صحتها ويحدد قيمتها باعتبارها شواهد تاريخية . وشكل الوثيقة هو مجموع خصائصها الخارجية والداخلية . فأما الخصائص الخارجية فتشتمل على كل ما يتصل بالمادة المكتوب عليها والمادة المكتوب بها والخط والختم وطريقة اخراج الصفحة والتصحيحات وعلامات الصحة . وكلها أمور لا يمكن دراستها إلا فى الأصل نفسه . وأما الخصائص الداخلية فتشتمل على كل ما يتصل باللغة والصياغة والوقائع التاريخية والقانونية . وكلها أمور تدرس فى الأصل نفسه إن وجد ، ولكن ليس ما يمنع من أن تدرس فى نسخة صحيحة من الأصل إن انعدم أو تعذر الحصول عليه .

ولما كانت الوثائق القانونية مرآة تنعكس عليها حضارة البيئة التى أنشأتها ، فقد تغير شكلها فى الزمان والمكان بتغير هذه الحضارة كيفا وكما . وكان على

---

(١) إن موضع الاعتبار فى الواقعة القانونية بالنسبة للدبلوماتيقى هو الشخص الذى تقع عليه الواقعة وليس الشخص الذى تصدر عنه ، فإنها من حيث صلتها بهذا الأخير تصرف قانونى .

(٢) قارن: Georges Tessier, Diplomatipue (Encyclopédie de la Pléiade, vol. XI: L'histoire et ses methodes, p. 633-676, Bruges, 1961), p. 664-665.

حيث يقتفى أثر فكر (Ficker) فيمد مفهوم الفعل القانونى المكتوب ليشمل الوثيقة التى تصاغ برهانا على حدث خلو من المضمون القانونى ، كالحدث الفنى أو الادبى أو العاطفى أو السياسى .

الدبلوماتيقى أن يصف الشكل وما يعتريه من تغيرات . وكان عليه أيضا ألا يقف عند مرتبة الوصف ، وإنما يتعداه إلى مرتبة التفسير فيرد التغيرات إلى أسبابها الحضارية العامة والخاصة وهى على وجه الاجمال : تقاليد العصر أو البلد الذى أنشأ الوثائق ، وأنواع ما تشتمل عليه الوثائق من تصرفات تنظم العلاقات القانونية بين الناس ، وعادات الدواوين وتقاليدها فى الانشاء ، وصفة من يعهد إليه بالانشاء أو الكتابة وما قد يخضع له من أمزجة وأهواء .

وغنى عن البيان أن هذا الوصف وهذا التفسير يقتضى من الدبلوماتيقى أن يكون على إلمام واسع بمعارف فنية متنوعة ، تتعلق بحساب الأزمنة . والنظم ، والآثار . والكتابة ، واللغة ، والقانون العام والخاص ، وغير ذلك ، فى أزمنة مختلفة وأماكن مختلفة ، حتى يتسنى له أن يتفهم ما فى الوثيقة القانونية من العناصر الزمنية ، وأسماء الأشخاص وصفاتهم وألقابهم ، وأسماء الأماكن ، واللغة ، وطريقة الانشاء ، وغير ذلك مما يرد فيها منذ أن لم يكن لها شكل معين وإلى أن أخذ يبرز لها شكل شيئا فشيئا ليثبت فى نهاية الأمر على أوضاع معينة محددة يختص بها ديوان دون آخر من الدواوين المختلفة .

والشكل بعد كل هذا هو جوهر الوثيقة القانونية وسر كيانها اذن . فاذا هو روعى فصدرت الوثيقة فى الشكل المتفق عليه فى الديوان المنشىء أو لدى الشخص المنشىء ، تحقق لها بذلك كمالها وتمامها وترتبت عليها آثارها القانونية . وإذا هو أغفل لسبب من الأسباب فصدرت الوثيقة على غير القواعد المرعية فى الديوان المنشىء أو لدى الشخص المنشىء ، لم يتحقق لها بذلك كمالها وتمامها وفقدت بالتالى قيمتها القانونية وأفاتت صاحبها الغاية المرجوة منها .

الصحة والدبلوماتيقى لا يدرس الشكل لذاته ، وإنما يدرسه للتحقق من صحة الوثيقة . وهو يعنى هنا الصحة الدبلوماتيقية على وجه الخصوص ، وهى التى تتحقق عندما تصدر الوثيقة فعلا عن الجهة التى تقول إنها صادرة عنها وطبقا لقواعد الانشاء المرعية هناك بما يضمن لها قيمتها الشرعية . وهى فى هذا المعنى تختلف عن الصحة التاريخية التى تتحقق عندما تكون المعلومات الواردة فى الوثيقة مطابقة للواقع . لكن ليس معنى هذا أن الدبلوماتيقى يغفل الصحة التاريخية ، فانه يستفيد بها فى الحكم على الصحة الدبلوماتيقية وكذلك فى تقويم الوثيقة باعتبارها شاهدا من شواهد التاريخ.

وقضية الصحة الدبلوماتيقية هذه قضية جوهرية بالنسبة للدبلوماتيقى ، بل إنها أولى القضايا التى يواجهها وأدقها .

القيمة التاريخية واهتمام الدبلوماتيقى بالصحة التاريخية إلى جانب الصحة الدبلوماتيقية معناه أنه يحلل الوثيقة إلى عناصرها الشكلية والموضوعية المختلفة ، ويقوم كل عنصر منها على انفراد ومن حيث ارتباطه بالعناصر الأخرى ، كى يستخلص منها شاهداً تاريخياً ويحدد قيمتها من هذا الوجه . وقد تكون الوثيقة — كلها أو بعضها — صحيحة شكلا (الصحة الدبلوماتيقية) وموضوعا (الصحة التاريخية) ، أو غير صحيحة شكلا وموضوعاً ، أو صحيحة شكلا غير صحيحة موضوعاً ، أو صحيحة موضوعاً غير صحيحة شكلا . فترقى بذلك إلى مرتبة الأصل الصادق[1] الذى يعد شاهداً تاريخياً من الدرجة الأولى يطمئن إليه المؤرخ عند استخدامه غاية الإطمئنان ، أو تهبط إلى مستوى النسخة التى تدعى انتساب عناصر الشكل والموضوع فيها إلى عصر سابق على العصر الذى أنشئت فيه فتمد المؤرخ مع ذلك بمعلومات قيمة عن مظاهر الحضارة فى العصر الذى وقع فيه التزييف[2] أو تقع فى مرتبة من المراتب المتوسطة العديدة بين هاذين النقيضين ، فيتيسر للمؤرخ بذلك أن يحدد ، بدوره ، موقفه منها إذا ما فكر فى استخدامها فى كتابة التاريخ .

وتحديد قيمة الوثيقة باعتبارها شاهداً تاريخياً أمر جوهرى بالنسبة للدبلوماتيقى . وهو الذى يقرر مفهوم كل من الأصل والمسردة والنسخة وأنواع الصلات التى تربط بينها .

تحقيق النص وتقترن العمليتان السابقتان — التحقق من صحة الوثيقة ، وتقويمها باعتبارها شاهداً تاريخياً — بعملية أخرى هى تحقيق النص ، يحاول فيها الدبلوماتيقى أن يقرأ الوثيقة ليقدم نصاً لها واضحاً كاملا قدر الإمكان ،

---

(١) من الأصول ما يشتمل على معلومات غير مطابقة للواقع ، ويعرف هذا الصنف من الوثائق باسم « مزيفات الدواوين » ، وهو صعب تمييزه ، لكنه نادر .

(٢) الواقع أن العناصر الكاذبة — شكلا أو موضوعاً — فى الوثيقة لا تقل فى قيمتها التاريخية عن العناصر الصحيحة فيها .

دون أن يقضى مع ذلك على شخصيتها أو طابع العصر الذى أنشئت فيه ، فينقط حيث ينعدم النقط ، ويشكل متى رأى ضرورة لذلك ، ويصحح أخطاء المملى أو الكاتب ، ويكمل النقص حيث تفتقد الحروف أو الكلمات لسبب من الأسباب . وجملة القول ، فانه يدخل على النص ما يرى من تعديلات بالإضافة أو الحذف على أن ينبه إلى ذلك بالوسيلة الملائمة .

وتحقيق النص أمر هين نوعاً عندما يوجد الأصل ، لكنه يصبح عسيراً أو معقداً عندما يفقد ولا يصلنا منه سوى نسخة أو أكثر قد تحتوى على أخطاء أو إضافة أو حذف ، فيستعين الدبلوماتيقى عليها بالنقد اللغوى ، فيقارن بين النسخ بعضها بعضاً ، ويصنفها ، ويقرب بينها وبين شبيهاتها الصادرة عن نفس الجهة وفى نفس التاريخ .

(ثالثا) الدبلوماتيقا والتاريخ

والدبلوماتيقا تصلها بالتاريخ صلة قوية . فهى تدرس مصدراً من مصادر التاريخ (ا) ، وتنتهج فى دراستها المنهج التاريخى (ب) ، وتقصد – فيما تقصد – من وراء هذه الدراسة أن تمهد الطريق للمؤرخ (حـ) .

(ا) الوثيقة القانونية مصدر من مصادر التاريخ إن مصادر التاريخ كثيرة متنوعة ، تنقسم إلى صنفين رئيسيين : مصادر مقصودة ، قصد بها منشؤها أن تكون شواهد تاريخية مثل كتب التاريخ ، والحوليات ، والمذكرات ، والسير ؛ ومصادر غير مقصودة ، لم يقصد بها منشؤها أن تكون شواهد تاريخية مثل قطعة النقود ، وجرة الفخار ، والتحفة الفنية . والأثر المعمارى ، والنص الأدبى أو الدينى ، والوثيقة القانونية .

ويعيب المصادر المقصودة أنها تنعدم فى بعض فترات التاريخ فيجب حينئذ الاستعاضة عنها بغيرها ، وتتأثر بهوى مؤلفها – وكثيراً ما يظهر تحيزاً يبتعد بنا عن الحقيقة التاريخية – ، وترتبط قيمتها بقيمة المصدر الذى يستقى منه – وكثيراً ما يستقى من مصادر غير موثوقة من غير نقد لها أو قدرة منه عليه – فيجب حينئذ التحقق من صحتها .

أما المصادر غير المقصودة فهى أوفر . لأنها ترتبط بمظاهر الحياة اليومية الجارية ؛ وهى أوثق وأضمن ، لأنها تخلو من عامل الهوى أو تخضع لرقابة الجهة التى تنشؤها أو تشارك فى إنشائها ، كالموثق أو القاضى أو الديوان أو الأطراف المتعاقدة ، وليس لأى منهم مصلحة فى أن يغش أو يخدع إلا فى القليل النادر ، ومع تعذر ذلك فى أغلب الأحيان . ولذلك فانه يستعاض بها عن المصادر المقصودة عندما تنعدم ، ويتحقق بها من صحتها عندما توجد .

غير أنه ينبغى عند استخدام المصادر غير المقصودة فى هذا الغرض أن يكون قد سبق دراستها دراسة نقدية بقصد تفهمها الفهم الصحيح . وتأويلها التأويل السليم ، وتقويمها على حقيقتها . ومن هنا نشأت إلى جانب علوم التاريخ علوم أخرى مساعدة مثل دراسة اللغات المقارنة . وعلم الآثار ، والدبلوماتيقا ، وغيرها ، يتناول كل منها مصدراً من هذه المصادر فيحدد منهج البحث فيه وطرق التحقق منه .

(ب) المنهج التاريخى ويتضح لنا مما تقدم أن منهج الدبلوماتيقا إنما هو فى جوهره المنهج التاريخى يطبقه الدبلوماتيقى على صنف معين من أصناف المصادر التاريخية — هو الوثائق القانونية — يتميز بأن له جهة معينة صدر عنها ، وتاريخاً معيناً صدر فيه . وصحة يمكن التحقق منها .

وليس المقصود بالمنهج التاريخى هنا العمليات التحليلية والتركيبية معاً . وإنما المقصود العمليات التحليلية وحدها ، أو ما يعرف بالنقد بمظهريه الخارجى (أو المادى) — وفيه يتحقق الدبلوماتيقى من نص الوثيقة ، ومصدرها أى منشؤها وتاريخ إنشائها ومكانه — والداخلى (أو التفسيرى التأويلى) — وفيه يتحقق الدبلوماتيقى من مدى مطابقة المعلومات الواردة فى الوثيقة للواقع .

وليس النقد الخارجى والداخلى عمليتين مستقلتين تسبق إحداهما الأخرى . إنما هما عمليتان مترابطتان تتمان فى نفس الوقت ، وتعتمدان على نفس العناصر النقدية ونفس المقارنات .

(حـ) الدبلوماتيقى والمؤرخ وبالنقد الخارجى (المادى) والداخلى (التفسيرى التأويلى) ينتهى عمل الدبلوماتيقى . غير أنه يبدأ حينئذ عمل المؤرخ ،

وهو التركيب – أو البناء – التاريخى ، الذى يمثل الشق الثانى من المنهج التاريخى ويعرف بالعمليات التركيبية : وفيه يستخدم المؤرخ الشواهد الدبلوماتيقية التى أعدتها له الدبلوماتيقا ، ويربط بينها وبين غيرها من الشواهد التاريخية التى تعدها له العلوم المساعدة الأخرى مثل علم المسكوكات وعلم الآثار وغيرها ، فى محاولة منه لكتابة التاريخ . والوظيفتان – وظيفة الدبلوماتيقى ووظيفة المؤرخ – مختلفتان تماماً . وليس للدبلوماتيقى أن يجمع بينهما بالضرورة . فانهوفعل ، فانما بصفتين مختلفتين كل الإختلاف إذن . وليس الجمع بينهما بالأمر اليسير ، لأنه يتطلب وقتاً وجهداً قلما يتوفران ، بل إنهما لم يتوفرا – فيما نعلم – إلا لقلة من العلماء يعدون على الأصابع فى العالم كله .

تلك هى المظاهر الثلاثة للصلة القوية التى تصل الدبلوماتيقا بالتاريخ وتجعل منها علماً من علوم التاريخ المساعدة [١]. ومن ثم فان المنطق يقضى بأن تستقل الدبلوماتيقا وما يلحق بها من علوم – كالكتابة والأرشيف والنظم وفقه اللغة وغيرها – فى قسم خاص من أقسام كلية الآداب أو فى معهد من المعاهد العليا ، أو أن يجمع بينها وبين علوم التاريخ فى قسم التاريخ إن كان ثمة ضرورة للجمع بينها وبين علم آخر . ولكن ليس من المنطق فى شىء أن يجمع بينها وبين علوم المكتبات كما هو حاصل فى قسم الوثائق والمكتبات بكلية الآداب بجامعة القاهرة .

---

(١) قارن Georges Tessier, Diplomatique (Encyclopédie de la Pléiade, vol. XI : L'histoire et ses méthodes, p. 633—676, Bruges, 1961), p. 670.
حيث يقول : « ان فكرة العلم المساعد المطبقة على الدبلوماتيقا تبدو لنا موضع جدل ، وعتيقة ، تماماً ، كفكرة قصر المنهج على وثائق العصر الوسيط وحدها . ان هذه الفكرة تتجسد فى أسطورة الإلهة كليو (Clio) التى تحول بعبقريتها المواد التى تقدمها لها خادمات حاذقات . وأننا نتبين هنا التركة الشعورية قليلا أو كثيراً التى خلفها لنا موقف جدير بالإحترام ، مشروع ، بلوضرورى فى نظامه ، لكنه غريب على الروح العلمية الدقيقة . وإذا كانت هذه الروح ما تزال تريد أن تخلع على التاريخ شيئاً من الوجود الحقيقى ، فإن عليها أن تضعه بالأحرى عند مفترق طرق متلاقية ، تربط بينها فضلا عن ذلك روابط متعددة ، وتمثلها العلوم التاريخية المستقلة المختلفة ، التى يتميز كل منها بموضوعه ومنهجه . إن الأفعال القانونية المكتوبة – شأنها شأن الظواهر الخطية التى تدرسها الباليوجرافيا أومقياس الزمن الذى تدرسه الكرونولوجيا – تبدو من هذا الوجه بمثابة ظواهر اجتماعية ووقائع حضارة تستحق أن تدرس لذاتها » .

فالدبلوماتيقا بعيدة عن هذه العلوم بعد علوم الإجتماع ، واللغة العربية ، والآثار ، والجغرافيا ، والتاريخ عنها . ولأن تنفصل وتستقل خير لها وأبقى من هذا الوضع الذى ينعدم فيه الإنسجام تماماً : إنها زيجة خلت من الوفاق ولن يتحقق لها فى يوم من الأيام .

(رابعا) فصول الدبلوماتيقا

وتشتمل الدبلوماتيقا على فصول ثلاثة : (الفصل الأول) فى أحوال انتقال الوثائق إلينا . ويدرس مفهوم المسودة والأصل والنسخة والسجل ويقرر قيمة كل منها . (الفصل الثانى) فى شكل الوثيقة . ويدرس الوثيقة وصفاً وتفسيراً فى حالتها الساكنة عند صدورها وقد صبت فى القالب الخاص بها . (الفصل الثالث) فى إعداد الوثيقة . ويدرس الوثيقة فى حركتها ، فيتتبعها ، أولا ، فى مراحلها المختلفة — كالإلتماس والتسويد والتبييض والمراجعة ووضع علامات الصحة — التى تنتهى بها إلى صدورها فى حالتها النهائية الساكنة التى يدرسها الفصل السابق . ويتتبع ، ثانياً . الأشخاص الذين قاموا باعدادها ليتبين ظروفهم وأحوالهم فى العمل . ويتتبع . ثالثاً . التقاليد التى يتقيد بها هؤلاء الأشخاص ليتبين المصدر الذى يستقون منه نماذجهم فى الإنشاء .

ويضمن الدبلوماتيقى هذه الفصول الثلاثة ما يجمعه من ملاحظات فى أثناء استقرائه للوثائق . وهو يستعين فى هذا الاستقراء بتصنيف الوثائق إلى عامة وخاصة ، وديوانية وغير ديوانية ، ومنشئة ومثبتة . وهى أصناف تختلف فى أساس التصنيف الذى تقوم عليه والغاية المرجوة منه .

الوثيقة العامة والخاصة يصنف الدبلوماتيقى الوثائق القانونية إلى عامة وخاصة . ويذهب فى ذلك مذهباً يختلف عن مذهب عالم القانون . ووجه الإختلاف أن الدبلوماتيقى ينظر إلى التصرف القانونى من حيث تعلقه بالقانون العام أو الخاص فيعتبر أن الوثيقة العامة هى كل وثيقة يتعلق التصرف القانونى فيها بالقانون العام وأن الوثيقة الخاصة هى كل وثيقة يتعلق التصرف القانونى فيها بالقانون الخاص . أما عالم القانون فينظر إلى علامات الإثبات من حيث كونها رسمية أو عرفية

فيعتبر أن الوثيقة العامة هي كل وثيقة رسمية تحمل من ثم علامات إثبات رسمية ، وأن الوثيقة الخاصة هي كل وثيقة غير رسمية لا تحمل من ثم علامات إثبات رسمية ، سواء فى ذلك أن يتعلق التصرف القانونى فيها بالقانون العام أو الخاص . فعقود البيع بين الأفراد ، مثلا ، هى فى نظر الدبلوماتيقى وثائق خاصة سواء توجه المتعاقدون إلى الهيئات العامة المختصة لتدعيم هذه العقود بعلامات الإثبات الرسمية أو لم يفعلوا ذلك . بينما هى فى نظر عالم القانون وثائق عامة فى الحالة الأولى وخاصة فى الحالة الثانية .

وإذن ، ففى مذهب الدبلوماتيقى تصدق الوثيقة العامة على جميع وثائق القانون العام ، وتصدق الوثيقة الخاصة على جميع وثائق القانون الخاص . أما فى مذهب عالم القانون فان الوثيقة العامة تصدق على جميع وثائق القانون العام وبعض وثائق القانون الخاص ، وهى تلك التى تحمل علامات إثبات رسمية ، وتصدق الوثيقة الخاصة على البعض الآخر من وثائق القانون الخاص ، وهى تلك التى لا تحمل علامات إثبات رسمية(١) .

وكلا المذهبين مشروع تماما . غير أن مذهب عالم القانون يقوم على نظرة ضيقة النطاق ، تعتبر الوثيقة مجرد أداة اثبات ، فتدرسها من حيث قيمتها الاثباتية فى كتب القانون المدنى أو كتب الاجراءات فى فصل الاثبات وطرقه . أما مذهب الدبلوماتيقى فيقوم على نظرة أوسع نطاقا ، تعتبر الوثيقة مرآة تعكس حضارة العصر الذى أنشئت فيه ، فتدرسها من حيث الشكل وطريقة الاعداد على ضوء العلوم الانسانية جميعها ، لتتحقق من صحتها وتحدد قيمتها باعتبارها مصدرا تاريخيا . وجدير بالذكر ، هنا ، أن الدبلوماتيقى عندما يتناول علامات الاثبات فى فصل من فصول الدبلوماتيقا ، إنما يتناولها فى ضوء هذه النظرية التاريخية العريضة ويتتبعها على مر العصور باعتبارها

---

(١) الدبلوماتيقيون فى الحقيقة فريقان : فريق الدبلوماتيقيين الفرنسيين ويعتنق المذهب الأول . وفريق الدبلوماتيقيين الألمان ويعتنق المذهب الثانى ، فيرى أن الوثيقة العامة هى تلك التى تتحقق لها خاصيتان : الشرعية والحجية ، ويخلط بذلك بين الفاعل القانونى (أى منشىء التصرف القانونى فى الوثيقة المكتوبة) والفاعل الكتابى (أى منشىء الوثيقة المكتوبة دون التصرف القانونى الذى تشتمل عليه) ، مع أنه يميز تمييزاً واضحاً بين الإثنين فى مصنفاته .

مرحلة من مراحل تطور الفكر البشرى فى محاولته أن يضفى على الوثيقة القانونية قيمة اثباتية أضمن وأقوى .

زد على ذلك أن مذهب عالم القانون لا يسمح بتصنيف الوثائق تصنيفا ذا قيمة عامة . بينما يسمح مذهب الدبلوماتيقى بعزل مجموعة وثائق القانون الخاص ، ودراسة تطورها مرحلة مرحلة خلال القرون . وهى مجموعة ضخمة متميزة فى نظر الدبلوماتيقى ومؤرخ القانون ، لأنها تطورت على حدة ، وتتطلب من ثم منهجا نقديا مناسبا لها .

وإذن ، فالدبلوماتيقى يعلم تمام العلم أن هناك فارقا جوهريا فى المضمون بين الوثيقة العامة والوثيقة الخاصة ، فلا يقبل أن يفصل فى دراسته بين وثيقتين من وثائق البيع التى تعقد بين الأطراف بحجة أنه اتبعت فى اعداد الواحدة اجراءات تختلف عن تلك التى اتبعت فى اعداد الأخرى . كذلك هو يعلم تمام العلم أنه ليس فى مقدوره أن يعدل من نظرته التى يقوم عليها مذهبه فى التمييز بين الوثيقة العامة والوثيقة الخاصة ، فيضيق من مداها على نحو ما يفعل عالم القانون ، وإلا فانه يخرج على الغاية من العلم الذى يشتغل به ، ويتنكر من ثم لمهمته .

ويتضح مما تقدم أن الدبلوماتيقى وعالم القانون يستعملان كلا من مصطلحى « الوثيقة العامة » و « الوثيقة الخاصة » فى مفهومين متباينين تماما . ولعل المنطق يقضى بأن يستبدلاهما بمصطلحين آخرين هما « وثيقة القانون العام » و « وثيقة القانون الخاص » على أن يوصف بالرسمية أو العرفية ما يتحقق له شروط هذه الصفة أو تلك من الوثائق ، فيختفى بذلك اللبس الناشىء عن استعمال المصطلح الواحد فى مفهومين متباينين ، ويختفى بالتالى ما بين الدبلوماتيقى وعالم القانون من اختلاف فى تعريف الصنفين ، لأنه لا خلاف بينهما فى مفهوم كل من القانون العام والخاص .

والدبلوماتيقى لا ينكر أن مذهبه فى التمييز بين الوثيقة العامة والوثيقة الخاصة مذهب تجريبى عملى لا تتوفر له الدقة التامة من الناحية العلمية ، وأن هناك بعض الوثائق القانونية يصعب عليه أن يقرر ما إذا كانت عامة أم خاصة . غير أن هذا

النقص مصدره ، فى الحقيقة ، طبيعة العصر والظروف التاريخية التى نشأت فيها هذه الوثائق [1] ، وليس مصدره المذهب نفسه .

الوثيقة الديوانية وغير الديوانية يختلف هذا التصنيف عن سابقه من حيث أساس التمييز ، ومنهجه ، وغايته . فأساس التمييز هنا هو طريقة انشاء الوثيقة ؛ ومنهجه هو دراسة خطها وأسلوبها ؛ وغايته هو الكشف عن الجهة التى صدرت عنها . فالوثيقة الديوانية هى الوثيقة التى تنشأ فى ديوان معين ، فيتبع فى انشائها القواعد المرعية فى انشاء اشباهها فى الديوان . والوثيقة غير الديوانية هى الوثيقة التى لا تنشأ فى ديوان معين ، فلا يتبع فى انشائها قواعد ديوانية ما . وقد يبدو للوهلة الأولى أن هناك تطابقا فى الماصدق بين الوثائق الديوانية والوثائق العامة . وكذلك بين الوثائق غير الديوانية والوثائق الخاصة . وهذا صحيح بوجه عام ، بمعنى أن التطابق قائم ولكنه ليس تاما : فالوثائق الديوانية تشتمل ، على وجه العموم ، على الوثائق العامة ، ولكن ليست كل الوثائق العامة وثائق ديوانية ، فان منها ما قد انشىء ، أحيانا ، خارج الدواوين. كذلك ، فان الوثائق غير الديوانية تشتمل ، على وجه العموم ، على الوثائق الخاصة . ولكن ليست كل الوثائق الخاصة وثائق غير ديوانية ، فان منها ما قد انشىء ، أحيانا ، داخل الدواوين .

والسبيل الرئيسى للتمييز بين الوثائق الديوانية وغير الديوانية ، وكذلك بين وثائق ديوان معين ووثائق الدواوين الأخرى هو دراسة الخط والأساوب دراسة مقارنة دقيقة عميقة ، فيها يقع الدبلوماتيقى على خصائص كل كاتب أو منشىء ويتعرف على وثائقه ، وبها يقع أيضا على خصائص الكتابات الاقليمية المحلية ويتعرف على وثائقها . ومحور هذه الدراسة هو التشابه : فالتشابه فى الخط والأساوب بين وثائق متعددة صادرة عن منشىء واحد وموجهة إلى أشخاص مختلفين لا رابط

(١) فى فترات الإضطراب والقلقلة حيث يتعذر على الباحث أن يحدد أين يبدأ السلطان وأين ينتهى ، فلا يتبين بوضوح من وثائق الحاكم التى تنتمى بطبيعتها إلى القانون الخاص ما إذا كان هذا الحاكم يتصرف بوصفه حاكماً ذا سيادة أم بوصفه فرداً من الأفراد . وهذا هو حال وثائق السادة الإقطاعيين فى العصر الوسيط الأوربى ، وإن من كبرى المسائل التى تعترض الدبلوماتيقيين هو تحديد الصنف الذى تنتمى إليه هذه الوثائق : هل هى عامة أم خاصة .

بينهم يكون بمثابة شهادة ميلاد لهذه الوثائق فيما يتعلق بمصدرها ، ويعني بكل تأكيد أنها صادرة عن ديوان واحد هو ديوان المنشيء المذكور . وكذلك التشابه فى الخط والأسلوب بين وثائق متعددة صادرة عن منشئين مختلفين وموجهة إلى شخص واحد بعينه يكون دليلا قاطعا على أنها أنشئت بمعرفة الشخص المذكور . لا سيما عندما يلاحظ نفس التشابه بين هذه الوثائق ووثائق أخرى صادرة عن الشخص المذكور باعتباره منشئا هذه المرة .

الوثيقة المنشئة والمثبتة يقوم هذا التصنيف على علاقة الوثيقة بالتصرف القانونى الوارد فيها . فالوثيقة المنشئة هى التى تنشيء التصرف القانونى . فلا يكون له وجود بدونها . والوثيقة المثبتة هى التى تخلد التصرف القانونى وتثبته عند الحاجة . فيصح أن ينشأ بدونها . وواضح أن الوثيقة المنشئة للتصرف القانونى هى فى الوقت عينه مثبتة له إذا ما اقتضى الأمر ذلك .

ولما كانت الدبلوماتيقا تدرس التصرف القانونى المدون . فانها تدرس الوثيقة المنشئة والوثيقة المثبتة على السواء . أنها تدرس الوثيقة المنشئة التى يدور معها التصرف القانونى وجودا وعدما ، وتدرس الوثيقة المثبتة إن وجدت . فان وجد التصرف القانونى بدونها اختصت به العلوم القانونية وانعدم موضوع الدبلوماتيقا حينئذ .

وتضم الوثائق المنشئة والوثائق المثبتة مجموع الوثائق العامة والخاصة . وقد تطور مضمونها تبعا لما طرأ على الشعوب من تطور فى ثقافتها القانونية على مر العصور . ولذلك فان هذا التصنيف أداة من أدوات النقد الدبلوماتيقى . لا يستغنى عنها فيما يتعلق بالوثائق الخاصة . ويستعان بها فى الحالات التى تمتنع فيها الوثائق على التصنيف إلى ديوانية وغير ديوانية . ولكنها لا تغنى كثيرا فى نقد الوثائق العامة . لأنه يغلب على هذه الوثائق أن تكون منشئة كلها . فيما عدا القليل النادر . كالأحكام القضائية التى لا تدون إلا بعد النطق بها .

(خامسا) الدبلوماتيقا العربية

تلك هى الدبلوماتيقا : العلم الذى يدرس الوثائق القانونية ، وصفا وتفسيرا ، من حيث الشكل ، طبقا للمنهج التاريخى ، بقصد التحقق من صحتها ، وتقويمها

باعتبارها شواهد تاريخية . وهى لا تتقيد بمكان أو زمان . وإنما تدرس وثائق جميع البلدان فى جميع العصور . وتتفرع من ثم فروعا ، بقدر ما هناك من حضارات . فمن ذلك ، على سبيل المثال لا الحصر ، الدبلوماتيقا البابلية ، واليونانية ، والرومانية ، ودبلوماتيقا العصر الوسيط فى فرنسا وألمانيا وايطاليا ، والدبلوماتيقا العربية ، وغيرها.

وتختص الدبلوماتيقا العربية بالوثائق القانونية العربية ، فى العالم العربى كله ، منذ أقدم العصور إلى الوقت الحاضر . وهى حديثة ناشئة ، ينقصها الكثير من جهود المشتغلين بها كى تؤتى ثمارها المرجوة منها . وإن الطريق إلى ذلك طويل شاق ، يتطلب تخطيطا علميا للدراسات ، تتضافر الجهود على تنفيذه ، برعاية الهيئات العلمية المختصة . ويؤسفنا أن نقول إن ما تم من دراسات حتى الآن لا يسمح بأن يكتب فصل واحد كامل من فصول الدبلوماتيقا العربية ، بينما اكتملت اليوم — أو تكاد تكتمل — فصول دبلوماتيقا العصر الوسيط فى فرنسا وألمانيا وايطاليا ، على سبيل المثال . ونحن نأمل أن تلقى دار الوثائق التاريخية القومية فى الجمهورية العربية المتحدة مزيدا من الرعاية المادية والمعنوية ، حتى يتسنى لها — وهى التى من المفروض أن تضم أثمن مصادر تاريخنا القومى [1] — أن تسهم فى تقدم الدراسات الدبلوماتيقية العربية ، بأن تقدم ما ينتظر من خدمات للباحثين فى هذا الميدان .

المراجع :

A. de Boüard, Manuel de diplomatique francaise et pontificale. 1. Diplomatique générale. 2. L'acte privé, 2 vol. et albums, Paris, 1929 et 1948.

A. Giry, Manuel de diplomatique, Paris, 1893. Nouveau tirage, sans aucune modification, Paris, 1925.

G. Tessier, La Diplomatique (Collection «Que sais-je ?»), Paris, 1952.

G. Tessier, Diplomatique (Encyclopédie de la Pléiade, vol. XI : L'histoire et ses méthodes), p. 633-676, Bruges, 1961.

(١) المعروف أن دور الوثائق التاريخية القومية ، فى دولة ما ، تتلقى وثائق الإدارات العامة والخاصة ، بعد أن تستنفد أغراضها هناك ، كى تقوم بفرزها وحفظ ما يعتبر شاهداً على نظام هذه الإدارات ووظائفها ونشاطها ، فكأننا أمام كتاب نفتحه فنقرأ فيه تطور حضارات الشعوب فى عصورها المختلفة .

NATIONAL LIBRARY LEGAL DEPOSIT
No. 152, 1969

Cairo Univ. Press, 1497-1968-450 ex.



Printed by Cairo University Press
AHMED SALAMA
Director

page d'une envolée superbe, qui se dit: «Assez pour aujourd'hui, nous allons nous reposer» (38). Et alors n'importe quoi, une banalité quelconque, un mouvement à trois temps, des triolets qui se tournent et se retournent comme des toupies, des accords parfaits plaqués pendant trois pages, du bruit pour étourdir. Ou bien des récitatifs insipides—Un livret absurde (surtout comme style)—Des ballets médiocres, même un peu ridicules—Une orchestration qui a vieilli. Mais je pardonne tout en faveur d'une soixantaine de pages qui sont ce qu'on a senti de plus profond, ce qu'on a écrit de plus beau, en musique dramatique, depuis 1800 jusqu'à l'arrivée sur notre scène, des novateurs et des révolutionnaires. C'est le chef d'oeuvre de l'ancien opéra ...

Ah ! ce misérable Rossini ! s'il avait un peu moins aimé son repos et le macaroni ... Mais il n'eût pas été, sans doute, Rossini le sensuel, le railleur(39).

Quand il écrivait ces lignes, Romain Rolland était alors âgé de 22 ans. Et l'on sent déjà chez le jeune normalien qui confie ses impressions au papier, pour lui seul, la méthode qui fera plus tard le succès du musicologue : «Ne pas séparer l'homme de l'oeuvre: aimer surtout dans celle-ci le reflet de la grande âme qui s'y mire» (40).

---

(38) «J'avais de la facilité, j'aurais pu faire quelque chose», aurait déclaré Rossini à Wagner au cours d'un entretien. (R.K.)

(39) Romain ROLLAND : *Le Cloitre de la Rue d'Ulm. op. cit.* p. 197-198.

(40) Henri PRUNIÈRES : *op. cit.* p. 304.

Etrange et dominatrice personnalité de celui que l'on considère en Allemagne comme l'héritier du génie de Wagner—celui qui a eu la double audace de récrire, après Beethoven, une *Symphonie Héroique*, et de s'en représenter comme le héros ...

Richard Strauss est à la fois un poète et un musicien. Ces deux natures coexistent en lui, et chacune tend à dominer l'autre. L'équilibre réussit à le maintenir, l'union de ces deux forces, lancées vers le même but, produit des effets d'une intensité qu'on ne connaissait plus depuis Wagner. L'une et l'autre ont leur source dans une pensée héroique, que j'estime plus rare encore que le talent poétique ou musical. Il y a d'autres grands musiciens en Europe; mais celui-ci est de plus un créateur de héros."

*

Dans cette galerie de portraits, nous avons intentionnellement laissé pour la fin un compositeur qui n'entre pas dans le cadre de notre classification chronologique : Gioacchino-Antonio Rossini. Romain Rolland ne lui a consacré aucune étude, n'en a dessiné aucune silhouette. Mais dans *le Cloitre de la Rue d'Ulm*, le jeune normalien rend hommage à cet artiste aujourd'hui si décrié qui fut adulé par les plus grands écrivains de son temps : Chateaubriand et Musset, Stendhal et Heine. Quel dommage qu'il n 'ait pas été le contemporain de Romain Rolland ! Cela nous eût sans doute valu quelques pages savoureuses, un portrait haut en couleur de ce personnage sympathique, à la fois truculent et sage, gourmand, paresseux et bonhomme. Les quelques lignes que lui consacre Romain Rolland dans son Journal ne manquent cependant pas de piquant et méritaient d'être rappelées.

ROSSINI
(1792-1868)

Jeudi 22 *mars* 1888.—«Rossini me plait, décidément. C'est un beau coloriste, vivant et chaud. J'étais heureux, en jouant son *Otello*. Mais quel scpetique et quel farceur ! Avoir été chercher son air bouffe de la Calomnie dans l'accompagnement de la mort de Desdémone. 4. *avril* 1888.—(après une représentation de *Guillaume Tell*). Ce diable de Rossini m'est incompréhensible : un vrai artiste, un grand, très supérieur à Meyerbeer, Mendelssohn, Auber, Halévy, toute la Séquelle. Une nature richement douée, un coeur capable de sentir les émotions les plus pures, les plus hautes; un cerveau capable de les exprimer et qui l'a fait souvent, avec un talent admirable ... Et cet homme qui se moque de son public et de lui -même, de ses héros et de son art ... On le voit, après une

(37) Romain ROLLAND : *Musiciens d'Aujourd'hui. op. cit.* p. 118-122.

accentue les rythmes, lourdement, violemment rebondissants, avec une énergie saccadée qui secoue l'épaule droite, sans que le reste du corps fasse un mouvement. Véritable automate, quand il salue, de tout le corps, rapidement, sèchement, trois fois de suite ...

J'aime peu Tchaikovsky comme mélodiste... Il a un vigoureux orchestre moderne, avec une forme haendelienne. J'ai plaisir à me dire qu'il y a donc un homme encore, de l'âge classique, presque scolastique ; un homme qui trouve un plaisir puissant à entendre vibrer un grand accord parfait, sans essayer de le relever par quelque piment harmonique" (35)

JOSEPH JOACHIM
(1831—1907)

Moins connu comme compositeur que comme virtuose, le grand violoniste hongrois, ami de Brahms, de Mendelssohn et de Schumann, avait fondé, en 1896, le fameux *Quartette Joachim* qui s'illustra par la perfection de ses interprétations d'oeuvres de musique chambre. Joachim est aussi l'auteur de plusieurs *cadenzas* pour violon. Celle du *Concerto en re majeur*, de Brahms est justement célèbre.

A la date des 16 et 23 Janvier 1887, Romain Rolland note dans son Journal :

"[Ecouté] Joachim au concert du Châtelet (Beethoven, Spohr, Brahms, et la *Fantaisie* 131 de Schumann, qui lui est dédiée). Rythme puissant et qui enlève. Simplicité de Joachim : il reste grave, froid; bonne tête couverte d'une crinière grise qui commence à se déplumer ; figure large et calme, encadrée dans une barbe et des favoris gris ; rien d'un artiste. Une grande sobriété de gestes, un peu de raideur dans la façon de saluer. Tel il est, tel est son jeu. Sobriété, vérité. Nulle exagération. Le plus grand naturel dans ses traits de violon et ses tours de force. Ce n'est pas un artiste de notre temps. Bonne fortune, d'entendre, à la fin du siècle, Schumann interprété par un ami de Schumann (31)".

RICHARD STRAUSS
(1864—1949)

"Silhouette haute et maigre, aux gestes saccadés et impérieux ... figure pâle un peu fiévreuse, les yeux singulièrement clairs, vagues et fixes à la fois, une bouche d'enfant, la moustache d'un blond blanc, des cheveux frisottants, formant une couronne au-dessus des tempes dégarnies, le front rond et gonflé

---

(35) Romain ROLLAND: *Le Cloître de la Rue d'Ulm. op. cit.* p. 190-191 (à la date du 4 Mars 1888).

(36) Romain ROLLAND : *Le Cloître de la Rue d'Ulm.op. cit.* p. 63.

et avec bonne humeur. J'imagine que Wagner devait parler ainsi : «Vous aimez-ma musique. Vous faites bien, c'est bien de votre part, je vous fais mes compliments ... vous avez entendu ma Messe ? Vous avez été content ? L'exécution était bonne. Cela a dû vous faire plaisir ... Oui ... Et la connaissiez-vous déjà ?... Non ? ... vous ferez bien de la jouer ... Vous savez, elle est bonne à lire, elle est bonne à lire ... Et vous n'êtes pas le seul, à l'Ecole Normale, à admirer ma musique ? Allons, j'espère qu'elle se répandra ... »,.

Et puis un geste qui en disait beaucoup. Et tout cela en souriant, en montrant ses dents menues et pointues, sans éclat de voix, sans hésitation, comme si ce qu'il disait était l'évidence même ... Il avait l'air d'un homme convaincu de la beauté des oeuvres du grand artiste César Franck, assuré du triomphe prochain du Beau, du Bien et du Vrai, et en tout cas dévoué à la cause de Franck''

Cette pointe d'humour malicieuse n'en est pas moins empreinte de quelque juvénile sévérité. Pourtant, Romain Rolland professait pour le grand compositeur belge une admiration sincère. Ainsi, le 30 janvier 1887, il notait encore dans son Journal :

« A cette heure, je me demande comment j'ai pu arriver à 21 ans sans m'être douté de ce qu'était César Franck »

Et le 12 octobre 1903 , seize ans plus tard, il écrivait à Sofia Guerriéri-Gonzaga :

«César Franck est pour moi le seul génie musical depui s Wagner—beaucoup plus pur que lui—le plus sincère des musiciens depuis Beethoven''

TCHAIKOVSKY
(1840—1893)

Une tête de diplomate ou d'officier russe. Favoris et barbe carrée. Front dégarni, osseux, fendu au milieu par une grande ride transversale ; de fortes arcades sourcilières ; les yeux très fixes, sans mobilité, regardant bien en face, mais en dedans tout ensemble ; ganté et cravaté de blanc. Quand il conduit l'orchestre, sa haute taille ne bronche pas, tandis que le bras droit, sec, dur, rapide, frappe la mesure dans l'air, parfois (dans la finale de la *Troisième suite*)

---

(32) Romain ROLLAND : *Le Cloitre de la Rue d'Ulm. op. cit.* p. 201-202

(33) Romain ROLLAND : *Le Cloitre dela Rue d'Ulm. op.cit.* p. 64.

(34) Romain ROLLAND : *Chere Sofia.* Choix de Lettres de Romain Rolland à Sofia Bertolini Guerrieri-Gonzaga. (1901-1908). Préface de Umberto Zanotti-Bianco, *Cahiers Romain Rolland* N° 10, 2 volumes, Albin Michel, Paris 1959-Tome Ier, p. 142.

Les portraits qui suivent, ceux de César Franck, Tchaikosvsky, Joachim, Richard Strauss, présentent un intérêt particulier. L'Artiste a, en effet, dessiné ces croquis d'après nature. Romain Rolland a eu, dans sa jeunesse, l'occasion de s'entretenir avec César Franck; il a vu Tchaikovsky dirigeant l'orchestre qui exécutait ses oeuvres; il a assisté à un concert de Joachim. Enfin, son amitié avac Richard Strauss a duré de longues années. Aussi nous donne-t-il de ces grands musiciens une peinture en vision directe.

CESAR FRANCK
(1822-1890)

«C'est un grand vieillard, maigre, sec, non pas timide mais gauche, de figure peu distinguée, encadrée de favoris blancs; un vilain sourire forcé ou gêné, lui ouvre la bouche et laisse voir les dents, quand il veut faire l'aimable. Rien d'un musicien mondain; il s'en faut de beaucoup. Il dirige l'orchestre d'une façon raide, automatique, un vrai métronome, avec des mouvements réguliers et secs, des gestes tranchants. C'est à peine s'il regarde ses chanteurs: c'est à eux de le regarder et de le suivre ...»

Ces lignes, écrites le 30 janvier 1887, sont extraites du Journal que tenait Romain Rolland alors qu'il était étudiant à l'Ecole Normale (30). Il continuera l'année suivente à y consigner ses impressions sur Franck :

Jeudi 22 mars 1888.—«Avec [André] Suarés, à Saint-Eustache, pour entendre la *Messe solennelle* de Franck ... Franck dirigeait, avec assez de feu, plus d'ampleur dans le geste qu'au concert où je l'avais vu. Une bonne tête de magistrat, un peu grimaçante».

28 **mars** 1888, **Mercerdi Saint**.—«Je me décide enfin à faire visite à César Franck ... La porte s'ouvre, Franck parait.

J'ai une courte conversation avec lui. Il ne me fait pas bonne impression. Il me semble d'un orgueil démesuré. Très aimable, d'ailleurs. Un grand vieillard, sec, vif, alerte, souriant de toute sa grande bouche, en montrant toutes ses dents petites et séparées les unes des autres; de petits yeux vifs; une petite tête grimaçante avec des favoris gris; une parole rapide, un peu nasillarde, assez sonore. Il me fait songer à Wagner, ce vieillard alerte, orgueilleux naïvement

---

(30) *Le Cloitre de la Rue d'Ulm*. Journal de Romain Rolland à l'Ecole Normale (1886-1889) suivi de quelques lettres à sa mère et de *Credo quia Verum*. *Cahiers Romain Roulland* N°4, Paris, Alibin Michel 1952.

(31) *Le Cloitre de la Rue d'Ulm. op. cit.* p. 196.

machoires marque le rythme avec une sauvage puissance. Cette habitude inconsciente lui vint au cours des dernières années, dans le long exercice de la solitude. *Qui n'a point vu Romain Rolland sous le Démon de la musique, délivrant les forces qui inspirent la crainte, ne le connait pas entièrement ...*

BERLIOZ
(1803-1869).

Romain Rolland a consacré à Berlioz des pages admirables. On aurait voulu pouvoir citer en entier le chapitre des *Musiciens d'aujourd'hui* traitant du grand romantique. La vie de Berlioz a été , on le sait, un long et douloureux calvaire, illuminée seulement par les éclairs de son génie. Nous nous contenterons de donner ici le portrait de l'homme.

«Il était très blond, et il avait les yeux bleus. «Des yeux enfoncés et perçants qui parfois, dit Joseph d'Ortigue se recouvrent d'un voile de mélancolie et de langueur. «Une crinière de cheveux», un immense parapluie de cheveux, surplombant en auvent mobile au-dessous d'un bec d'oiseau de proie. Un large font déjà sillonné de rides à trente ans; La bouche grande et fine, aux lèvres serrées, froncées au coin d'un pli sévère. Le menton saillant. Une voix assez grave. «Une conversation inégale, brusque, brisée, emportée, quelquefois expansive, plus souvent retenue et rude». De taille moyenne, svelte, proportionné, paraissant beaucoup plus grand assis. Maigre, anguleux toujours en mouvement, ayant gardé de son origine dauphinoise un goût d'alpiniste, une passion de marches, d'ascensions, de vagabondages qu'il conserve jusqu'à soixante cinq ans. Une santé de fer, qu'il ruine avec ses privations et ses extravagances, ses, courses sous la pluie, ses sommeils en plein air, et presque dans la neige. Dans ce corps de montagnard robuste, sec, et endurant, une âme brûlante et débile, dont le sentiment le plus fort, le plus constant, le plus torturant, fut un besoin maladif de tendresse ,, (29)

---

(28) P. J. JOUVE: *Romain Rolland vivant.* Paris, Ollendorff 1920, p. 19-20—C'est nous qui soulignons cette phrase pour mieux faire ressortir la légèreté avec laquelle s'est exprimé Pierre de Boisdeffre à ce sujet, qand il a écrit à propos de Romain Rolland: "Il voulut être musicien, mais l'opposition de sa famille (sic) et son manque de volonté le réduisirent à penser des idées musicales sous une forme littéraire" ce qui est, on le voit absolument faux, et ses ouvrages sur Beethoven et Haendel sont là pour le prouver. Romain Rolland fut à la fois interprète et musicologue. S'il ne devint ni un virtuose, ni un concertiste ni un compositeur, il possédait néanmoins à fond sa matière, en artiste et en érudit, et non point seulement «sous une forme littéraire»comme le veut Boisdeffre. (Pierre de BOISDEFFRE : *Une Histoire vivante de la littérature d'Aujourd'hui.* (1939-1964). Paris, Perrin 1964, p. 252). On peut opposer aussi aux affirmations de Pierre de Boisdeffre la citation de Martinet reproduite au début de notre article.

(29) Roman ROLLAND : *Musiciens d'Aujourd'hui* (18eme édit). Paris, Hachette 1947, p. 8-9.

ils tournaient vers le ciel un regard mélancolique. Le nez était court, cassé, laige, un mufle de lion. Une bouche délicate, mais la lèvre inférieure tendait à avancer sur l'autre. Des machoires redoutables, qui auraient pu broyer des noix. Une fossette profonde au menton, du côté droit, donnait une étrange dissymétrie à la face. «Il avait un bon sourire dit Moscheles, et dans la conversation, un air souvent aimable et encourageant. En revanche, le rire était désagréable, violent et grimaçant, du reste court»,—le rire d'un homme qui n'est pas accoutumé à la joie. Son expression habituelle était mélancolique, «une tristesse incurable». Rellstab, en 1825, dit qu'il a besoin de toutes ses forces pour s'empêcher de pleurer, en voyant ses doux yeux et leur douleur poignante».

Son visage se transfigurait, soit dans ses accès d'inspiration soudaine qui le prenaient à l'improviste, même dans la rue, et qui frappaient d'étonnement les passants, soit quand on le surprenait au piano. «Les muscles de sa face saillaient, ses veines gonflaient; le yeux sauvages devenaient deux fois plus terribles; la bouche tremblait; il avait l'air d'un enchanteur vaincu par les démons qu'il a évoqués». Telle une figure de Shakespeare. Julius Benedict dit : «Le Roi Lear».

A ce dernier portrait de Beethoven nous ne pouvons nous empêcher de comparer un autre, plutôt oublié celui-là, de Romain Rolland lui-même quand il se mettait au piano, et que nous a conservé P.J. Jouve. Ils procèdent tous deux d'une même inspiration, et l'on constate que Jouve avait lu les pages du maître :

« Il arrive que sur les instances d'une ami, [Romain Rolland] se mette au piano. Il joue quelques pages des demi-dieux de la musique, familiers à son esprit, consolation de son coeur : Heandel, Bach ou Beethoven, celui des dernières *Sonates*, des *Variations* ou de la *Messe en Ré*; ou encore il ouvre ses carnets de notes, et fait revivre un vieil air grégorien, une ariette italienne de Niccolo Provenzale ou de Scarlatti, un chant de Gluck... C'est un autre homme. Le masque est devenu presque effrayant dans sa rigidité froide qu'habite le feu. Le dos s'est voûté un peu plus, le front s'abaisse, l'oeil s'absorbe. Une formidable énergie semble l'exalter et l'épuiser, avant de descendre jusqu'aux doigts longs et arqués, qui brisent les touches ou les effleurent. Une contraction des

(27) Romain ROLLAND : *Vie de Beethoven*, Paris, Hachette 1927, p. 1-4.

Beethoven écrivait, en 1824 : «Haendel est le plus grand compositeur qu i ait jamais vécu. Je voudrais m'agenouiller sur sa tombe ».

BEETHOVEN
(1770-1827)

Nous possédons, dus à la plume de Romain Rolland, deux portraits de Beethoven, portant des dates différentes. L'un de 1894, est extrait de la *Correspondance avec Malwida von Meysenbug* (26) ; l'autre, de 1903, se trouve dans la *Vie de Beethoven,* qui parut aux *Cahiers de la Quinzaine.* Nous les donnons tout deux dans l'ordre chronologique.

1. «J'ai maintenant sous les yeux, à la muraille de ma chambre, le visage de Beethoven. C'est un masque qui fut fait de son vivant, en 1812, l'année de la *Symphonie en la,* et de la rencontre avec Goethe à Teplik ... Il est terrible. La bouche est violemment serrée, les paupières lourdement abaissées. C'est d'un sérieux imposant, et sombre jusqu'à la mort. Cependant on sent qu'il vit; et on a des instant de frayeur, le soir , qu'il ne se mette à parler. Les traits sont laids; on voit comme les productions allemandes l'ont idéalisé d'une façon banale. C'est une figure de Mongol, au front bosselé (mais sans rides, seulement le plissement des sourcils), au nez court et un peu écrasé, aux profils très irréguliers (un des côtés du menton est beaucoup moins élevé que l'autre). L'impression qui vous pénètre à sa vue, est celle d'une solitude désolée, inaccessible et violente.»

2. «Ilt était petit et trapu, de forte encolure, de charpente athlétique. Une large figure, de couleur rouge brique, sauf vers la fin de sa vie, où le teint devint maladif et jaunâtre, surtout l'hiver, quand il restait enfermé, loin des champs. Un front puissant et bosselé. Des cheveux extrêmement épais, où il semblait que le peigne n'eût jamais passé, hérissés de toutes parts, «les serpents de Méduse». Les yeux brûlaient d'une force prodigieuse, qui saisit tous ceux qui le virent; mais a plupart se trompèrent sur leur nuance. Comme ils flambaient d'un éclat sauvage, dans une figure brune et tragique, on les vit généralement noirs; ils ne l'étaient pas, mais bleu gris. Petits et très profondément enfoncés, ils s'ouvraient brusquement dans la passion ou la colère, et alors roulaient dans leurs orbites, reflétant toutes leurs pensées avec une vérité merveilleuse. Souvent,

---

(25) Romain ROLLAND: *Voyage musical au Pays du Passé,* Paris, Hachette 1946 1ère) édition : 1920) p. 54-73.

26 Romain ROLLAND : *Choix de Lettres à Malwida von Meysenbug,* établi par Marie ROMAIN -ROLLAND, Paris, Albin Michel 1948, p. 113.—La lettre en question est datée de «Dimanche soir, lundi matin, 4-5 mars 1894».

et noyée dans la graisse, doubles joues, triple menton, le nez gros, grand, droit, l'oreille rouge et longue. Il regardait bien en face, une lumière railleuse dans l'oeil hardi, un pli moqueur au coin de la grande bouche fine. Son air était imposant et jovial. «Quand il souriait dit Bierney—sa figure lourde et sévère rayonnait d'un éclair d'intelligence et d'esprit : tel le soleil sortant d'un nuage».

Il était plein d'humour. Il avait «une fausse simplicité malicieuse qui faisait rire les personnes les plus graves sans que lui-même il rît. Jamais homme ne conta mieux une histoire. L'heureuse manière qu'il avait de dire les choses les plus simples autrement que tout le monde leur donnait une couleur amusante S'il avait possédé l'anglais aussi bien que Swift, ses bons mots eussent été aussi abondants et de même nature». Mais, pour bien jouir de ce qu'il disait, il fallait presque savoir quatre langues : l'anglais, le français, l'italien et l'allemand, qu'il mêlait tout ensemble.

Il resta toute sa vie d'une liberté admirable. Il haissait toutes chaînes et demeura en dehors des fonctions officielles ... Peu instruit, semble-t-il en dehors de la musique, il avait le dédain des Académies et des musiciens académiques. Il ne fut pas docteur d'Oxford, quoiqu'on lui eût offert ce titre ... A Dublin, quand on l'intitulait sur une affiche «Dr. Haendel», il se fâchait et faisait bien vite rétablir sur les programmes «Mr. Haendel ...».

Dans ce combat perpétuel (que fut sa vie), jamais il n'usa de concessions, de compromis, de ménagements ... Il tint tête à l'aristocratie londonienne. La guerre fut âpre, impitoyable, ignoble de la part de ses ennemis ... Et si plus tard il finit par vaincre, ce fut pour des raisons étrangères à l'art ... Haendel devint subitement, après la bataille de Culloden (24) et les deux oratorios patriotiques, *l'Occasional Oratorio* et *Judas Macchabée*, un barde national A partir de ce moment, sa cause fut gagnée, et la cabale dut se taire : il était une partie du patrimoine de l'Angleterre; le lion britannique était à ses côtés ...

Cette puissante nature, ces violences, ces emportements de colère et de génie étaient dominés par une maîtrise souveraine. En lui régnait cette paix que reflètent en leurs fils certaines unions robustes et tardives. Il garda, toute sa vie, dans son art, cette sérénité profonde ...

Mais le plus beau sentiment, le plus pur qui fût en lui, à été son ardente charité ... La charité fut pour lui la vraie foi .. Il aimait Dieu dans les pauvres ...

---

(24) Bataille qui eut lieu en 1746 et au cours de laquelle les Jacobites, partisans de Jacques II et de son fils Jacques III, ainsi nommés après la révolution de 1688, furent défaits par le duc de Cumberland, ce qui mit ainsi fin aux divisions intestines qui déchiraient l'Angleterre (R. K.).

brillaient d'esprit et de malignité. Le nez charnu, aux narines gonflées, des joues lourdes, sabrées de plis grimaçants. Les lèvres épaisses, une grande bouche volontaire, qui, lorsqu'elle ne bouffonnait point, avait une expression dédaigneuse Le menton gras, creusé d'un sillon au milieu. Le cou fort. Paul Mignard et Edelinck cherchent à l'ennoblir dans leurs portraits : ils l'amaigrissent, ils lui donnent plus de caractère ; Edelinck lui prête la physionomie d'un grand oiseau de proie nocturne. De tous les portraitistes, le plus vrai paraît être Coysevox, qui ne s'est point soucié de faire un portrait d'apparat, mais qui l'a présenté simplement, comme il était dans la vie ordinaire, le cou nu, dépoitraillé, l'air brutal et maussade.

Au moral, on le connaît—assez fâcheusement. On sait qu'avec tout son talent, il ne fût jamais arrivé à la situation exceptionnelle qui lui fut dévolue sans un esprit de basse intrigue, un mélange de bouffonnerie et de flagornerie qui lui conquirent, au moins autant que sa musique, le protection du Roi. On sait par quelles ruses—disons : par quelles perfidies—il supplanta Perrin et Cambert, fondateurs de l'Opéra français et trahit Molière, dont il était l'associé et l'ami... Il était d'un ambition extrême (22)."

HAENDEL
(1685—1759)

" Le «magnifique portrait» de Haendel, qu'on va lire ci-après, est extrait d'une étude publiée dans *Voyage musical au Pays du passé.* Il ne figure pas dans la monographie que Romain Rolland a consacrée à ce compositeur, et qu'«un éditeur, avec un entêtement absurde et sacrilège, l'obligea à mutiler, à réduire de moitié ... (23) » .

"On l'appelait le grand ours. Il était gigantesque, large, corpulent : de grandes mains, de grands pieds, les bras et les cuisses énormes. Ses mains étaient si grasses que les os disparaissaient dans la chair et formaient des fossettes. Il allait, les jambes arquées, d'une marche lourde et balancée, très droit, la tête, en arrière, sous sa vaste perruque blanche, dont lesb oucles ruisselaient pesamment sur ses épaules. Il avait une longue figure chevaline, devenue bovine avec l'âge,

---

(22) Romain ROLLAND : *Musiciens d'Autrefois,* 14ème édition. Hachette, 1946, p. 108 et suivantes.—Sur la vie de ce compositeur, on lira avec profit, à part le chapitre que lui a consacré Romain Rolland, l'excellent ouvrage de Henry PRUNIÈRES: *La Vie illustre et libertine de Jean-Baptiste Lully.* Collection «Le Roman des grandes existences» Paris, Plon 1929, ainsi que l'étude de P. FENELON dans *les Grands Musiciens,* Paris, éditions Olivier Lesourd 1945.

(23) Henry PRUNIERES : *op. cit.* p. 304 ... Il s'agit de l'édition de 1910; celle de 1951, bien qu'augmentée de chapitres inédits, comme l'affirme une note, ne contient pas, non plus, ce portrait.

de m'y retremper par grands bains prolongés (plus de 20 concerts et théâtres en 30 jours). Je dois me consacrer aux tâches principales qui exigent toutes mes forces ... Impossible de faire au milieu d'elles une place à la musique. Je l'aime trop pour écrire sur elle négligemment. Je ne suspendrais mon vœu de silence que le jour où je rencontrerais un Beethoven vivant. Alors je lui sacrifierais tout le reste pour un temps".

Il tint parole. En janvier 1928 paraissait le premier des sept volumes de l'oeuvre monumentale dont la publication se poursuivra jusqu' après la mort de son auteur.

La seconde rencontre avec Beethoven, à ses yeux le seul et l'unique, le grand Beethoven toujours vivant, avait réussi à lever l'interdit.

II.—PORTRAITS DE MUSICIENS

Les portraits de musiciens de Romain Rolland rejoignent sa célèbre galerie de portraits de femmes : Sabine, Anna, Jacqueline, Antoinette, Ada ... Ici aussi le génie de l'artiste rivalise avec le talent de l'écrivain.

Les textes que nous présentons ci-après sont disposés selon l'ordre chronologique et accompagnés d'un bref commentaire.

J. B. LULLY
(1632—1687)

Romain Rolland avait entrepris pour la première fois, succinctement, l'étude de Lully dans son *Histoire de l'Opéra en Europe*. Plus tard, il reprendra le sujet dans un chapitre de ses *Musiciens d'Autrefois*, en s'inspirant surtout d'un biographe contemporain du compositeur : Lecerf de la VIEVILLE.

"Une figure intelligente et vulgaire. Les sourcils gros. De petits yeux noirs, bordés de rouge, qu'on voyait à peine, et qui avaient peine à voir, mais qui

---

(20) Henry PRUNIERES : *op. cit.* p. 306.

(21) Romain ROLLAND : Beethoven. Les grandes époques créatrices. 7 volumes, Paris, Editions du Seuil. 1928-1949.

Tome 1 : *De l'Héroïque à l'Appassionata* (1928).

Tome 2 : *Goethe et Beethoven* (1930).

Tome 3 : *Le Chant de la Resurrection* (La Messe Solennelle et les dernières sonates) (1937).

Tome 4 : *La Cathédrale interrompue.—*1. *La Neuvième Symphonie* (1943).

Tome 5 : *La Cathédrale interrompue.—*2. *Les derniers Quatuors* (1943).

Tome 6 : *La Cathédrale interrompue.—*3. *Finita Comoedia.* (1945).

Tome 7 : *Les Aimées de Beethoven* (Suppléments et Compléments) (1949).

Une nouvelle édition réunissant les 7 volumes en un seul a récemment paru chez Albin Michel (1966).

de ce dernier. Cette inconscience même est une garantie de sa sincérité. Quelques pages d'un grand musicien apprennent plus sur son âme que ses biographies ou ses lettres ... (15). Le développement des phrases, la marche du morceau parlent éloquemment de son intelligence, du mécanisme de ses idées, de l'ordre et de la raison qui règnent dans son cerveau ... Le musicien qui crée n'a qu'à laisser vibrer ses souvenirs et ses passions; tout ce qu'il sent devient musique ... (La Musique) est une psychologie dont le coeur a la clef (16)».

C'est pourquoi ses autres ouvrages seront accueillis avec la même faveur. Mais voici que, après *Musiciens d'Autrefois et Musiciens Aujourd'hui,* (1908) *Haendel* (1910) (17), quelques articles publiés dans *l'Encyclopédie de la Musique* (1913) (18) et enfin *Voyage musical au Pays du Passé* (1919) (19), brusquement Romain Rolland se tait, et son silence durera dix années entières. Dans une lettre à Prunières, il explique lui-même les raisons qui l'ont motivé : «Non, mon cher ami, je n'écris plus d'articles sur la musique. *Tempi Passati !* Je me contente

---

(15) On voit ici avec quelle hardiesse Romain Rolland innove puisque déjà à cette date (1885), il attribue la création musicale à une production du subsconscient.

(16) Romain ROLLAND : *Histoire de l'Opera ... op. cit.* p. 9.

(17) Une édition augmentée du *Haendel,* revue par Félix RANGEL, a paru chez Albin Michel en 1951.

(18) Dans la préface ajoutée à sa thèse en 1931, Romain Rolland note à ce sujet : «J'ai récrit entièrement, sous une forme abrégée mais précise, et en l'accompagnant de nombreux exemples musicaux, toute l'histoire de l'Opéra au XVIIème siècle en Italie, en France en Allemagne, en Angleterre dans l'*Encyclopedie de la Musique* et le *Dictionnaire du Conservatoire,* publieés sous la direction de Robert Lavignac, dans les années qui ont précédé directement la guerre».

Pour la chronologie de l'oeuvre musicologique de Romain Rolland, voir notamment : Raouf KAMEL : *Bibliographie de l'oeuvre de Romain Rolland,* in *Bulletin of the Faculty of Arts, Cairo University,* volume XV, part 1, May 1953, pp. 59-61. Une bibliographie plus détaillée et complète se trouve par ailleurs dans la thèse de Arthur LEVY : *L'Idéalisme de Romain Rolland,* Paris, Nizet 1946. Mais il faut compter aussi la volumineuse correspondance publiée depuis cette date par Marie ROMAIN-ROLLAND: *Lettres à Malwida von Meysenbug et à Richard Strauss,* où l'on trouve des renseignements précieux. Il en va de même pour les Mémoires et autres fragments du Journal de l'auteur, récemment publiés. Et la série ne semble pas terminée.

(19) Il s'agit, dans ce volume aussi, d'études publiées entre 1900 et 1910. Seul «le Télémann est inédit» prévient Romain Rolland dans une note. Mais sans doute cette étude se trouvait-elle déjà dans ses cartons puisqu'elle avait fait l'objet d'un cours.

Romain Rolland collabore à la *Revue d'Histoire et de Critique musicale*, qui deviendra plus tard *la Revue Musicale*, de même qu'a la Revue de Paris, jusqu'en 1910. Chargé, par ailleurs, d'un cours sur l'histoire de l'Art à la Sorbonne en 1902, il avait introduit pour la première fois l'histoire de la musique dans l'enseignement de la faculté. «C'est devant une foule enthousiaste et qui s'écrasait pour l'entendre, que Romain Rolland professa durant plusieurs années», nous apprend encore Henry Prunières qui fut son élève (11). Et ce sont justement ses notes de cours qui se trouvent à l'origine des deux recueils que nous venons de mentionner.

En 1903 parut, aux *Cahiers de la Quinzaine*, la *Vie de Beethoven*. Ce fut un événement littéraire que Péguy relate en ces termes : «Le *Beethoven* de Romain Rolland venait de paraître. (On) se rappelle encore quelle soudaine révélation fut ce cahier, quel émoi il souleva d'un bout à l'autre, comme il se répandit soudainement, comme une vague, comme en dessous, pour ainsi dire instantanément, dans une révélation aux yeux de tous, dans une entente soudaine, dans une commune entente, non point seulement le commencement de la fortune littéraire de Romain Rolland, mais infiniment plus qu'un commencement de fortune littéraire, une révélation morale, un pressentiment dévoilé, révélé la révélation, l'éclatement, la soudaine communication d'une grande fortune morale (12)».

La raison d'un tel succès en était la vision même de l'auteur : «Romain Rolland se refuse de juger son héros en pur musicien. Il ne sépare pas l'homme de l'oeuvre. Il aime surtout dans celle-ci le reflet de la grande âme qui s'y mire(13)» Cette remarque de Prunières rejoint celle de Marcel Martinet, à savoir que Romain Rolland «toujours aime et cherche l'homme, dans l'oeuvre critique comme dans l'oeuvre de création; autrement la science ni l'art n'ont de sens pour lui».(14) On voit cette tendance s'esquisser déjà dans la thèse de doctorat: «La musique est l'expression immédiate et profonde du sentiment, y lit-on; chez les génies, l'expression est le reflet exact du sentiment, sans que l'artiste ait souvent conscience

---

(11) Henry PRUNIERES: *op. cit.* p. 302.—Romain Rolland occupa ces fonctions jusqu'en 1911.

(12) Charles PÉGUY, cité par H. PRUNIERES : *op. cit.* p. 217.

(13) Henry PRUNIERES : *op. cit.*, p. 304.

(14) Marcel MARTINET : *op. cit.* p. 40.

rendu à la vie un Claudio Monteverdi, tombé jusqu'alors dans un oubli complet. L'auteur souligne lui-même le fait dans ses Mémoires: «Ma thèse, écrit-il, a rouvert à la musique de cette fin du 19 ème siècle, les sources bien oubliées des maîtres italiens du début du 17ème et en particulier de Monteverdi. Quand on voit aujourd'hui la célébrité d'un tel nom, dont le génie a repris place au premier rang de l'histoire des arts et dont les oeuvres les plus rares sont à présent diffusées par le gramophone et la radio, on à de la peine à se figurer qu'en 1885, il fût pratiquement inconnu-un nom sans contenu, une étiquette sans flacon-relégué dans les dictionnaires de musique (7)».

Sans doute, relève encore Henry Prunières à propos de l'*Histoire de l'Opéra*, «nous constatons bien des lacunes dans cet ouvrage, et les chapitres : France, Allemagne, Angleterre sont insuffisants (8).» Dans une nouvelle préface ajoutée à son livre en 1931, Romain Rolland reconnaissait lui-même le fait (9), aussi avait-il pris soin de compléter ces chapitres par des articles ultérieurs qui, réunis, formèrent les deux volumes intitulés *Musiciens d'Autrefois et Musiciens d'Aujourd'hui*, publiés en même temps en 1908 (10). En effet, de 1901 à 1906

---

(7) Romain ROLLAND : *Mémoires, op. cit.* p. 194-195.

(8) Henry PRUNIÈRES : *op. cit.* p. 301;

(9) Romain ROLLAND: *Les Origines du Théâtre lyrique moderne. Histoire de l'Opéra en Europe avant Lully et Scarlatti* (Thèse pour le doctorat) Bibliothèque des Ecoles françaises d'Athènes et de Rome, fasc. LXXI, Paris, Thorin 1895.—L'ouvrage qui contient la préface de 1931 a pour éditeur Boccard. Il s'agit en fait, pensons-nous, de l'édition même de 1895, non épuisée, reprise par Boccard et à laquelle l'auteur ajouta la préface en question.

(10) On nous permettra ici une remarque à propos d'un fait qui semble n'avoir retenu l'attention d'aucun commentateur. Nombreux sont, on le sait, les critiques qui ont reproché à Romain Rolland son style jugé «lâche» et sa «syntaxe défectueuse». Or, il ne paraît pas que l'Histoire de l'Opéra puisse encourir ce reproche. Décèlerait-on la direction — et peut-être la plume—de Michel Bréal qui était, on s'en souvient, professeur de philologie et de grammaire comparée à la Sorbonne, comme ce sera le cas, par exemple, pour la thèse complémentaire de Romain Rolland : *De la Décadence de la Peinture italienne au XVIème siecle. (Cahiers Romain Rolland* No. 9. Paris, Albin Michel 1957)? Jacques Robichez fait observer, en effet, au sujet de notre auteur, que son beau-père ... voyait d'un mauvais oeil les débuts nonchalants de sa carrière. A lui, dit il, Rolland ne put. refuser *ce qui était la condition de son mariage* : la préparation d'un doctorat ès-lettres. Il n'avait aucun enthousiasme pour cette besogne qui le détournait de ses ouvrages d'imagination. C'était un pensum dont, maugréant sans cesse contre les exigences de l'érudition, il se débarrassa en quatorze mois». (Jacques ROBICHEZ : *Romain Rolland* Collection «Connaissance des lettres». Paris, Hatier 1961, p. 31). Rien de plus naturel donc que le grand érudit, excellent écrivain du reste, eût supervisé le travail de son gendre. Il en est résulté un exposé intéressant, certes, nouveau pour l'époque mais d'aspect didactique et quelque peu professoral, plutôt terne, il faut l'avouer, en dépit de sa perfection grammaticale, et qui forme un contraste assez frappant avec les deux volumes qui devaient lui servir de complément. (Sur l'école de Michel Bréal et ses théories linguistiques, voir notamment Albert DAUZAT : *La Philosophie du Langage* : Bibliothèque de Philosophie scientifique, Flammarion Paris, 1917 *passim*, mais surtout pp. 166-168. C'est Bréal qui, en philologie, créa la Sémantique).

musiciens brossés par un artiste authentique, en nous réservant le rôle modeste d'encadreur. Ces deux mots d'introduction permettront donc de mieux comprendre les textes qui vont suivre.

On sait tout ce que Romain Rolland doit à sa mère : ce fut elle qui lui ouvrit l'univers des sons, et des pages admirables ont été consacrées à cette noble femme dans le *Voyage Intérieur* (4). Mais l'«illumination»., comme il dit lui-même, se fit en 1883 : «Je m'étais gorgé de Berlioz, de Wagner, pendant tout l'hiver [1883-1884], écrit-il ; la révélation beethovénienne était venue par la *Septième Symphonie* et l'impérial *Concerto en mi-bemol* imprimé dans ma chair par la griffe souveraine de Rubinstein. [L'année] 1884 marque le plein de ma conquête par Beethoven et Wagner. Je trépignais" (5). Néanmoins, quelques années plust tard, Rome le ramènera aux pré-classiques : Bach et Rameau. En 1889, il écrit à sa soeur : «Je me mozartise toujours davantage».

En octobre 1891, Romain Rolland épouse Clotilde Bréal, fille de Michel Bréal, professeur à la Sorbonne. Ensemble, les deux jeunes gens partent à la recherche des manuscrits qui serviront pour la thèse que soutiendra Romain Rolland en 1895 sur *l'Histoire de l'Opéra en Europe avant Lulli et Scarlatti.* «Nous avions pris un appartement au premier de la via del Babbuino, près de la place d'Espagne, lit-on dans ses Mémoires ; à quelques pas, la bibliothèque Santa Cecilia où .. le cavalier Berwin ... veillait sur la musique ensevelie dans les manuscrits et les éditions rares des temps passés ... Ma jeune femme etait musicienne autant que moi; la musique était de moitié dans notre amour. Quelle joie c'était de partager ensemble l'émotion des découvertes ! Elle passait des matinées, avec moi, à la bibliothèque, à copier des partitions. Nous étions tous les deux enivrés de ces arômes de belle musique, que nous faisions lever des manuscrits où couraient nos yeux et nos doigts ... Et le soir, au piano, nous savourions nos conquêtes : c'était la première fois, depuis des siècles, que ces chants se réveillaient, nous en humions le renouveau, tout frais encore, non éventé ...En moins de quatre mois, entre Noel [1892] et Pâques [1893] j'avais ramassé la matière de mon livre sur l'Opéra ... » (6)

La valeur de cet ouvrage demeure indéniable, bien qu'il soit aujourd'hui naturellement dépassé. Entre autres mérites, il a eu notamment celui d'avoir

---

(4) Romain ROLLAND: Le *Voyage Intérieur* (Nouvelle édition augmentée de textes inédits) Paris, Albin Michel 1959, pp. 80-89.

(5) Cité par Jean-Bertand BARRÈRE : *Romain Rolland par lui-même.* Collection «Ecrivains de toujours» Paris, éditions du Seuil, (s.d.) p. 28

(6) Romain Rolland : *Mémoires et Fragments de Journal.* Paris, Albin Michel, 1956, p.194.

PORTRAITS DE MUSICIENS DE ROMAIN ROLLAND

Présentés par

RENÉ KHOURY

I.—INTRODUCTION

Alors que la vie de Romain Rolland a, pour ainsi dire, tout entière baigné dans la musique, il est étrange de constater combien peu de pages ont été consacrées à son oeuvre de musicien. A part les brèves études de Henri Prunières (1) et de Gustave Samazeuilh (2) personne, à notre connaissance, ne s'est occupé de Romain Rolland musicologue. Il ne fait point de doute cependant que. chez lui, l'écrivain procède de l'artiste et ce dernier de la musique, dont le rythme cadençait toutes les pulsions de la pensée. «On peut dire, observe Marcel Martinet, que c'est par la musique et en elle que son intelligence, autant que sa sensibilité, s'est connue et s'est formée, et nous en retrouvons l'inspiration et les méthodes dans les conceptions du penseur et jusque dans l'esthétique de l'écrivain. Le cas est rare dans la littérature et, en France, peut être exceptionnel» (3).

Le silence des auteurs à ce sujet a donc lieu de nous surprendre. Mais il est vrai que l'œuvre musicologique de Romain Rolland, pour importante qu'elle soit, s'étend sur une période de temps assez considérable. N'empêche que la Musique plane sur chacun de ses livres. En certaines pages tourmentées de "Jean-Christophe", on sent passer la houle des grandes orchestrations.

Notre petite étude n'entend pas traiter de Romain Rolland musicologue. Nous avons voulu simplement présenter, dans ces pages, quelques portraits de

---

(1) Henri PRUNIÈRES *Romain Rolland et l'Histoire musicale in* Revue *Europe*, numéro spécial dédié à Romain Rolland à l'occasion de son soixantième anniversaire, Paris, février 1926-Cette étude contient malheureusement quelques erreurs de dates.

(2) Gustave SAMAZEUILH : *Romain Rolland et la Musique* - in *Correspondance de Richard Strauss et Romain Rolland, Cahiers Romain Rolland,* N° 3, Paris, Albin Michel 1951, p. 223-235.

(3) Marcel MARTINET: *Pages choisies de Romain Rolland*, 2 volumes, Paris, Ollendorff, 5ème édition 1921, p. 37.

17. 300.

18. 19.

19. 19.

20. 19.

21. 19.

22. 19.

23. 20.

24. 20.

25. 20.

26. 20.

27. 20.

28. «Wen man tun liesse, was er wolle, der koennte sich bald vor Verwirrung den Kopf einrennen. Oder so : Wer sich erfuellen kann, was er mag, weiss bald nicht mehr, was er wuenschen soll» S. 20.

29. 21.

30. 21.

31. 21.

32. 21.

33. 264.

34. 662f.

35. 668.

36. 668.

37. Diese ebenso knappe wie treffende Formel entnehmen wir der Musil-Studie von H. P. Puetz, in : Deutsche Dichter der Moderne, hrsg. von B. v. Wiese, Berlin o. J., S. 317. Musils wichtigste grundsaetzliche Bemerkungen ueber den «anderen Zustand» finden sich in dem Aufsatz «Ansaetze zu neuer Aesthetik. Bemerkungen ueber eine Dramaturgie des Films», T 673f. Eine erschoepfende Analyse der Reflexionen Ulrichs ueber den «anderen Zustand» leistet R. v. Heydebrand, Die Reflexionen Ulrichs in Robert Musils Roman «Der Mann ohne Eigenschaften», Muenstersche Beitraege zur Deutschen Literaturwissenschaft Bd. 1, Muenster 1966, S. 95ff.

38. T 677.

39. Darauf verweist schon die Vorausdeutung S. 777, deren Gueltigkeit durch alle ueberhaupt in Frage kommenden Zeugnisse innerhalb und ausserhalb des Romans beglaubigt wird. Zur Fluechtigkeit des «Anderen Zustands» vgl. besonders auch Musils Aeusserungen T 284 und T 683.

40. 1620.

41. Vgl. hierzu auch W. Berghahn, Robert Musil in Selbstzeugnissen und Bilddokumenten, Hamburg 1963, S. 144.

42. 1615.

ANMERKUNGEN

«Der Mann ohne Eigenschaften» wird zitiert nach der Ausgabe von A. Frisé, Hamburg 1956. Die arabischen Ziffern entsprechen der Seitenzahl. Bei Zitaten aus dem Band «Tagebuecher, Aphorismen, Essays und Reden», hrsg. von A. Frisé, Hamburg 1955, ist die Seitenzahl zusaetzlich mit einem T markiert.

1. 16.

2. 16.

3. Am nachdruecklichsten wohl von W. Rasch, Robert Musil. Der Mann ohne Eigenschaften. In : Der deutsche Roman, Bd. II, Duesseldorf 1963, S. 368.

4. 133.

5. Die intellektuelle Aktivitaet, die Ulrich zu diesem Zweck entwickelt, wird im Roman nicht bloss behauptet ; sie wird im Vollzug dargestellt. Daraus ergeben sich weitreichende Konsequenzen fuer die Struktur des Werkes. Musils Roman ist ebenso Musterbeispiel eines intellektualen wie eines ironischen Romans. Was er an epischer Substanz enthaelt - z. B. die Geschichte der Parallelaktion oder Ulrichs Beziehungen zu anderen Menschen, die variierend oder kontrastierend auf ihn verweisen, bildet die Basis fuer Reflexionen, die meist von der Titelfigur, mitunter aber auch vom Autor ausgehen. Und mehr als das : die erzaehlerischen Partien haben selbst reflektierenden Charakter, sind Fortsetzung der Reflexionen mit anderen Mitteln, da Wirklichkeit im Roman nur in der Perspektive jenes Moeglichkeitssinnes erscheint, der Ulrich bei allen Ueberlegungen leitet.

6. 18.

7. 155.

8. 120.

9. 152. Einen Zusammenhang dieser Einsichten mit den Lehren Ernst Machs, ueber die Musil 1908 promovierte, behauptet besonders nachdruecklich D. Kuehn (Analogie und Variation, Zur Analyse von Robert Musils Roman «Der Mann ohne Eigenschaften», Bonn 1965, S. 21ff.).

10. Technisch gesehen folgt daraus, dass Ulrichs Geschichte nicht korrekt «erzaehlt» und das heisst : nicht durchgehend in eine durch die Kategorien der Zeit und der Kausalitaet bestimmte Ordnung gefuegt werden kann. Vgl. hierzu W. Rasch a. a. O. S. 316ff. und D. Kuehn a. a. O. S. 9ff.

11. Der Verfasser muss sich auf seine Erinnerung verlassen. Bei der Drucklegung des Aufsatzes an einem bibliotheksfernen Ort war eine nochmalige Ueberpruefung der Sekundaerliteratur nur teilweise moeglich.

12. 17.

13. 18.

14. 18f.

15. 19.

16. 1191.

ist, als begrifflicher Mitteilung sich entziehendes, mystischer Ekstase analoges Erlebnis der Identitaet des in Zeit und Raum Geschiedenen, als «Versinken in Gott ohne Gott» (37). Das Ausserordentliche des «anderen Zustands» zeigt sich darin, dass die Liebe, die ihn induziert, ebenfalls eine ausserordentliche, aus allen Ordnungen fallende ist: naemlich die bis zum Inzest sich steigernde Geschwisterliebe. Nichts, so moechte man meinen, koennte weiter von Ulrichs Utopie des exakten Lebens entfernt sein. Musils Ueberzeugung aber geht dahin, dass Erfahrungen im «anderen Zustand» eben jene Unwiderlegbarkeit besitzen, die Ulrich an den Ergebnissen der exakten Wissenschaft bewundert und ihn ueberlegen liess, ob deren Methoden auf die Lebensfuehrung angewandt werden koennten. Wie weit Ulrich auf seinem neuen Weg gelangen sollte, laesst sich freilich aus dem philologisch ungesicherten fragmentarischen Kontext des Romans zuverlaessig nicht erschliessen. Sicher ist nur, dass der Versuch, dem «anderen Zustand» Dauer zu verleihen, fluechtige Augenblicke der Entrueckung - wie Musil sagt - zur Totalitaet zu strecken (38), zum Scheitern verurteilt ist (39). «Ulrichs System ist am Ende desavouiert ... », notiert der Autor auf einem Studienblatt, «die Utopien sind zu keinem praktikablen Ergebnis gekommen» (40).

Die Skizzen zur Fortsetzung des Romans, die der Nachlass enthaelt, bestaetigen nur, dass Musil seine Grenzen ausgeschritten hatte. Es sind die Grenzen eines Dichters, der zu wahrhaftig ist, die gesuchte praktikable Loesung zu erschleichen oder einfach zu behaupten (41). Ungeloest bleibt damit aber auch das Dilemma der Titelgestalt, wie es sich paradigmatisch in der Einrichtungsfrage zum ersten Mal offenbart. Man sollte nicht anstehen, es tragisch zu nennen. Denn das weltlose Leben, zu dem Ulrich verdammt ist, hat sich als notwendiges Resultat seiner anspruchsvollen Liebe zum Leben erwiesen - zum Leben in einer Gestalt, die nicht «ebensogut anders» sein koennte. «Aber gerade du hast doch die unerschuetterliche und die ganze Antwort gesucht» (42), sagt Agathe bei einer letzten Begegnung mit dem tief verunsicherten Bruder. Nichts koennte die Tragik von Ulrichs Existenz treffender kennzeichnen als dieser Satz, der nach Frisé's Auskunft fuer das Schlusskapitel des Romans vorgesehen war.

Frage angewandt werden kann, deren metaphysische Natur nicht schon deshalb verschwindet, weil Ulrich vom Streit der Metaphysiker sich nichts verspricht. Fest steht, dass er aus seiner Utopie des exakten Lebens wie auch aus der des Essayismus keinerlei Konsequenzen zu ziehen vermag.

Seine Weigerung, in einer vorlaeufigen Wirklichkeit sich einzurichten, hat eine eigene, unpathetische Groesse. Wohin sie aber in praxi fuehrt, zeigt schon die scheinbar paradoxe Aufloesung des vergleichsweise banalen Problems einer Wohnungseinrichtung. Sie verwehrt dem Leben selbst die schlichteste Sinnerfuellung, ja sie fordert als Preis die theoretische Zuruecknahme von Welt ueberhaupt. Wer wie Ulrich das Unbedingte will und deshalb jedem Engagement fuer bedingte Zwecke und Ziele sich versagt, dem bleibt fuer seine faktische Existenz nur das Allerunverbindlichste uebrig : ein inhaltloses, weltloses Niemandsleben. Der Roman weicht der Beglaubigung dieser Konsequenz nicht aus. An Ulrichs teilnahmsloser Teilnahme an den Geschaeften der Umwelt, an seinem indifferenten Verhaeltnis zu Freunden und Geliebten laesst sich ablesen, wie schattenhaft sein Dasein in der Tat ist. Festzustellen ist aber auch, dass er sich seines Dilemmas in wachsendem Masse bewusst wird. Die kleine und naerrische Taetigkeit, wie er seine Arbeit als Sekretaer der Parallelaktion nennt, vermag seine «mit jedem Tage» steigende Verzweiflung nicht zu verdecken, ja sie macht ihm den «Notstand seines Lebens» (33) erst wirklich fuehlbar. Am Ende des ersten Bandes, als er sich nach einem Gespraech mit Arnheim nachts auf dem Heimweg befindet, kommt er sich vor «wie ein durch die Galerie des Lebens irrendes Gespenst ... , das voll Bestuerzung den Rahmen nicht finden kann, in den es hineinschluepfen soll» (34). So vernichtend trifft ihn das Gefuehl, im Nirgendwo zu verharren, dass ihm Moosbrugger, der geisteskranke Prostituiertenmoerder, beneidenswert erscheint wegen seiner Zwangsvorstellungen und des Glaubens an seine Rolle. Er fühlt, «dass er nun endlich entweder fuer ein erreichbares Ziel wie jeder andere leben» oder mit den «Unmoeglichkeiten», auf die er zutreibe, «Ernst machen muesse» (35). Was mit dieser letzten Bemerkung gemeint ist, bleibt dunkel. Er hat nur die Ahnung, «dass ihm etwas nahe bevorstehe» (36).

Was ihm bevorsteht, was er voruebergehend zu erreichen scheint, ist der unter dem Blickwinkel der Wirklichkeit u n m o e g l i c h e Uebergang in einen Zustand, der im Roman als «anderer Zustand» ausgewiesen

Relativierung moeglicher Bestimmungsgruende menschlichen Verhaltens sich erschoepft, die also voellig offen und das heisst letztlich : ohne Verantwortung ist.

Freilich zeigt er sich dieser Kritik nur ironisch aufgeschlossen. Denn sowenig er die Fragwuerdigkeit seiner Situation zu verschleiern bereit ist, sowenig ist er andererseits gewillt, sich im Sinne der «Altvordernweisheit» seines Vaters durch die Wahl eines beliebigen Bestimmungsgrundes selbst zu beschraenken. Er ueberlaesst dies vielmehr - aus seinem Moeglichkeitssinn die aeusserste Konsequenz ziehend - dem «Genie seiner Lieferanten» (29), gibt also die Initiative an die Umwelt ab, deren Entscheidungen nicht die seinen und deshalb fuer ihn unverbindlich sind. Es heisst im Text : «Als alles fertig war, durfte er den Kopf schuetteln und sich fragen : dies ist also das Leben, das meines werden soll ?» (30) ; und am Schluss : «Er war vom Mond zurueckgekehrt, und hatte sich sofort wieder wie am Mond eingerichtet» (31). Damit ist unmissverstaendlich ausgedrueckt, dass Ulrich sich mit der gelieferten Einrichtung nicht im geringsten identifiziert, dass er zu dem Leben, das seines werden soll, keine persoenliche Beziehung unterhaelt. Sein kleines Palais, das genauso ausgefallen ist, «wie man sich seinesgleichen denkt» (32), ist ihm so gleichgueltig wie irgendein fremdes Haus, in dem man zufaellig fuer befristete Zeit Quartier nimmt.

Im Teilproblem spiegelt sich das Ganze seiner Lebensproblematik. Wie in seinem Haus ist er auch in der Wirklichkeit ein Fremder. Die Einsicht, dass auf spekulativem Wege nicht zu finden ist, wonach er sucht, laesst ihn andere, freilich ebenso vergebliche Wege ins Auge fassen. Man hat, besonders im Hinblick auf seine Entwuerfe zu einer Utopie des exakten Lebens, von einer mathematisch-naturwissenschaftlichen Methode gesprochen, die Ulrich der Loesung seiner Aufgabe dienstbar zu machen suche. Tatsaechlich plaediert er dafuer, eben jene Exaktheit, durch die sich die Methoden der Mathematik und der Experimentalwissenschaften vor einer jahrtausendealten und im Grunde nie vom Fleck gekommenen Spekulation um die rechte Art des Menschseins auszeichnen, auch auf das Gebiet der Moral und der Leidenschaften anzuwenden, d.h. der verbindlichen Form der Existenz durch «genaues Tun und Sein» gleichsam experimentell auf die Spur zu kommen, statt sie in muessigen Gedankenspielen stets zu verfehlen. Dabei bleibt offen, wie und ob ueberhaupt ein der mathematischen oder der experimentellen Methode analoges Verfahren zur Loesung einer

Gegenwart Vorgegebene. Und folglich kann er sich nicht entschliessen, irgendeinen seiner Einfaelle vor anderen Einfaellen zu bevorzugen. Mit anderen Worten : Wie er sich als Knabe gegenueber den politischen Partialgebilden seiner Zeit verhalten hatte, so verhaelt er sich jetzt, nachdem er zunaechst die radikalen Geltungsansprueche fremder Ideen abgewiesen hat, auch den Inhalten seines eigenen Denkens gegenueber, die ja ebenfalls allesamt alles fuer sich beanspruchen, ohne hierzu durch ihre faktische Beschaffenheit legitimiert zu sein. Realisierungswuerdig waere fuer ihn nur ein nicht mehr relativierbarer Einfall. Da ihm dieser versagt bleibt, ja notwendig versagt bleiben muss (denn wer oder was waere Ulrich, wenn es ihm gegeben waere, einen absoluten Stil zu kreieren ?) erschoepft er sich in einem leeren Spiel mit Moeglichkeiten. Er gleicht einem Schoepfergott vor der Schoepfung, einer potentia absoluta, der es verwehrt ist, zur potentia ordinata zu werden, weil sie sich nicht in einem bestimmten Werk, in einer bestimmten Taetigkeit zu begrenzen vermag. Irritiert durch die Beliebigkeit seiner miteinander rivalisierenden Ideen, denkt er sich immer unausfuehrbarere, immer inhaltlosere Projekte aus, zum Beispiel «Drehzimmer, kaleidoskopische Einrichtungen, Umstellvorrichtungen fuer die Seele» (26).

Der Leerlauf seiner Gedankenversuche entspricht, wie es scheint, dem Treiben der die Zeitwirklichkeit des Romans beispielhaft repraesentierenden Parallelaktion, die fuer ihr vaterlaendisches Unternehmen ja auch nach einer «erloesenden» Idee sucht, ohne je zu einem befriedigenden Ergebnis zu gelangen. Der Text bestaetigt diesen Eindruck, indem er von der bekannten «Zusammenhanglosigkeit der Einfaelle» und ihrer «Ausbreitung ohne Mittelpunkt» (27) spricht, wie sie fuer die Gegenwart kennzeichnend sei. Waehrend aber die Parallelakteure den Bereich der Wirklichkeit durchaus nicht transzendieren, vielmehr in ihm zu finden hoffen, was sich als absoluter Wert erweisen werde, sieht sich Ulrich auf seiner Suche nach einem «Unbedingten» folgerichtig zur Desavouierung des Gegebenen genoetigt. Indem er die Erkenntnis, auf diese Weise nur in einen neuen Zirkel beliebig austauschbarer Ideen geraten zu sein, nicht abweist, hebt er sich weiter vorteilhaft von den Parallelakteuren ab, die fuer die Ungangbarkeit des von ihnen eingeschlagenen Weges trotz wachsendem Unbehagen blind bleiben. Ulrich gelangt an einen Punkt, wo er sich gewisser Saetze seines Vaters (28) erinnern muss, durch die eine Haltung kritisiert wird, die wie seine eigene in permanenter

Hause zurueck, um die Spruchweisheit zu erproben, dass die Heimat die «geheimnisvolle Faehigkeit» besitze, «das Sinnen wurzelstaendig und bodenecht zu machen» (21).

Das erste praktische Problem, das in der Heimat auf ihn zukommt, ist die Einrichtung seines Hauses. Ulrich befindet sich nicht nur in der beneidenswert scheinenden Lage, sein Anwesen «vom Ei an neu herrichten zu muessen» (22), bewusstseinsmaessig verfuegt er auch ueber alle Stile aus Vergangenheit und Gegenwart, «von den Assyrern bis zum Kubismus» (23). Dabei ist er sich vollkommen darueber im klaren,dass jeder Stil einer Lebensphilosophie entspricht. Der Text weist darauf hin, indem er Forderungen moderner Einrichtungsreformer ironisch paraphrasiert, so etwa die Forderung eines bekannten Innenarchitekten, Wohnungen mit verschiebbaren Waenden zu versehen, weil «der Mensch dem Menschen zusammenlebend vertrauen lernen muesse und nicht sich separatistisch abschliessen duerfe» (24). Sofern aber Stil zugleich Lebensstil ist, impliziert die Wahl des Stils eine existenzielle Entscheidung, ist sie gleichbedeutend mit dem «Ausbau» der «Persoenlichkeit», wie der Text doppeldeutig annonciert - ganz im Sinne der Drohung «Sage mir, wie du wohnst, und ich sage dir, wer du bist» (25). Diese Drohung, scheinbar darauf gerichtet, den Einzelnen dem kollektiven Anspruch vorgegebener Stile zu entziehen und seine Eigeninitiative zu wecken, in Wahrheit aber immer in Verbindung mit bestimmten, sich allesamt absolut setzenden Stilvorschlaegen auftauchend, schwebt denn auch ueber Ulrichs Haupt. Nach reiflicher Ueberlegung fasst er den Entschluss, sich den «Ausbau seiner Persoenlichkeit» von niemandem abnehmen zu lassen, mithin seine kuenftige Einrichtung eigenhaendig zu entwerfen.

Ulrichs Verhalten in dieser Situation entspringt seinem Moeglichkeitssinn. Er ist sich natuerlich bewusst, dass alle ihn unbedingt fordernden Stile und Einrichtungsvorschlaege in gleicher Weise zufaellig sind, dass also jeder Stil durch jeden anderen ersetzt werden koennte. Indem er sich ihnen verweigert und seinen «Lebensstil» (im doppelten Sinne des Wortes) selbst zu bestimmen versucht, tut er im kleinen, gleichsam in einer Modellsituation, nichts anderes, als was er ebenso - wenn auch sehr viel ernsthafter und im Bewusstsein der ganzen Problemschwere- im grossen unternimmt : Er sucht nach einem Leben, das nicht «ebensogut anders» sein koennte. Schon hier macht er aber auch die Erfahrung, dass alles, was er selbst denkend hervorbringt, genauso zufaellig ist wie das in Vergangenheit und

der traditionellen Loesung des Theodizeeproblems zufolge auch die Welt die beste aller moeglichen Welten. Die Reaktion ist entsprechend. Wie der Text durch metaphorische Inversion ironisch markiert, wird die allgemeine Empoerung auch von Ulrichs Vater, einem echten Patrioten im Sinne der Umwelt, geteilt. Erbost «ueber die Beschaemung, die ihm sein weit vom Stamme gefallener Apfel bereitete», schickt er den Sohn in ein belgisches Erziehungsinstitut - mit dem Erfolg, dass dieser in der Fremde die «Missachtung der Ideale anderer international zu erweitern» lernt (18).

Dies also ist die erste Probe von Ulrichs Sinnesart, an deren Wuenschbarkeit der Text keinen Zweifel laesst. Schon in dieser fruehen Phase seiner Geschichte zeigt sich aber auch, wie schwer es ist, als Moeglichkeitsmensch ueberhaupt zu existieren, d. h. wie inhaltlos ein Leben zu werden droht, das sich im Wissen um die Zufaelligkeit und Vorlaeufigkeit des wirklich Vorhandenen jeder Festlegung, jeder Entscheidung versagt. Der folgende Abschnitt des Kapitels beginnt mit der retrospektiven Feststellung : «Seither waren sechzehn oder siebzehn Jahre vergangen, wie die Wolken am Himmel treiben» (19). Die ungenaue Zeitangabe ist genauso wenig zufaellig gewaehlt wie der sich anschliessende Modalsatz. Denn nur fuer einen Menschen, der sein Leben auf konkrete Ziele ausrichtet und sie handelnd einzuholen strebt, spielt Zeit, gemessen in Stunden, Tagen, Jahren, eine Rolle, und nur ihm stellen sich im Rueckblick die vergangenen Jahre als Stufen eines sinnerfuellten Prozesses dar. Nicht so fuer Ulrich, von dem es heisst, er sei «inzwischen da und dort gewesen» und habe «ueberall Wertvolles und Nutzloses getrieben» (20). Die vage Ortsbestimmung, vor allem aber auch die unscharfe Taetigkeitsaussage erweisen sich als notwendiges Korrelat der ungenauen Zeitangabe, angemessen einem Leben, das sich selbst und der Welt gegenueber im Zustand der Indifferenz verharrt. Die Konjunktion «und», die die Substantive «Wertvolles» und «Nutzloses» miteinander verbindet, hat nicht additive oder disjunktive Funktion. Sie unterstreicht vielmehr die Identitaet beider Phaenomene in der Erlebnisperspektive Ulrichs. Das «Wertvolle» ist fuer ihn zugleich das «Nutzlose», das «Nutzlose» zugleich das «Wertvolle». Das eine wie das andere gilt ihm gleich, hat Bedeutung nur fuer die Umwelt, nach deren Kriterien es sich konstituiert. Das Gefuehl, auf diese Weise ins Nichts zu geraten, veranlasst ihn - wenn auch nur in ironischer Attitude - zu einem Versuch. Er kehrt nach

Widerspruches von ihrer Ueberzeugung nicht zurueckzutreten bereit sind, so offenbaren sie damit, dass sie laengst zu denken aufgehoert haben. Der junge Ulrich aber ist hierzu nicht bereit. Er wird im Gegenteil durch das ihm vermittelte Widerstandserlebnis recht eigentlich zum Denken herausgefordert, und so foerdert er in seinem Aufsatz nicht das erwartete Ergebnis, ja er schreibt, «ein ernster Vaterlandsfreund» duerfe «sein Vaterland niemals das beste finden» (14).

Diese ueberraschende Auskunft involviert Ueberlegungen, die Ulrichs Respekt vor den Gesetzen der Logik bezeugen, ueber das durch sie Gebotene aber noch hinausfuehren. Denn was Ulrich abschliessend formuliert, ist ein moralisches Postulat, basierend auf der Einsicht, dass ein Mensch, der sein Vaterland das beste findet (sei es im Vergleich mit anderen Vaterlaendern oder auch nur in seiner Art), nicht die geringste Veranlassung hat, Aenderungen zu erstreben, waehrend ein kritisch eingestellter Staatsbuerger sich sehr wohl dazu bewogen fuehlen koennte. Unmissverstaendlicher formuliert : Nur er waere imstande, dem Vaterland gegenueber die gleiche Haltung einzunehmen, die der Moeglichkeitsmensch gegenueber jedem beliebigen Wirklichen, ja sogar gegenueber der Wirklichkeit als Ganzem zeigt und zeigen muss. Denn nach Ulrichs Ueberzeugung, die er im folgenden Satz ausdrueckt, spricht «wahrscheinlich auch Gott von seiner Welt am liebsten im Conjunctivus Potentialis»— also mit dem Gedanken «es koennte ebensogut anders sein» (15). Damit ist gemeint, was er spaeter auf die Formel bringen wird, «dass die Welt, wie sie ist, allenthalben eine Welt durchscheinen laesst, die sein haette koennen oder werden haette sollen ; so dass alles aus ihrem Treiben Hervorgehende mit Forderungen vermischt ist, die nur in einer anderen Welt verstaendlich waeren» (16). Oder anders ausgedrueckt : «Gott meint die Welt keineswegs woertlich ; sie ist ein Bild, eine Analogie, eine Redewendung, deren er sich aus irgendwelchen Gruenden bedienen muss, und natuerlich immer unzureichend ; wir duerfen ihn nicht beim Wort nehmen, wir selbst muessen die Loesung herausbekommen, die er uns aufgibt» (17).

Indem schon der junge Ulrich solcherart alles Gegebene - die goettliche Schoepfung selbst nicht ausgenommen - als vorlaeufig, als Herausforderung zum Vorstoss ins Moegliche auszuweisen versucht, setzt er sich der aggressiven Kritik der Umwelt aus. Denn wie fuer sie das Vaterland das beste aller moeglichen Vaterlaender ist, so ist

Roman sind (11). Musil bemerkt u. a.: «Er (i. e. der Mensch mit Moeglichkeitssinn) will gleichsam den Wald und der andere die Baeume ; und Wald, das ist etwas schwer Ausdrueckbares, wogegen Baeume soundsoviel Festmeter bestimmter Qualitaet bedeuten» (12). Angespielt wird hier auf das Dilemma, in das Ulrich geraten muss und in der Tat geraet, da er sich weder mit den Aufgaben und Zielen, die innerhalb der Wirklichkeit fuer ihn bereitstehen, noch mit sich selbst zu identifizieren vermag ; andererseits aber auch nicht imstande ist, an deren Stelle etwas zu setzen, was seinen Einsatz rechtfertigte, vielmehr alle seine Energien in der experimentierenden Suche nach einem inhaltlich noch nicht fixierbaren Unbedingten erschoepft. Die Frage stellt sich, welcher modus vivendi ihm ueberhaupt moeglich ist, wie er innerhalb der Welt, auf deren Bedingungen er doch angewiesen bleibt, sich einrichten kann.

Das folgende Kapitel beantwortet diese Frage, indem es im buchstaeblichen Sinne des Wortes von einem Einrichtungsversuch erzaehlt, der exemplarisch zugleich auf das allgemeine Problem der Lebenseinrichtung verweist. Mit einem Nachtrag beginnend resumiert das Kapitel in stark raffender Form zunaechst Ulrichs Entwicklung von der Kindheit bis zur Erzaehlgegenwart. Einleitend heisst es, «die erste Probe seiner Sinnesart» habe Ulrich «schon an der Grenze des Knaben- und Juenglingsalters» (13) abgelegt, und wir erfahren auch, um welche Sinnesart es sich handelt und durch welche Situation sie herausgefordert wird. Ulrich hat ueber ein patriotisches Thema einen Schulaufsatz zu schreiben, der nach Meinung der Umwelt, im engeren Sinne repraesentiert durch den Lehrkoerper der Bildungsanstalt, nur e i n Ergebnis zulaesst. Dieses Ergebnis lautet : Oesterreich, das in allen Kriegen immer gesiegt hat, ist die groesste, staerkste, bedeutendste Nation.

Dass dieses Ergebnis nicht richtig sein kann, enthuellt der Text, indem er in ironischer Intention feststellt, derselbe Geltungsanspruch werde von allen anderen Nationen auch erhoben. Die Geltungsansprueche aller in Bezug auf die gleiche Sache aber schliessen sich gegenseitig aus. Wohl scheint fuer die oesterreichische Nation wie fuer jede andere Nation auch an sich noch die Moeglichkeit zu bestehen, die Ansprueche der uebrigen Nationen als Luege abzuweisen ; doch sieht sich speziell Oesterreich dem paradoxen Umstand gegenueber, dass es nach den meisten seiner vorgeblichen Siege territoriale Einbussen hinnehmen musste. Wenn die oesterreichischen Patrioten trotz dieses

Wirklichkeit» (4) nennt, d. h. einen Seinszustand, der nicht ebensogut anders sein koennte (5). Ulrich hat keine inhaltliche Vorstellung von dem erhofften Zustand, wohl aber glaubt er, dass dessen Eintreten sich im Menschen als ueberwaeltigendes Evidenzerlebnis anzeigen muesse.

Dass die Konsequenzen dieser Haltung weiter reichen, als der Leser zunaechst anzunehmen geneigt ist, deutet sich am Ende des vierten Kapitels an. Musil konstatiert lakonisch : «Und da der Besitz von Eigenschaften eine gewisse Freude an ihrer Wirklichkeit voraussetzt, erlaubt das den Ausblick darauf, wie es jemand, der auch sich selbst gegenueber keinen Wirklichkeitssinn aufbringt, unversehens widerfahren kann, dass er sich eines Tages als ein Mann ohne Eigenschaften vorkommt» (6). Tatsaechlich ist Ulrich auch sich selbst gegenueber ohne Wirklichkeitssinn. Die Eigenschaften, die er besitzt, konstituieren fuer ihn keine so und nicht anders denkbare Person, sondern erscheinen ihm als zufaellige Auswahl aus dem allgemeinen Vorrat menschlicher Eigenschaften, ueber den er virtuell verfuegt und aus dem er unter bestimmten Umstaenden auch andere sich aneignen koennte. Er hat es, wie im Roman einmal bemerkt wird, zu allen Eigenschaften «gleich nah und weit» (7), ja er verallgemeinert ueber sich selbst hinaus und stellt sich vor, «dass alle Eigenschaften, die in der Menschheit je zum Ausdruck gekommen sind, ziemlich nah beieinander in dem Geist jedes Menschen ruhen, wenn er ueberhaupt Geist hat» (8). Sich mit seinen faktischen Eigenschaften, die er kraft der Zufaelligkeit ihrer Auswahl und Organisation als «mehr zueinander als zu ihm» (9) gehoerig begreift, zu identifizieren und das heisst doch : einen beliebigen Charakter als Schicksal und Aufgabe zu bejahen, wie es die Wirklichkeitsmenschen um ihn herum tun, ist ihm schlechterdings unmoeglich (10). In derselben Weise, wie er die umgebende Welt stets unter dem Aspekt ihrer noch nicht realisierten Moeglichkeiten betrachtet, sieht er auch sich selbst als potentiellen Menschen an, vergleichbar einem noch ungeschriebenen Gedicht, das in der Niederschrift unendlich viele verschiedene Gestalten gewinnen koennte. Unter ihnen gilt es die buendige Gestalt zu finden.

Das vierte Kapitel, das von den ausserordentlichen Chancen des Moeglichkeitssinnes spricht, deutet freilich auch dessen ausserordentliche Probleme und Gefahren an. Doch sind diese Andeutungen in einer metaphorischen Sprache gehalten, sie implizieren mehr als sie explizieren, und hier mag der Grund liegen, warum die Forschung uebersehen hat, dass auch sie von grundlegender Bedeutung fuer den

ULRICH RICHTET SICH EIN

Notizen zum Kapitel «Ulrich» in Robert Musils «Der Mann ohne Eigenschaften»

WOLFRAM BUDDECKE

Im vierten Kapitel des ersten Teils seines chef d'oeuvre reflektiert Musil ueber Wirklichkeitssinn und Moeglichkeitssinn. Er bestreitet nicht, dass Wirklichkeitssinn - verstanden als die Bereitschaft, Tatsachen zu respektieren - Daseinsberechtigung habe. Aber sein vorrangiges Interesse gehoert dem Moeglichkeitssinn, den er als Faehigkeit ausweist, «das, was ist, nicht wichtiger zu nehmen als das, was nicht ist» und das, was sein koennte, sollte oder muesste, zu denken (1). Schoepferisch nennt er diese Faehigkeit, sofern sie nicht in ihrer schwachen Spielart auftritt, naemlich als Ausdruck des Unvermoegens, die Wirklichkeit zu begreifen oder zu bestehen, sondern als Bauwille und bewusster Utopismus, der «die noch nicht erwachten Absichten Gottes» (2) zu erkunden versucht.

Dass diese Bemerkungen von grundlegender Bedeutung fuer den Roman sind, ist von der Forschung erkannt und wiederholt betont worden (3). Ulrich, die zentrale Figur des Romans, deren Perspektive sich weitgehend mit der des Erzaehlers deckt, besitzt Moeglichkeitssinn in jener starken Spielart, von der Musil spricht. Keine politische, moralische oder religioese Ordnung, keine Lebensform oder Lebenslehre erweist sich seinem kritischen Verstand als notwendig in ihrem Sosein oder unwiderlegbar in ihrer Geltung. Die daraus folgende reservatio mentalis, die ihn als Ironiker in einem grundsaetzlichen weltanschaulichen Sinne ausweist und dem Werkstil seine einheitliche ironische Praegung gibt, findet ihr positives Korrelat in dem Willen, den scheinbar festen Horizont der Wirklichkeit auf andere, noch nicht entdeckte, noch nicht erweckte Moeglichkeiten hin zu oeffnen, um auf diesem Wege zu erschliessen, was der Roman einmal die «wirkliche

CONTENTS

OF THE EUROPEAN SECTION

The Bulletin of the Faculty of Arts is issued twice a year ; in May and December. All requests for copies should be addressed to Cairo University Library, Giza. Communications regarding contributions should be addressed to the

Dean of the Faculty of Arts,

Giza, U. A. R.

Back numbers of this Bulletin are available
at 30 P. T. for each Part

*** This volume is published in one issue covering the whole year.**

BULLETIN

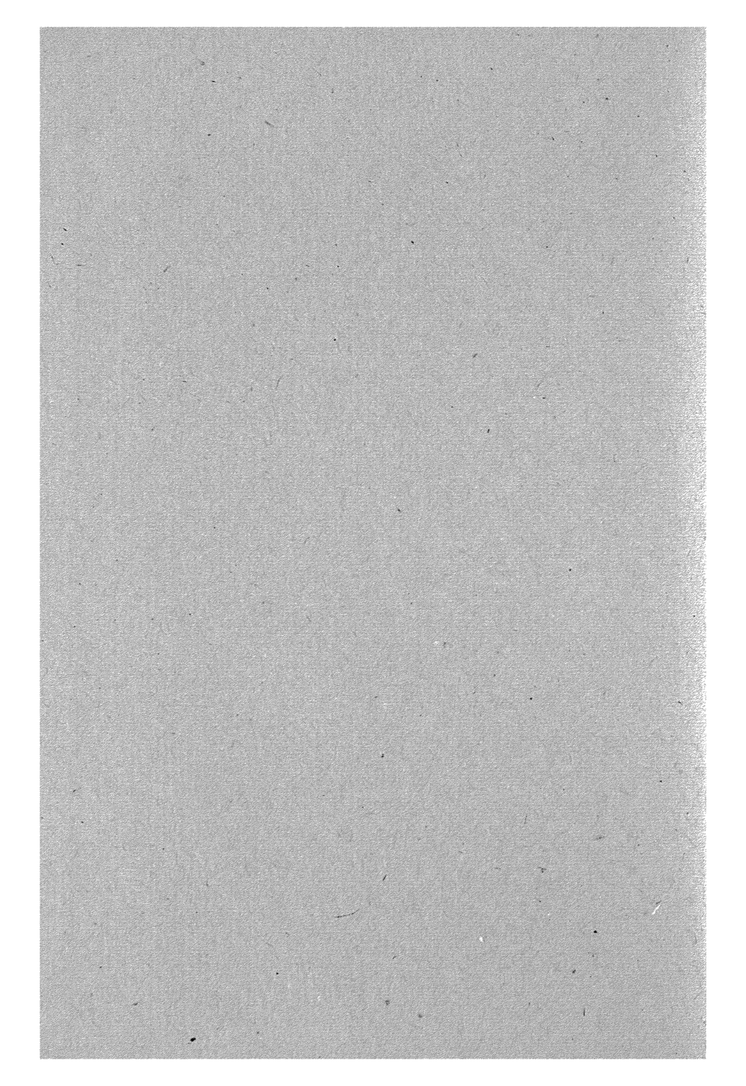
OF

THE FACULTY OF ARTS



VOL. XXVII—Parts 1 & 2
May & December 1965

THE PUBLIC ORGANISATION FOR BOOKS
AND SCIENTIFIC APPLIANCES
CAIRO UNIVERSITY PRESS
1969



BULLETIN

OF

THE FACULTY OF ARTS



VOL. XXVII—Parts 1 & 2

May & December 1965

THE PUBLIC ORGANISATION FOR BOOKS
AND SCIENTIFIC APPLIANCES
CAIRO UNIVERSITY PRESS
1969



